مُحاضرات في

تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة الأموية

تأليف

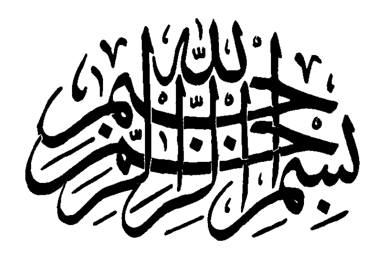
الشيخ محمد الخضري

الجزء الأول

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

حمدي حامد صبح

دار ابن رجب



محاضرات في

تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة الأموية

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٨٠٥٨

I.S.B.N : 977 - 390 - 059 - 2

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فقد عهد إليّ مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الأمم الإسلامية، فقمت بما عهد إليّ به على قدر ما منحت في العزيمة والوقت، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عامًّا، فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها، وها هي ذي تعرض على المؤرخين ورجال العلم، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى، وهي صعوبة استفادة التاريخ العربي من كتبه.

هذا، وإني أعلن شكري الوافر وثنائي العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلته من ثقته حتى اعتمد عليّ في أداء هذه المهمة، وأخص بثنائي وإخلاصي رجل الهمة والعزيمة الأمير الجليل أحمد فؤاد باشا، رئيس إدارة الجامعة، الذي بثاقب نظره وقوة عزيمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الأمام.

فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدده في القول والعمل، إنه نعم المجيب.

محمد الخضري





المحاضرة الأولى في التاريخ الإسلامي

مباحث التاريخ الإسلامي - ما يلزم المؤرخ -

جزيرة العرب ووصفها - شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذي جاء به سيدنا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لأن تسيح إلى ما جاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانًا واسعًا يرتكز على دعامة ذلك الدين فمؤرخ الإسلام يرجع بحثه إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضًا:

الأول: الدين الإسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقفت في طريقه حتى غلبها الثبات والصبر.

الثاني: تأثيره في النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ما جاورها من الأقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادًا إلى سلطان الدين.

الثالث: ما كان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التي دانت بالإسلام وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى، وفي حضارة الأمم التابعة لسلطانه.

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثر به لأول مرة هم العرب - لم يكن لنا بدّ من ذكر مقدمة إجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجيء الإسلام؛ لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا مقدار

استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أنَّا سنقدم :

كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد

كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكمًا تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ ، فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنًا وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتىٰ ما أدىٰ منها إلىٰ سقوط فاعله وخيبته ، وعاطفة الكراهة تدعو إلىٰ ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحًا وتستنبط من الخير شرًّا ، ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم - إلا نفر قليل جدًّا وإذا نظرنا إلىٰ أنفسنا نجدها لا تحكم علىٰ شيء من الحوادث التي تشعر بها حكمًا بحسب ما تستحق ، فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملاً حسنًا جميلاً ، والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله علىٰ أسوأ محامله ، نحكم علىٰ متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء والمعوزين في حال رغده ، ولا نأبه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مراءٍ محب الشهرة الكاذبة ، والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل إليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون .

فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإنّ ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم ؛ لذلك يحتاج دارس التاريخ إلىٰ سعة صدر تحتمل كل ما يرد علىٰ تاريخ قومه من نقد حتَّىٰ لا تبقىٰ حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض .

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشئوا فيها: «جزيرة العرب»، مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء كما قال ياقوت[١] في «معجم البلدان»[٢] نقلاً عن هشام[٣] ابن محمد السائب، عن ابن عباس[٤]: إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات[٥] أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين[٦]، ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة[٧]، والأبلة[٨]، وامتدّ إلى عبادان[٩]، وأخذ البحر في ذلك الموضع مغربًا مطيفًا ببلاد العرب منعطفًا عليها، فأتى منها على سفوان[١٠] وكاظمة[١١] إلى

---

(١) هو ياقوت بن عبد اللَّه الحموي الرومي الأصل، أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد، ساح سياحات مهمة وألف كتبًا نافعة في التاريخ والتقويم منها: «معجم البلدان»، و«معجم الشعراء»، و«معجم الأدباء»، وغير ذلك من الكتب المفيدة، وكان ثقة في النقل. توفي سنة (٦٢٦) بظاهر حلب. (المؤلف).

(٢) معجم البلدان (٢/ ١٣٧).

(٣) نسابة عربي له كتاب «الجمهرة» في النسب، وله مصنفات كثيرة كلها في أخبار العرب، توفي سنة (٢٠٤). (المؤلف).

(٤) هو عبد اللَّه بن عباس بن عبد المطلب، جد الملوك من بني العباس، من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن، توفي في خلافة الزبير سنة (٦٨). (المؤلف).

(٥) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية، ويمر على كثير من المدن العظيمة، حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبًا معًا في خليج عمان من بحر الهند. (المؤلف).

(٦) قنسرين: مدينة جنوبي حلب، وكانت اسمًا لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب، فتحت سنة (١٧هـ). (المؤلف).

(٧) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريبًا من المصب في خليج عمان، مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة (١٤ هـ). (المؤلف).

(٨) بلدة على شاطئ النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة. (المؤلف).

(٩) مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة في خليج عمان منسوبة إلى عباد بن الحصين، وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه. (المؤلف).

(١٠) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة، وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين. (المؤلف).

(١١) جو على سيف البحر، وهي المنزلة الثانية في جادة البصرة إلى البحرين. (المؤلف).

القطيف[١] وهجر[٢] وأسياف البحرين[٣] وقطر[٤] وعمان[٥] والشِّحر[٦]، ومال منه عنق إلىٰ حضرموت[٧] وناحية أبين[٨] وانعطف مغربًا منصبًّا إلىٰ دهلك[٩]، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان[١٠] وحكم[١١] والأشعرين[١٢] وعك[١٣] ومضىٰ إلىٰ جدّة[١٤] ساحل مكة والجار[١٥] ساحل المدينة ثم ساحل الطور[١٦] وخليج أيلة[١٧] وساحل راية[١٨] حتىٰ بلغ القلزم[١٩] مصر

---

(١) مدينة بالبحرين، وهي قصبتها. (المؤلف).

(٢) مدينة بالبحرين، وقيل هي اسم كورة من كور البحرين، قصبتها الصفا. (المؤلف).

(٣) اسم جامع لبلاد علىٰ ساحل خليج بين البصرة وعمان، وكانت هي وعمان في أيام بني العباس عملاً واحدًا، وسيف البحر ساحله. (المؤلف).

(٤) قرية علىٰ سيف الخط بين عمان والعقير، وهذه بحذاء هجر. (المؤلف).

(٥) كورة عربية علىٰ ساحل بحر اليمن والهند، وتنتهي إلىٰ البحرين، وقصبتها مدينة صحار. (المؤلف).

(٦) صقع علىٰ ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان. (المؤلف).

(٧) ناحية واسعة في شرق عدن وحولها رمال الأحقاف، ومدينتها الكبرىٰ شبام. (المؤلف).

(٨) مخلاف باليمن منه عدن. (المؤلف).

(٩) جزيرة في بحر اليمن، وهو مرسىٰ بين بلاد اليمن والحبشة، وكانت منفىً في زمن بني أمية. (المؤلف).

(١٠) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي. (المؤلف).

(١١) قبيلة قحطانية تنسب إلىٰ حكم بن سعد من قضاعة، ثم من حمير ينسب إليهم أبو نواس الحكمي. (المؤلف).

(١٢) قبيلة قحطانية تنسب إلىٰ الأشعر بن أدد من كهلان بن سبأ، ينسب إليها أبو موسىٰ الأشعري. (المؤلف).

(١٣) قبيلة قحطانية تنسب إلىٰ عك بن عدنان من الأزد ثم من كهلان. (المؤلف).

(١٤) فرضة علىٰ ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع. (المؤلف).

(١٥) فرضة علىٰ ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع. (المولف).

(١٦) شبه جزيرة في شمال خليج القلزم، وهي كورة مصر. (المؤلف).

(١٧) مدينة علىٰ ساحل بحر القلزم، وهي آخر حدود الحجاز، وكانت منزلة للجادة بين مصر ومكة. (المؤلف).

(١٨) كورة من كور مصر البحرية. (المؤلف).

(١٩) مدينة كانت علىٰ منتهىٰ الخليج المبتدئ من المندب وبها سمي الخليج، والمسافة بينها وبين الفرما التي كانت علىٰ بحر الروم مقدار القناة، والأولىٰ في مكان السويس، والثانية في مكان بورسعيد. (المؤلف).

وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلىٰ بلاد السودان مستطيلاً معارضًا للبحر حتىٰ دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتىٰ بلغ بلاد فلسطين[١] فمرَّ بعسقلان وسواحلها وأتىٰ صور[٢] ثم سواحل الأردن[٣] وعلىٰ بيروت وذواتها من سواحل دمشق، ثم نفذ إلىٰ سواحل حمص وسواحل قنسرين حتىٰ خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطًا علىٰ أطراف قنسرين والجزيرة[٤] إلىٰ سواد العراق.

وهذا التحديد وإن كان يُسهِّل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضي أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب، وهذا غير مرضي عند المؤرخين؛ فإنهم يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين، فهذان خارجان عنها، وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءًا مهمًّا من بلاد سوريا كما سكنوا جزءًا من الجزيرة، وعلىٰ ذلك لا بد من القول من أن هناك تسامحًا في إطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية.

أقسام الجزيرة الطبيعية:

قسَّم العرب جزيرتهم إلىٰ خمسة أقسام بحسب طبيعتها، وهي:

(تهامة - الحجاز - نجد - اليمن - العروض)

فأما تهامة: ويقال لها الغور، فهي الأراضي التي علىٰ شاطئ بحر القلزم ممتدة عرضًا إلىٰ سلسلة جبال السراة، وسموها تهامة لشدة حرِّها وركود ريحها، من التهم وهو شدة الحر وركود الريح، يقال: تهم الحر إذا اشتد.

---

(١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها بيت المقدس، ومرفؤها يافا، ولها من ناحية مصر رفح، وهو الحد بين مصر والشام. ومن موانئها عسقلان. (المؤلف).

(٢) مدينة من أعمال الأردن علىٰ ساحل بحر الروم، بينها وبين عكة ستة فراسخ. (المؤلف).

(٣) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة، وما بين ذلك، والأردن نهر يصب في بحيرة طبرية. (المؤلف).

(٤) وهي الجزيرة بين دجلة والفرات، وتسمىٰ جزيرة أقور. (المؤلف).

وسموها غورًا لانخفاض أرضها.

وأما الحجاز: فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام[1]، يزيد كسر يوم في بعض المواضع، وقد ينقص مثلها في أخرى، فمبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقي عدن، ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان في بعض جهاتها، وإنما سميت حجازًا لأنها حجزت بين الغور ونجد.

وأما نجد: فهو ما دون ذلك الجبل إلى شرقيه، يبتدئ جنوبًا من أدنى حدود اليمن وينتهي إلى السماوة وينتهي من الشرق إلى العروض، وأطراف العراق، وسمي نجدًا لارتفاع أرضه.

وأما اليمن: فهو ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند، ويمتدُّ شرقًا إلى حضرموت والشحر وعمان، وفيه التهائم والنجد.

وأما العروض: فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها، وفيه نجد وغور لقربه من البحر، وانخفاض مواضع منه، ومسايل أودية فيه، وسمي عروضًا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب:

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون، ومنها الحرار - جمع حرة، وهي الجبال السوداء - التي كأنها فحم محترق، ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان أعدتها السيول ليجري فيها ماؤها، والصحاري الرملية المترامية الأطراف.

فما كان من أرضها قريبًا من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى،

---

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلاً، أو ثمانية فراسخ، والفرسخ (٤٤٤٤ م)؛ لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو (٤٠٠٠٠ ك)، وتكون الأربعة أيام (١٤٢ ك) تقريبًا. (المؤلف).

فتمكن أهله من الإقامة فيه بحيث يجدون ما يشربون ويسيمون فيه أنعامهم، وما بعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى.

وأعظم وادٍ ببلاد العرب الدهناء، وهو الوادي الذي في بلاد بني تميم ببادية البصرة، يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منعجًا، ثم في غطفان فيسمونه الرمة، وهو أول نجد، ويصب في الرمة أودية أخرى أكبرها وادي الجريب، والعرب تقول على لسان الرمة[1]:

كل بني فإنه يحسيني ... إلا الجريب فإنه يرويني

ثم يمر ببلاد طيئ فيسمونه حائلاً، وهو واد في جبل طيئ، ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سمودي، وإذا انتهى إليهم عطف إلى بلاد كلب فيصير إلى النيل، وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل في سواد الكوفة، ومتى أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعًا لسعتها وكثرة شجرها، طيبة التربة طيبة الهواء.

وبلاد اليمن كثيرة الوديان، منها ما يقطع السراة حتى ينتهي إلى البحر، ومنها ما هو على عكس ذلك الاتجاه.

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادي مَور، وهو ميزاب تهامة الأعظم، ويتلوه في العظم وبعد المأتى وادي زبيد، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرقي، وهو يضارع مَورًا، ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذي يفضي إلى موضع السد-سد مأرب-، ويسقي بعدها أرض الجنتين وأرض السبتين.

وهناك وديان كثيرة في الجوف بين الجبلين:

العرب تسمي المواضع التي يستنقع فيها الماء رياضًا، وهو جمع روضة،

(١) انظر «معجم البلدان» (٣/ ٧٢)، و«معجم ما استعجم» (٢/ ٦٧٥).

وذلك الاسم خاص بما يكون في الأرض الواطئة فإن كانت في أعالي البراق(١) والقفاف(٢) ، فهي السلقان واحدها سلق ، وإذا جاءتها المياه أنبتت ضروبًا من العشب والبقول لا يسرع إليها الهيج والذبول ، وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمي(٣) ربعت العرب ونَعَمُها ، وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا في ميل ، فإذا عرضت جدًا فهي قيعان وقيعة ، واحدها قاع ، وأصغر الرياض مائة ذراع ، وكل روض يفرغ إما في روض وإما في واد ، وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف ، وقد ذكر ياقوت(٤) من رياض العرب (١٣٦) روضة في جهات مختلفة ، وهي المعروفة بأسماء أصحابها .

ولهم مياه يسمونها الأحساء والحساء ، جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة ، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ، ومنع الرمل السمائم أن تنشفه فإذا بُحث ذلك الرمل أُصيب الماء .

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها ، ولا سيما أن كثيرًا من مياهها يغيض في باطن الأرض ، فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجاري الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبني سدًا محكمًا يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويغيض في الأرض ، ولهذا عدت اليمن قديمًا من البلاد المخصبة المستعدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الأشجار الباسقة ، حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء .

أما ما عداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجُلّ اعتماد أهله على

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة ، وجمعها البراق ، وقد ذكر ياقوت (١٠٠) برقة من براق الجزيرة . (المؤلف) .

(٢) القفاف جمع قف ، وهو ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا . (المؤلف) .

(٣) وسمي أول مطر يصيب الأرض ، والثاني يسمونه الولي . (المؤلف) .

(٤) انظر «معجم البلدان» (٣/ ٩٠-٩٦) .

العيون الضئيلة التي لا تروي إلا الشارب مع الجهد، وربما جادهم الغيث فنبت الكلأ في بعض سهولهم القريبة من الوديان.

وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الأودية، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور؛ لأن الكثير من مائه يغيض في الرمال، وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل.

ومن هنا قلما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد، وإنما يتبعون مواقع القطر أنىٰ كان، لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها.

وحاجة العرب الدائمة إلىٰ الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلىٰ العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار.

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان - بحكم الضرورة - عدم الاعتماد علىٰ ما تنبته الأرض من المزروعات الدورية التي لا تصلح للإنسان - كان جل أعمال أهل البادية علىٰ أنعامهم ولا سيما الإبل، منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحاري المقفرة إلىٰ ما يرومون من الجهات.

أما بلاد اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أي جهة أخرىٰ في الجزيرة؛ لأن تمدين المدن في غير السواحل البحرية يعتمد علىٰ المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها.

جو البلاد:

أما ما كان من الجزيرة تهاميًّا يجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة، فكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر في الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصًا الحرار منها لسواد لونها، ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتىٰ ضربت العرب بشدته الأمثال.

أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلاً وما بعد عنها حره أكثر.

وجو اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف، أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التي تستمر زمنًا طويلاً، ويشتد به الحر في فصل الصيف.

محاج الجزيرة:

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرىٰ إلىٰ مكة وغيرها، وكل طريق منها يسمىٰ محجة، ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب، فإنهم إذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساسًا لذلك التعريف فيقولون: هي علىٰ جادة البصرة، أو الكوفة، أو عن يمين السائر إلىٰ البصرة أو الكوفة، فإن لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة.

وقد فصَّل هذه الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفىٰ سنة (٣٣٤) في كتابه: «وصف جزيرة العرب»[1]، وبيَّن منازلها وما بين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضًا عبيد اللَّه بن خرداذبه في كتابه «المسالك والممالك»، ومن أعظم هذه الجواد: جادة بغداد منها إلىٰ مكة مارّة علىٰ المدينة، وبها (٣٤) منزلة، وطولها (٨٣٠) ميلاً، وجادة الكوفة إلىٰ مكة، وهي تفارق الأولىٰ من معدن النقرة في الشمال الشرقي من المدينة، وعلىٰ بعد (٩٨) ميلاً منها.

وجادة البصرة إلىٰ مكة مارّة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذي يلي منزلة النباج، وجادة البصرة إلىٰ مكة ولا تمر بالمدينة، ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها (٢٢)، ومقدار أميالها (٤٢٠)، وجادتها التهامية وعدد منازلها (٢٢) كالأولىٰ.

ومنها محجة عدن، تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عثر بعد سير (١٦) منزلة، ولحضرموت محجتان، منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة، ومنها السفلىٰ وتتقابل مع محجة صنعاء في تبالة، وتمر علىٰ نجران.

ومنها محجة البصرة إلىٰ البحرين علىٰ ساحل خليج عمان (انظر الخريطة).

---

(١) «صفة جزيرة العرب» (ص١٣) وما بعدها.

الشعوب العربية

العرب قبائل شتىٰ ترجع في نسبها إلىٰ شعبين عظيمين:

الأول: شعب قحطان.

الثاني: شعب عدنان.

فأما شعب قحطان: فمهده بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك، ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيئ ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام.

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف، والواحد منها مخلاف، ويضاف إلىٰ اسم القبيلة التي اختصت به. ذكر منها ياقوت[1] (٣٦) مخلافًا.

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذف في الوديان فيذهب الكثير منها هباءً في جوف الأرض أو في البحر، فأقاموا بمأرب سدًّا وصفه ياقوت نقلاً عن شيخ من أهل صنعاء قال: هو بين ثلاثة جبال، يصب ماء السيل إلىٰ موضع واحد، وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فكأن الأوائل قد سدُّوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول، فيصير خلف السد كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا.

ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان علىٰ ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه، والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه

(١) انظر «معجم البلدان» (٥/ ٦٧ ـ ٧٠).

فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع، فأتلفها وكان ذلك سنة (١٢٠ ق. م.) كما قاله العالم «سيديو».

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب:

فمنهم من قال: إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن يتهدم السد، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته.

ومنهم من قال: إن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان، فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت.

ونحن نرجح الرأي الأخير لسببين:

الأول: أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح، وكلاهما أمر مكروه شنيع، فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملاً، خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره.

الثاني: أن الكتاب لما قصّ علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين قال: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾ فهذا واضح في أن السيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها، وممن سار على هذا الرأي العالم «سيديو».

كانت هجرة أهل مأرب بناءً على رأي كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الأزد من كهلان، خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال.

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذي قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسخيل، ومن أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة.

وتخزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم.

عطف عمران بن عمرو مفارقًا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان.

وسارت قبائل نصر بن الأزد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم أزد شنوءة وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء إليه.

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بني أدد بن زيد **قبيلة لخم بن عدي** الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا - عمرو بن عدي بن نصر الذي ملك بعد جذيمة الوضاح.

ومنهم طيئ: ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقهما وادي الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر: قال شاعرهم عارق الطائي[1]:

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة	**إذا استحقبتها العيس تنضي من البعد**
أيوعدني والرمل بيني وبينه؟	**تأمل رويداً ما أمامة من هند**
ومن أجأ حولي رهان كأنها	**قبائل خيل من كميت ومن ورد**

(١) انظر «معجم البلدان» (١/ ٩٥ و ٩٦).

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهي في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء.

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الأراضي العربية الشمال والغرب وبقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد ومنهم الملوك والأقيال.

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه ـ معيشة العرب من بدو ومن حضر

حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان:

أما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة، فإن عدنان ـ بإجماع كلمة المؤرخين من العرب ـ ينتهي نسبه إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم الذي جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب إليه وإلىٰ أبيه بناء البيت الحرام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. ولم تزل أبناء إسماعيل بمكة تتناسل هناك حتىٰ كان منه عدنان وولده معدّ ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية.

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه إياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما.

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر في الشرف والرفعة، ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام.

ومن ربيعة عبد القيس بن قصي ومنها بكر وتغلب ابنا وائل. ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم.

وتشعبت قبائل مضر إلىٰ شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر.

وقيس عيلان بطونها كثيرة، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغني بن أعصر.

وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وقد انقسمت قريش إلىٰ قبائل شتىٰ من أشهرها جمح وسهم ابنا هصيص بن كعب وعدي بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرّة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزّىٰ بن قصي وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم، وبيت هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب.

مساكن العدنانية:

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلىٰ البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء الإسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوىٰ من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلىٰ اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة وكان أميرهم عند مجيء الإسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الأعشىٰ[1] :

من ير هوذة يسجد غير متئب ... إذا تعمم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها ... صواغها لا ترى عيبًا ولا طبعا

---

(١) انظر «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ٢١٩)، و«الفائق في غريب الحديث» (٣/ ٢٧٣)، و«لسان العرب» (١/ ٧٩١)، وفي اللسان: من يلق هوذة.

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لم يتوج معدي قط وإنما كانت التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال: إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرىٰ في جنبات اليمامة.

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلىٰ البحرين إلىٰ سيف كاظمة إلىٰ البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تساكن بكرًا وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادي القرىٰ إلىٰ خيبر إلىٰ شرقي المدينة إلىٰ حد الجبلين، إلىٰ ما ينتهي إلىٰ الحرّة فتلك ديارهم لا يخالطهم إلا بعض الأنصار.

وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس - وهي علىٰ الجادة بين مكة والبصرة.

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيئ وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلىٰ حوران وبقي بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرّقون لا تجمعهم جامعة حتىٰ نبغ فيهم قصي بن كلاب فجمعهم وكوّن وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم.

بدو العرب وحضرهم:

وينقسم العرب - بالنسبة إلىٰ مساكنهم - إلىٰ حضر: وهم سكان المدن، وبدو: وهم الذين يقيمون في البادية. إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم إلا في ذلك الجو الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور، وقد يطلق المؤرّخون عليهم خاصة اسم الأعراب، وهو ما سنتبعه، ويغلب علىٰ خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمىٰ بالعنجهية.

أما الحضر: فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء يقول عنها اليمنيون إنها أقدم مدينة على وجه الأرض، وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك، وفي شمال اليمن مكة وهي تهامية والطائف والمدينة وهما حجازيتان، وخيبر، وفي نجد حائل، وفي العروض حجر ـ قصبة اليمامة ـ والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء.

تجارة العرب:

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون وبيع ما يحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الأعراب كبير من كبار العرب تحمل البز والثياب وما تحتاجه العرب، وكان لقريش رحلتان تجاريتان إحداهما للشام في زمن الصيف. والأخرى لليمن في زمن الشتاء، وبلاد اليمن كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافئ تجارية كبيرة ولم يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم.

صناعة العرب:

أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها حتى إن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لا نجده أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفًا بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأن القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح من النعال وغيرها، وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم: هم بين دابغ جلد وناسج برد، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل وكانوا يرجعون في صناعة البناء إلى عمال من الروم

أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان: وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان.

أحوال العرب

قد حضرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبني عمه دنيا، ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة، ونعني بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها، ونعني بالسياسية ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعة لغيرهم، ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة.

حالة العرب الاجتماعية:

الرجل في أهله ـ ونريد بالأهل خصوص الزوج:

يظلم العربي من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإنا إذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله في نظر العرب من المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة التي إن رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه، وترى ذلك واضحًا جليًا في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام، وعنترة العبسي شيخ الشجعان، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر إلا محدثًا امرأة من قومه بأنه المدافع عن الحريم الحامي للحقيقة.

تراه إذا عذلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما يجيب به مخالف في الرأي:

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني كريم على حين الكرام قليل

أو لا ترىٰ أن جميع الشعراء إذا بدءوا قصائدهم التي بها يفخرون بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم لا يذهبون إلىٰ شيء من ذلك حتىٰ يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة، ونراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب فيقول أحدهم:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة وما أحلىٰ احتراسه في قوله: غير صاغرة؛ ويقول الآخر لزوجه:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك إذ ما أتاني بين قدري ومجزري

أيسفر وجهي وهو في أول القرى وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها إلا بكنيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم.

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة، ويفخرون بنسبتهم إلىٰ أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم إلىٰ آبائهم وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت، وإن شاءت جمعت فإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت وإن وجهتها إرادة الانتقام إلىٰ الشر أشعلت النار بين الأحياء.

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان - في إبان الحرب بين عبس وذبيان -: أتراني أخطب إلىٰ أحد فيردني قال: نعم، أوس بن حارثة بن لأم الطائي، فقال الحارث لغلامه: هيئ لي مركبًا ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة، حتىٰ أتيا أوسًا فوجداه في داره فلما رأىٰ الحارث رحب به وسأله عن مجيئه، فقال: جئتك خاطبًا، فقال أوس: لست هناك فانصرف، ولم يكلمه ثم دخل أوس علىٰ امرأته مغضبًا وكانت من عبس فقالت: مَن رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف، قالت: فما لك لم تستنزله؟!،

قال: إنه استحمق جاءني خاطبًا قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له: إنك لقيتني مغضبًا بأمر لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت فانصرف ولك عندي كل ما أحببت فإنه سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجه: ادعي لي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال: يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب وقد جاءني طالبًا خاطبًا وقد أردت أن أزوجك منه فقالت: لا تفعل لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي في ذلك ما فيه، قال: قومي بارك الله فيك ثم دعى الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت: إني خرقاء وليس بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي في ذلك ما تعلم، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت: أنت وذاك فأخبرها بإباء أختيها فقالت: لكني والله الجميلة وجهًا الصناع يدًا الرفيعة خلقًا الحسيبة أبًا فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت إليه في بيت أبيها فلما خلا بها وأراد أن يمد يده إليها قالت: مه أعند أبي وإخوتي، هذا والله ما لا يكون فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت: أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها ما يعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له: أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين.

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع أمورهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويقف عند إرادتها

ولا يمكننا أن ندعي أن هذا كان أمرًا عامًّا عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة لأن وجود أفراد هذه معاملتهم لا يحتمل أن يكون برهانًا على أن هذا خلق عامتهم كيف ونحن في بيئة لا نعدم فيها من يرفع زوجه إلى أعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم أن احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها ولكن الذي يمكننا أن نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير أن يقابلوا بالنكير يدل على أنه لم يكن عندهم بدعًا من العمل، بل كان شيئًا لا تنفر منه طباعهم، يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احترامًا جمًّا ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يومًا فيكتب في إحدى الجرائد: قلت لامرأتي واستشرت امرأتي في زواج بنتي، فكان مني ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لأنه ليس مألوف عادات القوم.

من ذلك يمكننا أن نقول: إن علاقة الرجل العربي بأهله كانت على درجة من الرقي أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة في الإسلام وهي مما يزيدنا تأكدًا من هذا الرأي إلا أن الرجل كان يعتبر - بلا نزاع - رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم بذلك، وهذا الزواج هو ما عليه جمهورهم.

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوي الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان ولم يكن ذلك أمرًا مستحسنا عند جمهورهم إذ المعروف عن العربي من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك.

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إن الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج في ضمن هذه الأنواع تلك المسافحات.

وكانوا يعددون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حد معروف إليه ينتهي

الأمر في هذا التعدد، فقد ورد في الصحيح[1] أن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشرة نسوة.

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل، إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن.

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم، ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة لا سبية جليبة، وإن كان قد بز غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة في نفي العار عنه كما قال عنترة:

إني امرؤ من خير عبس منصبًا ... شطري وأحمي سائري بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون لهم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا في أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم وكانوا يقولون: العرق دساس.

وكانوا يحرمون أنواعًا من الاجتماعات: كزواج البنت والأخت والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم أنه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس، والصحيح عند

---

(١) ليس في الصحيح، إنما رواه أحمد (٤٦٠٩) و(٤٦٣١)، والترمذي (١١٢٨)، وابن ماجه (١٩٥٣)، وابن حبان (٤١٥٦)، وغيرهم من حديث ابن عمر مرفوعًا.
ونقل الترمذي عن البخاري قوله: هذا حديث غير محفوظ.
وقد رواه مرسلاً عبد الرزاق (١٢٦٢١)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٣٤)، وابن أبي حاتم في «العلل» (١١٩٩) وغيرهم.
ونقل ابن أبي حاتم عن أبيه وأبي زرعة القول بترجيح المرسل.
وكذلك رجح المرسل الإمام مسلم في «التمييز» فيما نقله الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ١٦٨)، ثم نقل عن الأثرم عن الإمام أحمد قوله: «هذا الحديث ليس بصحيح» وقال ابن عبد البر: طرقه كلها معلولة.

المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت تكون معه في غزواته .

أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعًا حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل ذلك ، وكان لهم من الحنوّ على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٧، ٥٨]، ولم يكن هذا في جميع العرب ، بل كان في بعض بطون من تميم وأسد ، ولم يكن بالطبع إلا في طبقة منحطة منهم ؛ لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة في قول الكتاب : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] .

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه وكان يشتري البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة [١] جد الفرزدق .

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترءوا عليها .

أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه دنيا فبينتها هذه الجملة التي قالوها : «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الإسلام ؛ لأن الإسلام فسر [٢] نصر الظالم بكفه عن ظلمه أما هم

---

(١) فيه حديث ضعيف أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٧٧) .

(٢) حيث قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري (٦٥٥٢) من حديث أنس : «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» ، فقال رجل : يا رسول الله : أنصره إذا كان مظلومًا ، أفرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال : «تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره» .

فكانوا ينصرون إخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقيًا على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقص من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم[1] :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي - وإن كانوا ذوي عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته	سواهم من جميع الناس إنسانا[2]

وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل والأمر واحد في الحلفين.

بينما هذه حالهم في بني أبيهم دنيا وفي حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضًا في الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد، وكل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها

---

(١) هو قريط بن أنيف العنبري كما في «خزانة الأدب».

(٢) أورد هذه الأبيات ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (ص١٤٢٥)، ثم قال: ولم يُرد بهذا أنه وصفهم بالحلم ولا بالخشية لله، وإنما أراد به الذل والعجز.

العصبية حياة ونموًا وكانت مفقودة تمامًا بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في حروبهم والسبب في ذلك يرجع إلىٰ أمرين:

الأول: التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد فإنا نعلم أن حياة العرب كانت علىٰ مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلىٰ مناهلهم التي منها يشربون وهي محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ والماء وأكثر ما يبتدئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فإنهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولاً أو في نفس المراعي فيتجاوزهم النزاع إلىٰ ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بدًا فينزح أحد الأخوين عن داره مرغمًا إلىٰ مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقىٰ، وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين: رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك في عبادتهم، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعي، فاستغربت ذلك وسألت ذوي الأسنان منهم عن سببه فأخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر علىٰ أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتىٰ مذهب أهليه.

السبب الثاني: تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضًا تزيده الأيام شدة، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر

وتغلب من ربيعة وبين دارم ويربوع من تميم.

ولذلك نرئ الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الأنساب، المتقاربة في الأمكنة.

ولم يكن لهم نظام يلجئون إليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف إنما كانوا في بعض الأحيان يلجئون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضرامًا.

وإذا كان الحكم عارفًا بدخائل العرب سوئ بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم، فإنه قال لهما: أنتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجد له شاعرًا يلهبه ويزيد في نفسه نعرة الجاهلية كما فعل الأعشئ في هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامرًا ويزعم أن الحكم قضئ له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأخرئ وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدّوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لأن كل شاعر يعدِّد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الإنسان من إنشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة.

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشبوب نار الحرب وتيتيم الأطفال وتأييم النساء؛ لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب، والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها

المباشرة وجدتها في بعض الأحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه.

المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة - من هذه الجهة - قسمين القسم الأول منهم: ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثاني: رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوّج.

القسم الأول

«الملوك المتوّجون»

ملك اليمن:

إذا نظرنا إلى المولعين بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون فإنهم يبنون هذه التحديدات على مجرّد خيالات وظنون لا تغني من الحق شيئًا.

يقولون: إن قحطان بن عابر المعبر عنه في التوراة بيقظان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكًا متوجًا لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق. م فتكون النتيجة أنه كان ملكًا على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه.

والمسعودي صاحب «مروج الذهب» المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه: إن أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة.

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضخامة سلطانهم وهي بالخرافات

أشبه فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلىٰ اليمن وعاد فذهب إلىٰ بلاد طيئ ثم إلىٰ الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلىٰ أذربيجان فغزا وغنم ويروون عن ابنه ذي منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلىٰ أقصاها وأن ياسر أنعم سار نحو المغرب حتىٰ بلغ واديًا يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازًا لكثرة الرمل ثم صنع صنمًا من النحاس نصب علىٰ صخرة علىٰ شفير الوادي وكتب علىٰ صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميري وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك أحد، وإن تبعًا دخل الصين غازيًا فقتل مقاتلتها واكتسح ما وجد بها وخلف بالتبت اثني عشر ألف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن.

وكل تلك الأخبار لا تقبل إلا إذا ضحىٰ جزء كبير من العقل، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي (المتوفىٰ سنة ثمانمائة وثمانية) في مقدمة تاريخه المسمىٰ بـ«العبر وديوان المبتدأ والخبر»، وكذلك علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفىٰ سنة ٦٣٨.

وقد بين محمد بن جرير الطبري المتوفىٰ سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه «تاريخ الأمم والملوك»[١] فقال عن اليمن: لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم إنما كان رئيسًا علىٰ مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك فإن نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه - فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطد ولا لآبائه ولا لأبنائه ولكن كالذي يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير علىٰ الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعًا إلىٰ محجره من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدي له خرجًا.

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٣٦٩).

وقال في موضع آخر ص١٦٢ جزء أول طبع مصر:

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد، وبين الأول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخر، إذا لم يكن من الأمر الدائم فإن دام شيء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره في الموضع الذي هو به لا يملك بنفسه. اهـ.

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا في أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء في بعض الأحيان من يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابه.

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة، وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها، ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه.

غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها، فكان رؤساؤه يدعون بالملوك، وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ما وراء مخلافه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعًا لا يستحق هذا اللقب غيره، حتى إذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب، أو في أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوي السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال والواحد قيل.

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودي.

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ، وقد ورد حديثها في التوراة بلقب

ملكة سبأ، وفي القرآن بهذا اللقب أيضًا .

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك بني إسرائيل ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته، والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث قالت : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] وقال سليمان لما أرسل إليها مهددًا : ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الأصقاع، فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك، وممن اشتهر من ملوكهم : يوسف ذو نواس، وكان يهوديًا فرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعًا لدعاة أرسلهم الإمبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣م فلم يكن من ذي نواس إلا أن مثل بهم حرقًا بالنار سنة ٥٣٤ ولما علم بذلك إمبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذي نواس فبعث إليه قائدًا حبشيًا اسمه أرياط فتغلب على صنعاء، ولما رأى ذلك ذو نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار، وظل أرياط حاكمًا على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضي عنه، وأبرهة هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة، وقد بينها ابن هشام[1] في سيرته[2] بأنها الحصبة والجدري، وروى أن هذا كان أول

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨، جمع سيرة محمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١، وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعده في السيرة. (المؤلف).

(٢) «السيرة» (١/ ٤٢).

حصولهما بمكة فعاد منهزمًا ومات بعد عودته وأشار القرآن إلىٰ هذه الحادثة في سورة الفيل، وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق.

كان في ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلىٰ نيل الملك ولا يقعده إلا العجز وهو سيف بن ذي يزن الحميري فرأىٰ من الضروري أن يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو ملك الفرس؛ ولكنه أخفق في استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرىٰ أنوشروان فوعده كسرىٰ خيرًا، ثم شغل عنه حينًا من الزمن فمات سيف(١) فذهب ابنه معد يكرب إلىٰ كسرىٰ يستنجزه وعده فأشار علىٰ كسرىٰ كبراء دولته أن يعين معد يكرب لما كان لهم من الأمل في امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهزر فركبوا مراكبهم من الأبلة، وقطعوا خليج عمان حتىٰ أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من إحدىٰ فرضها وتوجهوا إلىٰ صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهزر ومن معه علىٰ الحبشة وأجلوهم عن البلاد.

وحينئذ توج وهزر معد يكرب ملكًا علىٰ اليمن وأبقىٰ معه جندًا من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب إليهم فيقال أبناوي.

وقد وفدت الوفود علىٰ ابن ذي يزن يهنئونه بعودة الملك، وممن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

كان معديكرب قد أبقىٰ معه من الحبشة جمعًا يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذي يزن إلا أنه لما علم كسرىٰ بقتله أرسل وهزر ملكًا علىٰ اليمن من قبله وما زالت الولاة من الفرس تتعاقب علىٰ اليمن حتىٰ كان آخرهم باذان الذي كان علىٰ عهد الفتح الإسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلىٰ الإسلام فجاء الإسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرىٰ بعامل من عماله يؤدي له الخراج ولم يكن ملكه عامًا بل كان هناك أقيال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب إليه النبي ﷺ كتبًا مستقلة بصفتهم أقيالا

(١) بعض المؤرخين يروي أن سيفًا هو الذي ملك اليمن لا ابنه. (المؤلف).

كما كتب إلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه، وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك.

الملك بالحيرة:

بعد أن انهزم دارا ملك الفرس أمام الإسكندر المقدوني في سنة ٢٣٢ ق. م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للإسكندر أغراض في هذه التجزئة وهي: أن يسجل على بلاد الفرس ضعفًا أبديا لا يتمكنون معه من إعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠م وهو الوقت الذي نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الأكاسرة.

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءًا مهمًّا من ريف العراق كان قبل ملكًا للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سببًا في رحيل جمع من قضاعة إلى الشام. ودان له أهل الحيرة والأنبار. وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم

وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان وكان يبقي عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس).

ولجذيمة هذا خبر طريف مع آل أذينة ملوك العرب شمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدي فأراد أن يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فأدركها عمرو فمصت سمًّا وقالت بيدي لا بيد عمرو، ولما وقعت أجهز عليها عمرو.

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الإفرنج، ويقولون: إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بني السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبراري الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر أورليانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نحبها وذلك في المدة بين سنتي ٢٧٠، ٢٧٣م وموت جذيمة كان حوالي سنة ٢٦٨م.

وبعد موت جذيمة ولي أمر العرب عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٣٢م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة إلا أن الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد.

وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أردشير ولم تزل الملوك من بني نصر تتوالىٰ علىٰ الحيرة حتىٰ ولىٰ الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الإباحية في بلاد الفرس علىٰ يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجًا وتبعه خلق كثير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلىٰ ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه إلىٰ أن يكون علىٰ ذلك المذهب فأبىٰ عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأىٰ ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولىٰ بدله الحارث بن عمرو ابن حجر الكندي الذي كان أميرًا علىٰ قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلىٰ المذهب المزدكي.

ولم يزل ملكًا حتىٰ مات قباذ وخلفه كسرىٰ أنوشروان وكان يكره هذا المذهب جدًا ويراه مضرًا للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيرًا ممن دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلىٰ ولاية الحيرة وطلب الحارث بن عمرو وكان بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفسًا من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم علىٰ المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في دار كلب حتىٰ مات.

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولي أمرهم بعض ولده فملك ابنه حجرًا علىٰ بني أسد بن خزيمة وغطفان وملك ابنه شرحبيل علىٰ بكر ابن وائل بأسرها وملك ابنه معديكرب علىٰ قيس عيلان وملك ابنه سلمة علىٰ تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد من تميم. ولم يكن هذا الملك بالشيء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل الملك وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد علىٰ حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر لهم منه عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ

القيس وقيامه لأخذ الثأر ممن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسرًا فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه إلىٰ ملك الروم واستنجاده به علىٰ قتلة أبيه .

ولما عاد الملك إلىٰ المنذر بن ماء السماء استمر في عقبه حتىٰ كان النعمان بن المنذر المكنىٰ بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرىٰ بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي انتقامًا منه بحبسه أباه حتىٰ مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرىٰ علىٰ النعمان وأرسل إليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هالك إن توجه إلىٰ المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرىٰ فأبت عليه القبائل ذلك ، ولم يزل متنقلاً حتىٰ ورد ذا قار ونزل علىٰ بني شيبان سرًا فلقي هانئ بن مسعود الشيباني وكان سيدًا منيعًا والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانئ ، وكان كسرىٰ أطعمه الأبلة فكره النعمان أن يرفع إليه أهله لذلك وعلم أنّ هانئًا يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه إلىٰ كسرىٰ فحبسه حتىٰ مات وولىٰ علىٰ الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشراف طيئ وأمره أن يرسل إلىٰ هانئ بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبىٰ ذلك هانئ حمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر إياسًا أن يسير إليهم بالجنود ومعه مراذبة كسرىٰ وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانئ : يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرىٰ فاركنوا إلىٰ الفلاة فأسرع الناس إلىٰ ذلك فقام حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال : يا هانئ أردت نجاءنا فألقيتنا في التهلكة ورد الناس وقطع وضن الهوادج وضرب علىٰ نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتىٰ تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتىٰ جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب علىٰ العجم وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة علىٰ الحيرة .

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكمًا فارسيًا كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب.

في سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق.

جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جدًا كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شاءوا عزلوه. ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطانًا تامًا وإنما كان اسميًا لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان أحيانًا ينتصر عليهم إذا قاموا في أماكنهم وأحيانًا يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجتمعون ببواديتهم فلا يمكنه أن يتبعهم.

ومما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يومًا لجلسائه هل تعلمون أحدًا من العرب يأنف أن تخدم أمه أمي قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فإن أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب بن وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على ما في نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هندًا بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعامًا وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند في القبة وقد قال ابن هند لأمه: إذا فرغ الناس من الطعام فنحي خدمك عنك فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى: ناوليني ذلك الطبق قالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى: وا ذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم

فثار الدم في وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر التغلبيين :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا   لتخدم ليلى أمه بموفق

فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا   وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم في معلقته :

بأي مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

بأي مشيئة عمرو بن هند   نكون لقيلكم فيها قطينا

تهددنا وتوعدنا رويداً   متى كنا لأمك مقتوينا

فإن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعداء ـ قبلك ـ أن تلينا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام ـ الإمارة بالحجاز ـ الحكم عند العرب

الملك بالشام:

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن إلىٰ ريف العراق كان من قضاعة قبائل سارت إلىٰ مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد بن سليح ويقال لهم: الضجاعمة نسبة إلىٰ أبيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكًا، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعمة عهدًا طويلاً يلون أمر العرب حتىٰ أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون ممن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين علىٰ ما بيدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكًا علىٰ عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمىٰ في تاريخهم مدة الفوضىٰ العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦م.

ولم تزل الملوك تتوالىٰ من آل جفنة علىٰ الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتىٰ جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وكان لبني جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرًا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي.

وكان حسان بن ثابت كثيرًا ما يمدحهم لأنه ينتمي إلىٰ أصلهم وهو الأزد وله

فيهم المدح الجليلة منها قوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ - وهي واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام - كان بين المنذر بن ماء السماء، وبين الحارث الأعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين، وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة، مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم.

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشًا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضًا.

الإمارة بالحجاز:

كان يلي أمر مكة ولاة من جرهم قحطان - وهي جرهم الثانية - ولما جاء إسماعيل مكة مع أبيه إبراهيم صاهرهم، وكان لأولاد إسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شيء، ولما ارتحل الأزد من مأرب بعد السد، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى: نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ووليت خزاعة أمر مكة حينًا من الزمن، وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بمكة أولاد فهر بن

مالك وهو قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي ابن كلاب وهو الأب الخامس لمحمد بن عبد الله ﷺ فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة، ولما لم يبق إلا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادنه المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التي كونها من عصبية فهر بن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والأمر النافذ في مكة، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة، ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى: وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف:

١ـ رئاسة دار الندوة: ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم.

٢ـ اللواء: فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده.

٣ـ الحجابة: وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها إلا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها.

٤ـ سقاية الحاج ورفادته: ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضًا من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة؛ والرفادة طعام كان يصنع للحاج ـ على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصيا على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة.

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد في حياة أبيه فأراد أبوه أن يلحق به ابنه عبد الدار الذي كان أسن من عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه، ولما مات

كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتدأ النزاع بين بني العم، وسببه المنافسة في الشرف وافترقت قريش فرقتين: فرقة تساعد بني عبد مناف وفرقة تساعد بني عبد الدار، وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، ولبني عبد مناف السقاية والرفادة، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف فكان هو الذي يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الإسلام والأمر على ذلك.

وكانت لقريش مصالح أخرى لا تساوي هذه في العظم ـ وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشًا مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتمًا بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً بما له من المصالح الكبرى في قومه. وكان أمية مثريًا من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يومًا إلى حد شبوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانحط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ إليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهرًا حرمًا يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل

ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترئ عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم؛ فمن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من مألوف عادتهم.

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطرارًا سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده.

ومما امتازت به قريش حلف الفضول، وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره، وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها.

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب.

الحكم عند الأعراب في بواديهم:

كانت القبائل في نجد، ما كان بالقرب من الحيرة تبعًا لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعًا لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكمًا ملوكيًا يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها.

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال، وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها، وكانت تبعًا لرأيه يوجهها أنى شاء، تقيم بإقامته وتظعن بظعنه، وإذا دعا لحرب لا تتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفي والنشيطة والفضول؛ فالمرباع ربع الغنيمة والصفي ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم، والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما قال بعض الشعراء

يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان :

لك المرباع منهــــا والصــفــايا وحكمك والنشـيطة والفضـول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر، وبيت تميم في بني دارم ومركزه حاجب بن زرارة، وبيت ربيعة في آل ذي الجدين، ومركزه قيس بن مسعود الشيباني، وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم إلا أنهم كانوا لا يتتوجون حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب! وكان في بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي له خراجًا كل سنة، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس - من قيس مع هوازن وهم بطون من قيس فإنهم كانوا يؤتونه الإتاوة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة.

وممن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة والمنذر بن ساوى التميمي: سيد عبد القيس، وتميم بالبحرين.

وعلى الجملة: فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديدًا، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين، والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو.

المحاضرة الخامسة

الحـــال الأدبيـة

الأخلاق ـ اللغة

الأخلاق:

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشي واللعب النظامي.

عموم الأخلاق:

لا يحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفًا عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيرًا أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذام الأمم ـ التي بها تستحق السقوط والخذلان ـ أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الانفال: ٢٥] لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة، فإن كان الشر معروفًا عن فرد أو جماعة يستترون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ عدّ هذا الخلق على الأمة؛ كذلك لا يحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشيًا بين أفرادها مألوفًا عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم إلا مستترًا ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور، وعلى هذه القاعدة نسير في بيان الأخلاق عند العرب.

من الأخلاق التي كانت للعربي سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه

ساكنًا مطمئنًا فلا تحتاج في هيجه إلا إلىٰ كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زأر كالأسد خرج من مكمنه لا يتريث حتىٰ يستطلع جلية الأمر، بل يقدم منكبا عن ذكر العواقب جانبًا وهذا الخلق أكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجنًا ولا أحكامًا قاسية من جرّاء أفعالهم، بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتهيأ لها طريق الانتقام، فإذا لم تخش العادية أقدمت، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلىٰ السير في طريق الحروب بقليل من الكلمات، وكانت هناك كلمات تحرّك قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير، يا لفلان، وا ذلاه، وا نصيراه، شرف الآباء، وما شاكل ذلك، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة علىٰ سفك الدم، لأن النفس متىٰ تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه.

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا في سادتهم وذوي الأسنان منهم لذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون.

ومن أخلاقهم التعصب ومعناه أن ينصر ذا عشيرته علىٰ أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية [1]، وقد سمىٰ القرآن [2] هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت.

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفذوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومثن علىٰ غيره، كان الواحد منهم يأتيه الضيف - في شدة البرد والجوع - وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم

(١) انظر «ص: ٢١».

(٢) في قوله عز وجل: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية...﴾ الآية [الفتح: ٢٦].

فيقوم إليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يومًا سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحفان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيرًا ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره إلىٰ من أعطاه إياه، ثم ثانيًا وثالثًا حتىٰ لم تجد حبلاً! فقال لها : عليّ الجمال وعليك الحبال، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال :

لا تعذليني في العطاء ويسرى ... لكل بعير ـ جاء طالبه ـ حبلاً

فإني لا تبكي على إفالها ... إذا شبعت من روض أوطانها بقلا

فلم أر مثل الإبل مالاً لمقتن ... ولا مثل أيام الحقوق لها سبلاً

فأجابته امرأته :

حلفت يمينًا يا ابن قحفان بالذي ... تكفل بالأرزاق في السهل والجبل

تزال حبال محصدات أعدها ... لها ما مشى منها على خفه جمل

فأعط، ولا تبخل، لمن جاء طالبًا ... فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويرىٰ المطلع علىٰ أبواب الحماسة والرثاء والأدب والأضياف ـ من ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام ـ ما يثلج الصدر .

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم . انظروا إلىٰ ما فعله هانئ بن مسعود الشيباني بسبب أدراع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه علىٰ الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك، ثم انظروا إلىٰ ما فعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدراع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده، وفي ذلك يقول

الأعشى مخاطبًا شريح بن عمرو الكلبي:

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار

بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار

فخيره خطتي خسف فقال له ... أعرضهما هكذا أسمعهما حار

فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر، وما فيهما حظ لمختار

فشك غير طويل، ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانع جاري

وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ... رب كريم وبيض ذات أطهار

فاختار أدراعه أن لا يسب بها ... ولم يكن عهده فيها بختّار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب، والقوس في الحقيقة لا يمنعه رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيمته الغدر، وإنما خاف السبة على بنيه من بعده. إذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الأمة العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذي عهد أصلاه الشعراء نارًا حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأسًا بين العرب.

وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل للأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقي فإن خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لا محيص عنهما.

ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدمًا على الأبناء والإخوان، ومن ذلك أن رجلاً من السواقط من بني بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمى إنه له جار فحدث أن كان بين قرين بن سلمى وبين أخي الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين، وكان عمير غائبًا فأتى الكلابي قبر سلمى أبي عمير وقرين فاستجار به، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق إلى الكلابي جميع ماله، فأبى الكلابي أن يقبل فأخذ عمير

أخاه ومضىٰ به حتىٰ قطع الوادي فربطه إلىٰ نخلة وقال للكلابي : أما إذ أبيت إلا قتله فأمهل حتىٰ أقطع الوادي وارتحل عن جواري فلا خير لك فيه فقتله الكلابي ، وفي ذلك يقول عمير :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم عمير :

تعد معاذرًا لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فإنهم كانوا يخلطون حلفاءهم بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف يعد من أفراد القبيلة التي دخل في حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش في الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشًا كانوا يضنون ببناتهم عن أي قبيلة أخرىٰ لا يرون أحدًا من العرب لهن كفؤًا إلا من دخل في حلفهم .

ومن أخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة؛ وهي قوة في النفس تحمل صاحبها علىٰ الإقدام علىٰ المكروه ، وباب الحماسة في أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر في جميع الأفراد أما الكرم فإنه لا يظهر أثره بجلاء إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا علىٰ الفقراء والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا علىٰ أقرانهم في شدة البأس وقوة القلب ، وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم .

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكنا لا يمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقًا عامة لجمهورهم ومن يطلع علىٰ كلامهم في أبواب الأدب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئًا كثيرًا يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم أن هذه الأمة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش - لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم . ولنتكلم بعد ذلك علىٰ شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من الاصطلاح .

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر؛ وكانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار إلىٰ عشرة أجزاء ثم يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة: الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلىٰ والمنيح والسفيح والوعد، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لا نصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد والسبعة الأُوَل عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي إلىٰ السبعة للمعلىٰ فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح إلىٰ رجل أمين يقال له: أمير المقامرين فتدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف علىٰ كف الأمين قطعة من جلد لئلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الأمين يده فيخرج قدحًا: ولنفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح علىٰ تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن، ثم تضرب القداح فإن خرج المعلىٰ فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم علىٰ الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن علىٰ ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب علىٰ السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأن ما يستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرىٰ يقسمونها كالأولىٰ فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فإن خرج المعلىٰ أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأن منها النافس، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرىٰ فيكون الباقي ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان، ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقىٰ جزءان يوزعان علىٰ الفقراء وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور

الأولى يقسم على ١٨ جزءًا وهي لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى، وكذلك ثمن الثالثة.

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمه الدين الإسلامي وهذه المفسدة هي أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شيء.

ومن عاداتهم التي يتمدحون بها - شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم! ومما يسهل السرف على النفس، لذلك تجدها في الشعر العربي بابًا من أبواب المديح والفخر، ومن أحسن ما قيل في شربها من جهة الأسلوب اللغوي قول عنترة:

ولقد شربت من المدامة بعد ما	**ركد الهواجر بالمشوف المعلم**
بزجاجة صفراء ذات أسرة	**قرنت بأزهر بالشمال مفدم**
فإذا سكرت فإنني مستهلك	**مالي وعرضي وافر لم يكلم**
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	**وكما علمت شمائلي وتكرمي**

والشرب - في وقت عنترة هذا - كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحًا ويسمى الصبوح.

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم، لأن المنفعة في كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ**﴾ [المائدة: ٩١] وهذا إثم يربو على كل منفعة.

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين.

لغة العرب:

اللغة العربية إحدىٰ اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم مذ حلها قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لأصالتهم في العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التي سارت إلىٰ مكة واحتلتها قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه هاجر امرأة مصرية، أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل علىٰ اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لا يمكنهما أن ينسيا بالمرة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة، وإذا احتاجا إلىٰ التعبير عن معنىٰ لم توضع له كلمة في لسان جرهم يفزعان إلىٰ ما معهما، وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة، والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية وليس أصلهم منها.

بذلك كانت اللغة العربية فرعين: الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الأصلية والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بني إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان، وإنما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس، والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرىٰ غرابة سببها عدم الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلابة لا يجدها فيما يرادفها من الألفاظ الحجازية.

معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعًا لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة علىٰ ما يقع عليه الحس، وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدل عليها بكلمات تنبيء عنها، لذلك

كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع .

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول: تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحيانًا وربما اختلفت مواضعتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقًا من صفة في المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف وأكثر ما تجده في أسماء الأشياء التي هي عند عامتهم لا يستغني عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وما شاكل ذلك .

الثاني: التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطًا أو تشابهًا فيطلقون لفظ الأول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسى أول الشيئين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت في أصل اللغة وضعًا ابتدائيًا لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ما تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع ، وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عني بلغتهم ، وكانوا دائمًا يكنون عن المعاني التي لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتًا ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة .

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة ما يلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانيين بالكنايات .

الطريق الثالث: طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم في التعريب الشأو الواسع ، لأن العرب اشتغلوا بالتجارات والأسفار وساكنو الفرس والروم والحبش ، وكانت ترد على حواسهم أشياء

جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلاً حتىٰ يكون علىٰ نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتىٰ يستعملها الجمهور الشعر العربي فإن هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك علىٰ ألسنتهم وكانت أسواقهم التي إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز .

فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلىٰ عشرين منه ومجنة بمر الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلىٰ غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيًا من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع إلىٰ عرفة وهو يوم التروية ، وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذي كان أبوه ملكًا في نجد علىٰ بني أسد وشعراء الأوس والخزرج الذين كانوا بالمدينة وطيئ وكلب المقيمين في شمالي الجزيرة .

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريبًا لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم للأمم الأخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترىٰ بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدي بن زيد العبادي الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي لأنه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق إلىٰ استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك .

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرىٰ وهي سعتها وقدرتها علىٰ

التعبير عما يكنه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة إليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والأسماع وهذا ما نحس به في هذه اللغة الجميلة.

جاء الإسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون، يتناهون في مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعرًا ينافح عنها في المجامع وربما أولمت الولائم فرحًا بذلك واستبشارًا، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق.

ومن أراد أن يرى مثالاً واضحًا من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعاني فليطلع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعه أبو علي القالي في أماليه، وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله، وما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فإن ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جدا في جانب الذهب الوفير.

المحاضرة السادسة

الكتابة - العلوم - الدين

الكتابة عند العرب:

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الأفراد وإنما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاثة ليست بالشيء المتداول الذائع.

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى إنها كانت لترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية.

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نعبر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت نمت، لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا أو بعضًا وربما فاتهم الشيء منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا، وهذا سبب لما نراه في بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات ولكون الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم في المحافل والمجامع.

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ بيدهم إلى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه .

علوم العرب:

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنبًا لجنب لأن الإنسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة ولذلك يقولون : الحاجة أم الاختراع ، وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مختصا بما هم في حاجة إليه وكانت الحاجة في حواضر العرب أكثر منها في باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج إليه ويصله من السماء ثم في جمله الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ثم أداة حربه وقلما يحتاج إلى أكثر من ذلك .

فأما حاجته إلى المطر فقد أكسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبئ عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإنذار بالجدب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالأنواء [1] .

---

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثني عشر قسمًا، وسموا كل قسم برجًا لكل برج شهر كامل، وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال، وسموا كل برج اسمًا بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له، فالتي في الشمال هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والتي في الجنوب هي الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالاً أخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث، وهذه المنازل: السرطان والبطين، النجم وهو الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، البثرة، الطرف، الجبهة، الخراتان، الصرفة، العواء، السماء، الغفر، الزباني، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرع الدلو المقدم، فرع الدلو المؤخر، الحوت.

=

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب ما رواه صاحب «الأغاني»[١] قال: خرج أعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما فقال الشيخ: إني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري. فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها بعد ساعة: إني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري قالت: أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها، قال: ارعي واحذري ثم قال لها بعد ساعة: إني لأجد ريح النسيم قد دنا فانظري، فقالت: أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال: ارعي واحذري، ثم مكث ساعة وقال: إني لأجد ريح النسيم فما تري؟ قالت: أراها كما قال الشاعر[٢]:

دان مُسِفٌّ فويق الأرض هَيْدَبُهُ	**يكاد يدفعه من قام بالراح**
كأنما بين أعلاه وأسفله	**ريط منشرة أو ضوء مصباح**
فمن بمحفله كمن بنجوته	**والمستكن كمن يمشي بقرْواح**

قال: انجي لا أبا لك: فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما.

وحاجتهم إلى إبلهم أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفة ذلك حظ

= وبعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبتدئ القمر فيعيد التقلب في هذه المنازل كالمرة الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية.

وهذه النجوم التي سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً، وفي كل ثلاثة عشر يومًا نوء جديد، وقال بعض علمائهم: إنه لا يسمى نوءًا إلا إذا كان معه مطر، فإذا لم يكن مطر فلا نوء وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون: مطرنا بنوء كذا يضيفونه إلى الساقط، وكانت لهم أسجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من الحوادث الجوية، مثلاً قولهم: الصرفة باب الدهر لأنها تفتر عن البر أو عن الحر في الحالين، وإذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء، وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا إلى الإضافة فيه. (المؤلف).

(١) انظر «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني (ص٥٦٩٥).

(٢) قيل: هو عبيد بن الأبرص، وقيل أوس بن حجر وبه جزم صاحب «الأغاني» وغيره.
وانظر «لسان العرب» (١/ ٧٨٢)، و«العين» (٣/ ٤٤)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٤٤٨)، و«معجم البلدان» (٣/ ٣٤٣)، «الزاهر» (١/ ١١٨).

وافر كما إنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئًا من الطب الإنساني ومعرفة أمراض الإنسان التي تنتابه في الصحراء من أنواع الحمىٰ التي لا بد منها لمن يقيم حول منابع الماء متعرضًا لبرد الليل وحمازة القيظ وسموها بأسماء شتىٰ علىٰ حسب أنواعها .

وكان للكي بالنار في أدويتهم قصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد لأمراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الأطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئًا من الطب من حواضر البلاد الأخرىٰ .

وحاجتهم إلىٰ ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم فالمرأة إن قالت : إني صناع اليد فإنما تعني بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسج في حواضرهم وأكثر ما يكون في بلاد اليمن حتىٰ قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية .

وحاجتهم إلىٰ أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار اللائق أن تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية ، أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق والأبلة ، وكانوا يسمون ناحية الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة علىٰ طريق الاشتقاق .

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلىٰ حساب إبلهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حسابًا منظمًا بأرقام وقواعد تعلم وإنما كان حسابًا أرقامه الأيدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد .

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان : الاستدلال بأثر الماشي عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم علىٰ صحة النسب وبطلانه ، وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتىٰ كان قول الفرد منها حكمًا في الآثار والإنسان كبني مدلج ، وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب لا يكاد الإنسان يعيرها تصديقًا ، ولكن الذي يرىٰ ما بقي منها بين أعراب السودان لا يقف عن التصديق لحظة ، وقد رأيناهم يعتمدون علىٰ ذلك في إظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون ، قال

جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥ :

«ولمهارة القائفين فائدة كبرىٰ في اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالاً من ذلك - في إحدىٰ الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في مروىٰ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالي وعثروا علىٰ أثر رجلين وحمار فاقتفوه إلىٰ أن وصلوا إلىٰ إصطبلات الحكومة وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين إن الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير أيضًا واتضح أن حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه في السوق، وقد تم تفتيش الإصطبلات فوجد فيها رءوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أن باقي السكر دفن في مكان قريب من الإصطبل، ولما جيء بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتهما وقالا: إنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه علىٰ أتان المفتش».

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم.

وكان لهم في النوع الثاني ما لا يقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد، ويغطون جميع بدنهما ما عدا أقدامهما، ثم ينظر القائف فيحكم حكمًا فصلاً قائلاً: هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحًا، وينفي هذا النسب إن لم يجد تشابهًا، ولا يهمه إن كانا قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه.

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبي ﷺ وسر به[1] وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم في الأنساب إذا تعدد المدعون.

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد علىٰ حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها، ونباهة الأمة أس من أساس رقيها.

---

(١) عن عائشة قالت: دخل قائف والنبي ﷺ شاهد، وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة مضطجعان فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر بذلك النبي ﷺ وأعجبه.
أخرجه البخاري (٣٥٢٥)، و(٦٣٨٨)، ومسلم (١٤٥٧).

دين العرب:

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين:

أما الأول: فهو شهود الإنسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب.

الثاني: شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرىٰ علىٰ يديه من عظائم الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التي بها تغلب علىٰ المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر علىٰ كل شيء لأنه يحبه حبًا جمًا، فترىٰ العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر، فإن كان حيًا فهو الوسيلة وإن كان ميتًا قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله، وقد تكون من حجر أو صفر[1] أو ما شاكل ذلك وتعطىٰ هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته.

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجماد نافع أو ضار لأن القوة التي أعطيها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوىٰ. ويسمون التمثال الذي علىٰ صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنمًا، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنًا.

الشعور بقوة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعيًا في الإنسان ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوىٰ المدبرة والأشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل، ولذلك يقول علماء الاجتماع: الإنسان متدين بالطبع حتىٰ إنك لتراه إذا ألحد في دينه وازدراه ينتقل منه حالاً إلىٰ عبادة أخرىٰ وخضوع لكن من طريق آخر.

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلىٰ أفضل الطرق الموصلة إلىٰ إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان ـ هو إبراهيم خليل الله ﷺ فقد دعا الناس إلىٰ

---

(١) أي: نحاس

توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه مصلحة الناس ويدعىٰ إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده.

وكانت النبوة في فرعين من ولده:

الأول: إسحاق ومنه كان جميع أنبياء بني إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثرًا موسىٰ وعيسىٰ صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمىٰ باليهودية نسبة إلىٰ يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذي منه كان جلة الملوك من إسرائيل.

ودين المسيح: هو النصرانية نسبة إلىٰ الناصرة وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعىٰ الناصري.

والفرع الثاني: كان منه إسماعيل أخو إسحاق وهو داعية العرب إلىٰ دين إبراهيم، ثم كان منه محمد بن عبد الله صلىٰ الله عليه و آله وسلم وجاء أيضًا مجددًا لشريعة إبراهيم كان الدينان المنسوبان إلىٰ الأنبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الإسلام فكانت اليهودية في بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعًا لدعوة حبرين يقال: إنهما أتيا من تبع الحميري من يثرب وكانت أيضًا بيثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالىٰ علىٰ اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين، إلا أن المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدي بن حاتم الطائي وافدًا علىٰ رسول الله ﷺ قال له: إني علىٰ دين فقال له عليه السلام: «**ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك؟**»، وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودي لأن اليهودي يحرق كل ما

للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب.

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل علىٰ دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أن إسماعيل عليه السلام بنىٰ الكعبة وجعلها مطافًا يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئًا من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلىٰ المعبود الأعظم ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي إلىٰ بلاد الشام ورأىٰ ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلىٰ الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئًا وأقامها علىٰ الكعبة التي كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوي الأثر الصالح فيهم، أو تمثيل القوىٰ التي يألفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها ومما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي في وصف ود - وهو صنم عذرة نقلاً عمن شاهده من رجال عذرة - قال: كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر [1] عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرىٰ عليه سيف بيده تقلده وقد تنكب قوسًا وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل - فهذا يشبه أن يكون تمثال قوة الحرب التي يعظمها العرب - وكان لهذيل صنم اسمه سواع في رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مضر وله سدنة من بني لحيان - وكان لمذحج وأهل جرش يغوث، واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همذان ومن والاها من اليمن - واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والاها حتىٰ هوَّدهم ذو نواس وكان لهم أيضًا بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضًا.

ويظهر أن هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا علىٰ شاكلتها لأن نوحًا كان ينهىٰ قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها

(١) في «معجم البلدان» (٥/ ٣٦٨): دثر عليه أي نقش عليه حلتان.

كما ورد في الكتاب حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

ومن أوثانهم مناة، وكان منصوبًا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصًا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر أنها لم تكن تمثالاً وإنما كانت أثرًا من مكان مُعَظَّم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها.

ومنها العزى، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بني سليم.

ومنها ذو الخلصة، وكان مروة بيضاء منقوشًا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدي خثعم ودوس وبجيلة.

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يدًا من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة.

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه كما قال في الكتاب: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وكانوا إذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون: إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التي يدعونها النصب والأنصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفردًا فقال في كلمته التي يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... لعافية والله ربك فاعبدا[1]

ولهم طرق في توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبني إسرائيل ما يشبه هذه

---

(١) انظر: «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (١/ ٢٧٦)، و«لسان العرب» (١٣/ ٤٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٨)، و«السيرة النبوية» (٢/ ٢٤٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٠٢).

الطرق وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به أو تهمل لآلهتهم.

والسائبة التي ينذر الرجل أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن أصاب أمرًا يطلبه فإذا كان ذلك أساب جملاً من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها.

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به.

والحامي الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره، ولم يجز وبره وخلي في إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك - هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر.

وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة في القرآن فقال في سورة «المائدة»: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام. والزلم: القدح الذي لا ريش عليه، والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعل ولا تفعل، وقد زلمت وسنويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت فإذا أراد رجل سفرًا أو نكاحًا أتى السادن فقال: أخرج لي زلمًا فيخرجه وينظر إليه فإذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قدح النهي قعد عما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قربة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطلب الإنسان ما قسم له من وجهتها وكان في الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسماعيل وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها.

ومع ما كان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق إجلالهم لأي معبود آخر لهم يرون أنها أثر أبيهم إسماعيل وكانوا

يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هي بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمرهم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي أمراً من الأمور الدينية بمكة.

وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لأحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئًا من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يقرون ويعترفون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياه، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك وسموا أنفسهم، ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا: لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتًا من شعر ولا يستظلوا - إن استظلوا - إلا في بيوت من الأدم ما كانوا حرمًا ثم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجًا، أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئًا طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً، وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي فحملوا على ذلك العرب فدانت به.

وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الأول: **﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾** [البقرة: ١٩٩]، وقال عن الثاني: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾** [الأعراف: ٣١] وقال: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** [الأعراف: ٣٢].

المحاضرة السابعة

النسيء - الموحدون من العرب - المولد النبوي - الحال قبل النبوّة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيء:

والنسيء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أي: أخرت وأجلت، ورجل ناسئ من قوم نسأة، قال في «لسان العرب»: وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منىٰ يقوم رجل من كنانة فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ولا يرد لي قضاء فيقولون: صدقت أنسئنا شهراً، أي أخر عنا حرمة المحرّم واجعلها في صفر، وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالىٰ عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم، فذلك الإنساء، قال عمير بن قيس بن جذل الطعان:

ألسنا الناسئين على معد؟ شهور الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو علي القالي في أماليه[1] فسمىٰ الناسئ نعيم بن ثعلبة وقال في آخر عبارته فإذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً - وروىٰ قول الشاعر:

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام في «سيرته»[2]: والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور علىٰ العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] ومعنىٰ ليواطئوا: ليوافقوا وكان أول من نسأ

---

(١) انظر: «الأمالي» لأبي علي القالي (ص: ٩)، و«اللآلئ في شرح أمالي القالي» للبكري (ص: ١٢).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٤).

الشهور على العرب ـ فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم ـ القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئًا أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال: اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين؛ الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعام أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب:

لقد علمت معد أنّ قومي ... كرام الناس أنّ لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر ... وأي الناس لم نعلك لجاما!
ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجري من النسيء قبل الإسلام إلا أن بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفى سنة ٢٧٢ فسروا النسيء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذي استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فإنهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهرًا لتكون السنة قمرية شمسية، ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال، ومعنى كونها شمسية أنها بالكبس أو هذا النسيء تكون مطردة مع دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربي إلا في فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال في الشهور الرومية والقبطية التي لا ارتباط لها بدورات القمر، وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين، وفي صدرهم محمد بن أحمد البيروتي المتوفى سنة ٣٣٠ ومنهم المسعودي الذي قال في «مروج الذهب»: وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرًا وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين الأجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسيء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من

العرب ومنهم من اختار التفسير الثاني، وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكي محمود باشا الشهير بفلكي في رسالة له سماها «نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام» أبان فيها أن العرب قبل الإسلام لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضة ولم يكن النسيء عندهم إلا بالتفسير الأول وأظهر أنّ الخطأ في ذلك واقع فيه لأوّل مرة أبو معشر[١] وتبعه البيروتي[٢] ثم مَن بعدهما ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقي مجالاً للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسيء في كتابي «نور اليقين»[٣] بما فسره به.

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله ـ والنسيء بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسي وتلاعب بما كانوا يسمونه دينًا وشريعة فقد كانت أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التي هي غارات وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عامًا ويحرمونه عامًا ليتفق التحريم مع العدد المشروع، وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم، أما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظامًا ثابتًا انتهجوه في تقويمهم لبقاء الأشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الإحلال عامًا والتحريم عامًا لمواطأة عدة ما حرم الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالاً لتلاعب النسأة بدينهم.

ومن الغريب أن المسعودي نفسه وهو الذي زعم أنّ العرب كانت تكبس قال في تفسير الربيعين: إنما سمي بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال: فإن قيل: قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل: قد يمكن أن يكون هذا

---

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢. (المؤلف).

(٢) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروتي الخوارزمي المتوفى سنة ٣٣٠. (المؤلف).

(٣) انظر «نور اليقين».

الاسم لزمها في ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون - كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعًا للأهواء لا لنظام معين.

على ذلك كانت أديان العرب في جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقهم التي هم عليها لا توصلهم إلى الله ويقولون في أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لا ضر فيها ولا نفع.

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم، فالقرشيون ورقة بن نوفل الأسدي من أسد بن عبد العزى بن قصي وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي من عدي بن كعب، وعثمان بن الحويرث الأسدي من أسد بن عبد العزى والرابع عبيد الله بن جحش الأسدي من أسد بن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا: نعلن والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب.

وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم ونادى قومه يعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم: «إنه يبعث أمة وحده»، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانيًا.

وكانت لا تزال كهان العرب وذوو الأسجاع منهم يهتفون بذكر نبيٍّ حان مبعثه ولا يبعد أن أخبارهم هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاءوا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبيا يخصلهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوئهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج وقد روي ذلك عن بعض الأنصار، من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الإسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤدّ إلى شيء ما من التغير في عبادة الأوثان، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة، ولكنها جعلت في الأنفس شيئًا من الاستعداد لقبول الإصلاح الإسلامي.

محمد بن عبد الله ﷺ:

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله أولاد أشراف عظماء، منهم أبو طالب وعبد الله وحمزة وعباس وأبو لهب، وعبد المطلب ذو السن من بيت عبد مناف الذي هو أشرف بيت من قريش.

اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجرًا إلى الشام، فلما وصل المدينة - وبها أخواله من بني النجار - أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه ﷺ وإنما كان بنو النجار أخواله لأن منهم أم أبيه عبد المطلب.

وفي صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل

ولأربعين سنة خلت من ملك كسرىٰ أنوشروان، ويوافق العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا - ولد رسول الله ﷺ بشعب بني هاشم بمكة، ولما ولدته أمه أرسلت إلىٰ جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفًا عند العرب ولم يمر علىٰ نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد أشراف تميم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون أن اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك علىٰ الألسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون.

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية لأمرين:

الأول: أنهم يبتعدون في البوادي عن أمراض الحواضر التي كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوىٰ أجسامهم وتشتد أعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن.

الثاني: أنهم يتقنون اللسان العربي في مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتًا وأسلس عبارة.

قد اختير لمحمد بن عبد الله امرأة من بني سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبي ذؤيب وزوجها هو الحارث بن عبد العزىٰ المكنىٰ بأبي كبشة من قومها فأقام مسترضعًا فيهم قريبًا من أربع سنوات ثم ردته إلىٰ أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة.

كانت لآمنة عادة مذ توفي زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة إذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حبا جما.

قال ابن هشام[1] : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتىٰ يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام صغير حتىٰ يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب ـ إذا رأىٰ ذلك منهم ـ: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنًا ثم يجلسه معه علىٰ فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثماني سنوات من عمره توفي بمكة جده عبد المطلب وأوصىٰ به قبل وفاته إلىٰ أبي طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبد الله أولاد عبد المطلب كانت أمهم جميعًا فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية، ولتسع سنوات من عمره ـ حسب رواية ابن هشام[2] ـ أو ثلاثة عشرة ـ خرج أبو طالب إلىٰ الشام تاجرًا وأخرجه معه حتىٰ وصلا بصرىٰ وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان، وكان في هذا البلد علىٰ ما ننقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع أبي طالب حينما رأىٰ معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفًا عليه من عدو يترصده وأخبره أن له شأنًا فرجع به أبو طالب إلىٰ مكة وقد أطبق علىٰ هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيرًا عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام أو بصرىٰ والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده.

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار[3] بين قريش وكنانة وبين قيس، وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفًا وكان رئيس بني عبد المطلب، وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبد الله، وكان ينبل علىٰ عمومته أي يجهز لهم النبل للرمي، وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزىٰ وبنو

---

(١) «السيرة» (١/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) انظر «السيرة» (١/ ١٣٤).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٣٧).

زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته وتم ذلك الحلف في دار عبد الله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة: «**لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**».

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج[1] خديجة بنت خويلد الأسدية من بني أسد بن عبد العزى وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورًا في قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين فعرضت إليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا إلى مكة؛ ويروي ابن جرير الطبري[2] عن ابن شهاب الزهري أن هذه الرحلة التي ذهب فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشة باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر.

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضي وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمسًا وعشرين وهي أم أولاده جميعًا ما عدا إبراهيم الذي ولد له بالمدينة فإنه من مارية القبطية التي كانت من قرية حفن من كورة أنصنا.

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلاً ولها في تاريخ الإسلام أجمل ذكر وأصدقه وسيتضح بعد.

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم[3] قريش الكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضيعة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (١/ ١٣٩)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٢١).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٥٢٢)، وانظر «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٣٢٠).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٤٢).

الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتىٰ وصلوا إلىٰ أساس إسماعيل ثم شرعوا في البناء علىٰ قواعده والذي تولىٰ البناء بناء رومي اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها علىٰ قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها علىٰ قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع وصعدوا بها في الجو حتى إذا وصلوا إلىٰ مكان الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه، وكان الحكم سيدنا محمد ابن عبد الله فطلب رداءً ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتىٰ إذا حاذىٰ موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبًا لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترًا وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ , ١٠م والحجر موضوع علىٰ ارتفاع ٥٠ , ١٠م من أرضية المطاف والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢م وبابها علىٰ ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ , م ومتوسط عرضها ٣٠ , م وتسمىٰ بالشاذروان وهي من أصل البيت ولكن قريشًا تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانوني فيما كتبه عن الكعبة في رحلته الحجازية التي اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم محدث إما في عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف.

للكعبة أربعة أركان: الشمالي واسمه الركن العراقي، والغربي واسمه الشامي، والجنوبي واسمه اليماني، والشرقي واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه، وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه أسود يميل إلىٰ الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ٣٠ , م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة الحائط الشمالي الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلىٰ زاويتي البيت ويبعدان عنها

٣٦ , ٢م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ٥٠ , ١م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ٤٤ , ١م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في بناء إبراهيم ويقال : إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان في الحجر .

السيرة الأدبية قبل النبوة:

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبد الله كان في قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم .

وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة ، وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئًا قليلاً وكان عمله حين شب : التجارة .

ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها في الربح وكان يشارك غيرها أحيانًا ولم يكن يقرأ ولا يكتب .

ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته؟ بعد قول الأئمة منهم إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه .

فقال جمهور منهم: إنه لم يكن مكلفًا باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بأنه لو كان مكلفًا بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك .

وتوقف في الرأي بعض الأئمة: كالغزالي وشيخه إمام الحرمين والآمدي لأنهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم في مثل تلك المسألة .

وقال بعضهم: إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ما هي تلك الشريعة؟ اختلفوا في تعيينها فمن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى

صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوي يعضدهم وإنما هي مجرد أفكار.

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهبًا مبهمًا: وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عمومًا وخصوصًا ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقال: إن هذا الدليل يوجب التعبد في غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقي.

والذي نراه أن الفيصل في مثل هذه المسألة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين: لأن مثل هذا الرأي يلزمه أن الإنسان مطلوب منه أن يتطلب جميع الشرائع الماضية التي سبقت ويعبد الله بما يثبت أنه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول إنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته رفض الأوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الأخلاق التي في مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكرًا في خالق الكون الأعظم وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون إنه أول من تعبد فيه.

ولم يعلم عنه أنه كان يراعي الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة في الكتاب: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ**﴾ [الشورى: ٥٢] وقال في سورة «الضحى» مما امتن به عليه: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾ [الضحى: ٧]. والضلال: الحيرة، والهداية: النبوة.

المحاضرة الثامنة

البعثة ـ الوحي ـ الدعوة السرية ـ الجهر بالدعوة

ما كان من قريش ـ هجرة الحبشة

البعثة:

الذين يختارهم الله لإصلاح الأمم يلقي إليهم ما يريد أن يبلغوه عنه بالوحي، والوحي ـ في لغة العرب ـ: إعلام مع خفاء وسرعة، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبيء عليها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن، وفي لسان العرب لغير إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩] وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، وقال مخبراً عن يوسف في صغره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وكل هذا لا يعدو معنى الإلهام الذي ربما شعر به كثير من الناس.

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإن العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه؛ وغاية ما يمكن الإنسان هو أن يحوم حوله، مستعيناً بما قاله الأنبياء أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني، هذا الإعلام له مراتب.

الأولى: أن يخاطب في النوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً في التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعبر التوراة عنها بمثل قولها: صار كلام الرب إلى إبرام في الرؤيا قائلاً. . . إلخ.

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله على لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطبًا لابنه الذبيح: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [يس: ١٠٢] ومن هنا يقول محمد رسول الله ﷺ: «**رؤيا الأنبياء حق**»[١] و«**نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»[٢].

المرتبة الثانية: أن يلقى ما يراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك هو المسمى بالإلهام والإلقاء في الروع ويسمي بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكًا على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه في النفس فإنه يسميها شيطانًا ولفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين، وقد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

المرتبة الثالثة: أن يرسل الله إليه رسولاً يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، ويظهر هذا الملاك للأنبياء في التوراة كثيرًا.

المرتبة الرابعة: أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العليقة المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ٩-١٣].

هذه هي المراتب التي عرف أن الوحي يبلغ قلوب الأنبياء عليها، ولا تكاد

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨) بلفظ: «رؤيا الأنبياء وحي».

(٢) أخرجه ابن سعد (١/ ١٧١) من حديث عطاء مرسلاً.

وأخرج البخاري (٣٣٧٦) من حديث عائشة مرفوعًا بلفظ: «تنام عيني ولا ينام قلبي».

تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علماً ضرورياً أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الإعلام شدائد يحصل شيئًا من جنسها لمن فني فكرهم في أمر أو حادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتىٰ لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقًا ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض وإنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلىٰ الأنفس ما لا تحس به وليس في مكنتها أن تدرك حقيقته؛ إذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يجعل الإنسان علىٰ نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الإله؟ أنا لا أستغرب ما قرأته في بعض الكتب أن صوفيًا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به؛ لأني أعلم أن الجندي يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضي لشأنه حتىٰ إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلىٰ أمر جسمها أحست بالألم، كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عند الوحي من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتىٰ لا يحسون بأحد.

سئل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي رجلاً فأعي ما يقول**»[1].

ومما روي «أنه كان يكابد من التنزيل شدة»[2] حتىٰ إنه «كان يوحىٰ إليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[3].

وقد عقد العلامة ابن خلدون[4] فصلاً تكلم فيه علىٰ الوحي والرؤىٰ ولكن قلما يظفر الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب.

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح: كما رواه البخاري[5] من حديث عائشة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة.
(٢) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس بلفظ: «يعالج» بدل: «يكابد».
(٣) أخرجه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخاري.
(٤) انظر «تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٦-٨) بقية الجزء الثاني.
(٥) البخاري (٣)، وأخرجه أيضًا مسلم (١٦٠).

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذ جاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠، ولا معنى للاختلاف في تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد أن أشار إليه الكتاب إشارة ظاهرة لا تخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله عامًا لأول يوم نزل فيه القرآن وليلة نزول القرآن هي التي قال فيها الكتاب: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣-٦]، وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وجعلت نهايته عيدًا تذكارًا لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر، كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تلقى العامة.

وقد روى ابن هشام[1] كيفية بدء الوحي بما أخبر به الرسول عن نفسه قال: **«فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟»** قال: **«فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ»**، قال: **«قلت: ماذا أقرأ؟»** قال: **«فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ»** قال: **«فقلت: ما أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝

---

(١) «السيرة» (١/ ١٧٧-١٧٨).

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]» .

قال: «فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابًا فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل»، قال: «فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل»، قال: «فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغيًا إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة»، ثم قامت فجمعت[1] عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع؛ بدأ بالكعبة فطاف بها؛ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم إلى منزله .

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التي لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه .

---

(١) هذه رواية ابن هشام . (المؤلف) .

ومما يزيد هذا العبء ثقلاً وشدة أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث.

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة إلى هذا الدين - في بدء أمرها - سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم - ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد - فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه. يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحري الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد بن محمد، وعلي بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفًا عن أبي طالب لما كثر ولده، وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي، وكان أبو بكر محبوبًا في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نفراً ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموي والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمي، ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبي وسعيد بن زيد العدوي وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم، وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفيًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة، لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وهذه الدار لا تزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي.

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن

ومعهم غيرهم من المستضعفين.

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى في سورة «الحجر»: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجر ذلك إلى تضليل آبائهم فإنهم كانوا يحتجون عليه دائمًا بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة.

لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ما عسى أن يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم. وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب أصول العربية - أن يجير، فإن فعل كان التعدي على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره، وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق، فحدب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحي.

لما رأت قريش أنه صار في منعة بجوار أبي طالب مشى رجال من أشراف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو يخلي بينهم وبينه فردهم أبو طالب ردًا جميلاً فانصرفوا عنه ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تفدهم شيئًا تذمروا وحض بعضهم بعضًا عليه ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائلين إنهم لا يصبرون على هذه الحال، وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له: يا ابن أخي إن قومك جازوني وقالوا لي كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال: «**والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري**

على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يظهره الله أو أهلك دونه ـ ما تركته»[1] ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي فلما أقبل عليه قال له: اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة بن الوليد وقالوا له: إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب: لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟! ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام في أهل بيته بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبد شمس ونوفل ـ ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربي إلا ما كان من أخيه أبي لهب فإنه فارقهم وكان مع قريش ولا أدري أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال؟ ولا أظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبي طالب يدعوه إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الإخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ولا يبعد عندي أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد أعداء رسول الله حتى إنها كانت تذيع عنه الأكاذيب في مجامع النساء

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٠١)، ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٤٥) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس؛ أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب. . .، وفيه: فقال: والله يا عم. . . فذكره.
وهذا إسناد ضعيف معضل.
وانظر «الضعيفة» (٩٠٩).
قال شيخنا رحمه الله: وقد وجدت للحديث طريقاً أخرى بسند حسن لكن بلفظ: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تشعلوا لي منها شعلة، يعني الشمس» وهو مخرج في «الصحيحة» (٩٢).

فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة في قلوبهن. ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذي يؤجج النيران، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب.

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة ورأت قريش أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتىٰ لا يكون لدعوته أثر في أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضًا فإن ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب. فقال[1] واحد منهم: نقول كاهن، فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم: ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، فقال آخر: نقول مجنون، فقال الوليد: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسواسه، فقال آخر: نقول هو شاعر، فقال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، فقال آخر: نقول ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما تقول أنت؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا علىٰ ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ولما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بني عبد شمس ونوفل وهو علىٰ ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء أبدًا وفيها

(١) انظر «السيرة» لابن هشام (٢/ ١٠٥)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ١٥٧-١٥٨).

يقول:

كـذبتم - وبيت الله - نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل

كذبتم - وبيت الله - نبذي محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول:

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجر على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعني بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة[1] فمن جهة الرسول أغروا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحًا، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفي منه مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لا يبالي بما يصنع سفهاؤهم معه.

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعًا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب. ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه - وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب - قال لهم[2] : **«لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»** ففروا إلى الله بدينهم، وهذه كانت أول هجرة في الإسلام وكان المهاجرون أولاً عشرة رجال وأربع نسوة، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً، ومعهم من نسائهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من

---

(١) يقال: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار، والمراد بها في لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه. (المؤلف).

(٢) أخرجه بطوله الإمام أحمد (١٧٤٠) من حديث أم مسلمة، وانظر «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٣١، ٤٣٢).

جميع بطون قريش.

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشي مثواهم وأعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شرا فلما بلغ ذلك قريشًا لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمئنون في منزلهم الجديد! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشي ويطلبا منه ردهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته، وهذان الرجلان هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قالا له: أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشي. فلما أديا الرسالة قال النجاشي: لاها الله إذًا لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادي واختاروني على سواي - حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاءوا فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق: ثم قال: إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئًا مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي: هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة

انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، فقال عبد الله: لا تفعل! فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ ابن مريم عبد، ثم غدا علىٰ النجاشي فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولاً عظيمًا فسلهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو! فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول فضرب النجاشي بيده إلىٰ الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسىٰ ابن مريم مما قلت هذا العود، فأغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين: اذهبوا فأنتم شيوم - ومعنىٰ هذه الكلمة بالحبشة آمنون، ورد علىٰ الرجلين هداياهما.

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلىٰ مكة - قبل الهجرة إلىٰ المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلىٰ السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد.

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمنتقمين ممن أسلم.

ومما يدل علىٰ شدة شكيمته علىٰ المسلمين ما روته أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت: والله إنا لنترحل إلىٰ أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتىٰ وقف عليّ وهو علىٰ شركه قالت: وكنا نلقىٰ منه البلاء أذىٰ لنا وشدة علينا قالت: فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: فقلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتىٰ يجعل الله لنا مخرجًا، قالت: فقال: صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف، وقد أحزنه - فيما أرىٰ - خروجنا قالت: فجاء عامر (تعني زوجها) فقالت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟! فقلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتىٰ يسلم حمار الخطاب، قالت: يأسًا منه لما كان يرىٰ من غلظته وقسوته علىٰ الإسلام.

المحاضرة التاسعة

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب ـ هجرة الطائف ـ العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار ـ البيعة ـ الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفدت فرسول الله قد منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب ـ مسلمهم وكافرهم ـ والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها؛ فعمدوا إلىٰ حيلة أخرىٰ وهي مقاطعة بني هاشم والمطلب: فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئًا ولا يبتاعون منهم شيئًا، ولما أجمعوا أمرهم علىٰ ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيدًا علىٰ أنفسهم بذلك؛ فانحازت بنو هاشم والمطلب إلىٰ أبي طالب فدخلوا معه شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلىٰ قريش فظاهرهم.

أقام أبو طالب في الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم؛ والرسول مع ذلك مستمر علىٰ دعوته يدعوهم ليلاً ونهارًا سرًا وإعلانًا مناديًا بأمر الله لا يتقي فيه أحدًا من الناس.

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بني هاشم وبني المطلب وأعظمهم[1] في ذلك أثرًا كان هشام بن عمرو؛ من بني عامر بن لؤي وكان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه؛ وكان ذا شرف في قومه فمشىٰ إلىٰ زهير بن أبي أمية من بني مخزوم، وقال له: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؛ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلىٰ مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا؛ قال ويحك يا هشام إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي آخر لقمت في نقض الصحيفة حتىٰ أنقضها، قال:

---

(١) انظر «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٣) وما بعدها.

قد وجدت رجلاً قال: من هو؟ قال: أنا قال زهير: ابغنا رجلاً ثالثًا فذهب إلى مطعم بن عدي وهو سيد بيت نوفل بن عبد مناف فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا، قال: ويحك ماذا أصنع؟ فإنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا قال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية قال: ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحوًا مما قال لمطعم وأعلمه بما اتفقوا عليه، فقال: ابغنا خامسًا فذهب إلى زمعة بن الأسود من بني أسد بن عبد العزى فكلمه وذكر له قرابة بني هاشم والمطلب وحقهم، فقال: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير ابن أبي أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعًا ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل بن هشام: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة: أنت أكذب ما رضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تشوور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم في ازدياد من قريش ومن غيرهم، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة بنت

خويلد في يومين متقاربين في شهر شوال، وكانت خديجة له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها وكان عمه عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

رأى الرسول أنه لا بد له من عضد يؤازره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدي رسالة ربه فذهب إلى الطائف - وبها بطون ثقيف - وعمد إلى أشرافهم وذوي الرياسة منهم وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاء له من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم ردا قبيحًا فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن عدي يخبره أنه يدخل مكة في جواره فأجابه إلى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله أن ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفي:

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعيًا من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدي رسالة ربه فكانوا لا يجيبونه إلى ذلك، ومنهم من يرد عليه ردا قبيحًا، عرض ذلك على بني عامر بن صعصعة فقال كبيرهم: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر لله يضعه حيث يشاء**»، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك؛ وعرض ذلك على بني حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح ردا منهم.

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين الأوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بني عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس ابن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وأنزل عليّ الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئًا من القرآن فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلامًا حدثًا ـ: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه إياس وقال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا. فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة. كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بعاث، وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة.

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام فقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره.

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر ـ وافى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى

في التاريخ ببيعة النساء، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٢].

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم في المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سببًا كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب في الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه في ناديهم فقال: يا بني الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام نسائكم ورجالكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الإسلام صيفي بن الأسلت المكنى بأبي قيس، وكان شاعراً لهم وقائداً يسمعون منه ويطيعونه؛ فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير، وخرج من المسلمين عدد كبير، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بني مازن بن النجار الخزرجية وأسماء بنت عمرو إحدى

نساء بني سلمة من الخزرج، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس. فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه - بعد الخروج به إليكم - فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، فقال المتكلم من الخزرج: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**» فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، فقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني يهود المدينة) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، قال: فتبسم الرسول ثم قال: «**الدم الدم والهدم الهدم**» يعني أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، ثم قال لهم: «**أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم**» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس فقال لهم: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي**» وها هي أسماء النقباء.

١ـ أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج.

٢ـ سعد بن الربيع من بني مالك بن امرئ القيس من الخزرج.

٣ـ عبد الله بن رواحة من بني عمرو بن امرئ القيس من الخزرج.

٤- رافع بن مالك من بني زريق بن عامر من الخزرج .

٥- البراء بن معرور من بني سلمة بن سعد من الخزرج .

٦- عبد الله بن عمرو من بني سلمة بن سعد من الخزرج .

٧- عبادة بن الصامت من بني غنم بن سالم من الخزرج .

٨- سعد بن عبادة من بني ساعدة من الخزرج .

٩- المنذر بن عمرو من الخزرج .

١٠- أسيد بن حضير من بني عبد الأشهل من الأوس .

١١- سعد بن خيثمة من بني كعب بن حارثة من الأوس .

١٢- أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس .

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعًا البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة ، وبنو عبد الأشهل يقولون : إنه أبو الهيثم بن التيهان ، والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم .

بعد أن انتهت المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحالهم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشًا فجاء رؤساؤهم إلى منازل الأنصار وقالوا : يا معشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما من حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبد الله بن أبيّ بن سلول - وهو سيد من سادتهم لم يسلم : إن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا وما علمته ، فانصرفوا عنه .

نفر الناس من منى وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم

الأنصار.

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلىٰ المدينة والهجرة إليهم واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم: «**إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها**»، فخرجوا أرسالاً رجالاً ونساءً إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين.

لما[1] رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه أجمع لحربهم فلم يبق إلا أخذ الحيطة لذلك.

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشراف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم: الرأي أن نحبسه في الحديد ونغلق عليه بابًا ثم نتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتىٰ يصيبه ما أصابهم، فقال شيخ فيهم: ما هذا لكم برأي لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلىٰ أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتىٰ يغلبوكم علىٰ أمركم. فقال آخر منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

فقال ذلك الشيخ: ما هذا لكم برأي! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته علىٰ قلوب الرجال بما يأتي به، لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل علىٰ حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتىٰ يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتىٰ يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد؛ فقال أبو جهل بن هشام: إن لي لرأيًا فيه ما أراكم وقعتم عليه، وهو أن نختار من كل قبيلة شابا فتىٰ جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا ثم نعطي كل فتىٰ منهم سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/١٠٦-١٠٨).

ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعًا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا.

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيأ ما يلزم لهذا السفر راحلتين ودليلاً خريتًا يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد في وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدّي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده.

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج إلى بيت أبي بكر وخرجا معًا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمد إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ليعفي أثر عبد الله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا أو ميتًا مائة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينًا وشمالاً ولكنها عادت بالخيبة.

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل - حسبما اتفقا معه - بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما إلى

الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديدًا ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج ثم تبطن بهما مرجح ذي العصوين ثم بطن ذي كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم الأجرد ثم ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبابيد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام.

وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه الصلاة والسلام فنتبعه بفصلين. أولهما في التشريعات المكية والثاني في آثار هذه المدة.

المحاضرة العاشرة

التشريع المكي

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر و٢١ يومًا إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه في أثنائها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي وهو اثنتان وعشرون سورة نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي: [٢: البقرة، ٣: آل عمران، ٤: النساء، ٥: المائدة، ٨: الأنفال، ٩: التوبة، ٢٤: النور، ٣٣: الأحزاب، ٤٧: القتال، ٤٨: الفتح، ٤٩: الحجرات، ٥٧: الحديد، ٥٨: المجادلة، ٥٩: الحشر، ٦٠: الممتحنة، ٦١: الصف، ٦٢: الجمعة، ٦٣: المنافقون، ٦٤: التغابن، ٦٥: الطلاق، ٦٦: التحريم، ١٠٠: النصر]. وما عدا ذلك فهو مكي.

وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول ﷺ لأجله وبين روحه قوله تعالى في سورة «الشورى»: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ثم قال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات[1] بالتشريع الكلي وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع، وكله من الشرائع الأبدية التي لا يخالف فيها دين دينًا

(١) انظر «الموافقات» (٣/ ٥٠).

ومن مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - أن يكون متبعًا لها منقادًا لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة «الحج»: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، وأعلن أنه إنما جاء مصدقًا لمن سبقه من الأنبياء، وقال له الله عنهم - في سورة «الأنعام» - بعد أن قص عليه أسماءهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] إلى غير ذلك.

وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو:

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة.

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلاً منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام، وكل ما هو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحًا وتلميحًا: ضربت الأمثال بالأمم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل، وكررت ذلك تكرارًا مؤثرًا بأساليب مختلفة: لأن أشد ما يفعل في النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب. وأكثر الأنبياء ذكرًا في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبودًا ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع في هذا الشرك، وإيعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه؛ وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه، ذكرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي

رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٧٥-٧٩]، ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه الأنفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة.

وجر ذلك - بالضرورة - إلى تحريم كل ما ذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تمامًا ما كانوا عليه، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التي يشرع فيها الإنسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضًا أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأن الأمر - كما علمتم - يحتاج إلى مقاومة شديدة فإن النفس المتشبعة بالشيء الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه.

للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما فسرت عليه النفس من اتباع الأوامر، مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لا شك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الإلف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين، ولا ينسى الأمر بتاتًا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الإنساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع. ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم بأصحابه في الحديبية أمر

للحال بقطعها وإعفاء أثرها .

(٢) إثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر:

وقد نصت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكررته تكراراً عظيمًا يقرب مما كان في أمر التوحيد والأوثان ونصت على أن العدل سيجري مجراه بعد أن توزن أعمال الإنسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب إذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الإنساني من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها في الناس .

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافًا ترغب وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه .

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولي عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنوانًا على ما يناله صاحبه مهما دق : **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾** [الكهف: ٤٩]، **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** [الزلزلة: ٧، ٨] أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع إلى فعل الخير وأخبرهم أن الحسنة إذا تلت السيئة محتها؛ والذي يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة في محو السيئات إنما هي العملية .

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب إلى الله والتي تبعد منه: ومعظمها يرجع إلى الأخلاق والملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة «الشورى» : **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** [الشورى: ٤٠] ثم يقول : **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** [الشورى: ٤٢، ٤٣] .

. ويقـول في سـورة «الأعـراف»: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ويقول في «الشورىٰ»: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، ويقول فيها: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورىٰ: ٢٣]، وقال في سورة «فصلت»: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، جمع لهم في سورة «الإسراء» وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلىٰ كل وصية بفائدتها اقرءوا ـ إن شئتم ـ من قول الكتاب: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلىٰ قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]، ووصف عباد الرحمن في سورة «الفرقان» بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلىٰ آخر السورة، واستقصاء ذلك يستدعي وقتًا طويلاً وإنما نحن نشير إلىٰ ذلك ونطلب منكم مراجعته، ولا تجعلوا بينكم وبينه سدا من الأوهام حتىٰ تعلموا بم كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونه؟ فإنه لا شيء أدل علىٰ سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزل الله عليه.

(٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير: والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحي كيف يؤديها ـ كما ورد في الأخبار الصحيحة ـ والصلاة وحدها هي التي فصلت تمام التفصيل بمكة؛ وتفصيلها إنما كان عمليًا لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة، وقد نقلت نقلاً عمليا؛ وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بأنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة «الماعون» ممن يستحقون الويل ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٦] وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيه الصلاة؛ فقال بعضهم: إنها فرضت ليلة الإسراء حينما عرج برسول الله إلىٰ الملأ الأعلىٰ؛ وقال آخرون: بل قبل ذلك.

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا: الإسراء مصدر أسرىٰ يقال أسرىٰ به أي جعله يسري: والسرىٰ هو السير ليلاً، ويراد به - في لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ ليريه الله من آياته؛ والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود، والمعراج أداته يعني السلم المعد له ويراد به صعود رسول الله إلىٰ الملأ الأعلىٰ.

الإسراء: ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] وقد اتفق المؤرخون علىٰ وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذي سمي في ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتىٰ إن بعضاً منهم ارتد.

واختلف المتكلمون في أمر الإسراء: فروي عن معاوية بن أبي سفيان أن الإسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله ﷺ: وروي عن عائشة أن الإسراء إنما كان بروحه لأن جسمه لم يزل من مكانه ونرىٰ أن نتيجة القوانين واحدة، لأن الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات إذ لم يقل بهذا القول أحد لا عائشة ولا غيرها، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم علىٰ شيء من الآيات التي هي في جهات بعيدة عن موطنها، والرؤيا - كما قدمنا - نوع من الوحي للأنبياء ويستدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالىٰ في السورة نفسها: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقد قال الحسن[1] البصري راوي حديث الإسراء: فأنزل في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ إلخ.

وجمهور المسلمين علىٰ أن الإسراء كان بجسمه ويستدلون علىٰ رأيهم بأن

---

(١) انظر «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٢، ٤٣).

الإسراء لو كان رؤيا ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ما الذي يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى ما في الأرض في رؤيا يراها؟

بعض المؤرخين يميلون إلى رأي عائشة ومعاوية، لا لأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة، بل لأنهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواته عيانًا وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب، قالوا: إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الإسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعًا في زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أن أحدًا قام في وجههما رادًا عليهما رأيهما، بل بالعكس رأينا ابن إسحاق يقول: فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾ إلخ وعائشة زوج الرسول - وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة - أدرى الناس بما كان من حوادثه التي أكرمه الله بها، فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها، ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأي يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصًا في مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم في وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردون عليه القول ردا شديدًا في أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل؟ لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد ﷺ وإطلاع الله نبيه في نومه على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئًا عن إطلاعه إياه في يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً.

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار

رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوا منه عليه السلام أسري بي الليلة إلى بيت المقدس، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء في الكتاب -: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

قال ابن إسحاق[1] بعد أن ذكر القولين: والله أعلم أي ذلك كان قد جاء وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أي حاليه - نائمًا أو يقظان - كل ذلك حق وصدق. اهـ.

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحًا ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق في شرح حوادثه؛ لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة مرات منها المرة التي كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمى بـ«المواهب اللدنية» فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ودافع محمد بن جرير الطبري في «تفسيره»[2] عن رأي من يقول بالإسراء الجسمي.

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل أن يوحى إليه[3] ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحاق[4] بعد فشوّ الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب، ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الأمر يصلون الصلوات الخمس، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى وبذلك قال جمع من المحدثين.

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٤).
(٢) «تفسير الطبري» (١٥/ ٥).
(٣) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٢٤٥) من حديث أنس.
(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٠).

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن - لم يحدد تمامًا - فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذي تفعل به، مما فرض بمكة الزكاة فإنا قلما نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة ما يخرج من الأرض في سورة «الأنعام»: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس.

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحس فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول ﷺ كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالئوا عليه ومرة يرد أقبح ردّ من العرب الذين يردون الموسم وها نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدّة مما نتلوه عليكم من الآيات: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٣، ٤٥]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤]، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٦]، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾

[الدخان: ٥٩]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتي ظهر نبؤها بعد حين.

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيرًا من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشتدًّا ومنبهًا كما حصل في حادثة عبد الله بن أم مكتوم الأعمىٰ فقد حدث أن رسول الله قابل جمعًا من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله؛ فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعًا في أولئك العظماء، فجاءه الوحي بقول الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَخْشَى ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١-١٠]، وهذه شدة أدبه الله بها كما قال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[1].

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال.

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبرىٰ في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين علىٰ ما شرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتىٰ لا يتجزأ فتضيع الفائدة؛ وبحثنا قاصر علىٰ الجهة التاريخية، ولذلك نقتصر علىٰ ما جاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله ﷺ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت انظر «كشف الخفاء» (١/ ٧٢).
وقال الزركشي: معناه صحيح لكنه لم يأت من طريق صحيح.
وذكره ابن الجوزي في «الواهيات» عن علي في ذيل حديث وضعفه، انظر «فيض القدير» (١/ ٢٢٥).
وضعفه شيخنا الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (٢٤٩)، و«الضعيفة» (٢١٨٥).

المحاضرة الحادية عشرة

أسباب شرعية القتال ـ المواثيق والعهود ـ أسرى الحرب الاسترقاق ـ لم شرع القتال؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: الدفاع عن النفس عند التعدي.

الثاني: الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أي باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينًا أو بصد من أراد الدخول في الإسلام عنه أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن.

الموضع الأول: جاء في سورة «الحج»، وهو أول ما أنزل في أمر القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا قولهم: ربنا الله يعني أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية «الشورى»: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢] ثم بينت أنه لولا دفع الله

الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

الموضع الثاني: قوله في سورة «البقرة» المدنية : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤] .

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أُمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حرًا في دينه لا يدين به إلا الله لا خوفًا ولا طمعًا ، وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من بني الإنسان ، نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين ، وهم الذين يبدءون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادئ بالعدوان : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ .

الموضع الثالث: قوله في سورة «النساء» المدنية : ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] .

بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما :

أولاً: سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

ثانيًا: سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهؤلاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون .

الموضع الرابع: قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانبًا : ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠] على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقيًّا لا ذبذبة عندهم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله : ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١] .

بينت هذه الآيات أن لا سبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام .

الموضع الخامس: قال في سورة «الأنفال» : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة .

الموضع السادس: قال في السورة السابقة : ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦١-٦٣] .

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى

السلم يريدون به الخداع .

الموضع السابع: قال في سورة «التوبة» المدنية : ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢، ١٣] .

بينت هذه الآية سببًا لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلىٰ الطعن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدءوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والناكثون عهدهم آخرًا وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدىٰ عليكم .

كان اليهود قد مالئوا قريشًا والمنافقين علىٰ المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب حتىٰ زلزلوا زلزالاً شديدًا بعد أن كانت بينهم وبين النبي ﷺ عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضي به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء في سورة «التوبة» : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] .

كان أمر القتال أولاً قاصرًا علىٰ قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصًا وهي اتحادهم علىٰ المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة .

هذا ما ورد في الكتاب خاصًا بأمر القتال، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعًا عن أنفسهم، وتأمينًا للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها وأعلن أنه لم يجئ متعديًا بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلىٰ سلم من سالمه .

ومما يؤيد تلك الروح السلمية ويوضحها ما جاء في سورة «الممتحنة» : ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم

فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

العهود والمواثيق:

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصًا مؤكدة فمنها عام ومنها خاص.

فمن العام: قول الكتاب في أول سورة «المائدة»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقوله في سورة «الإسراء»: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله في سورة «النحل»: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩١، ٩٢].

وأما الخاصة:

فمنها قوله تعالى في سورة «براءة» بعد أن أعلن البراءة من المشركين: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال في السورة نفسها بعد ذلك: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٦] وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة «الأنفال»: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدوًا والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص.

ومنها أنه لما حضهم في سورة «النساء» على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سرًّا ضدهم قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [النساء: ٩٠] وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وأنها تحمي الواصل إليها.

ومنها أنه جعل في سورة «النساء» قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجبًا لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال: ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول خطأ ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] وهذا بعينه هو الذي أوجبه في قتل مسلم خطأ ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢] وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن من قوم أعداء أقل من ذلك فقال: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] فجعل حق الميثاق فوق كل حق، لم يجعل للسلم أمدًا بل ذكره مطلقًا في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

أسرى الحرب:

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة «القتال»: ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤] فجعل ما خير فيه أولياء الأمور المن وهو العفو والإرسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض ولم نر في الكتاب غيرهما.

وأنا ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق:

كان الرقيق موجودًا بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرّهم على ما كان بأيديهم، فقد قال في سورة «المؤمنون» المكية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ

(٥) ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] وقال مثل ذلك في سورة «المعارج» المكية أيضًا أي قبل أن يحصل من المسلمين أي حرب أو قتال، وقال في سورة «النساء» المدنية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣] ثم رغبهم ترغيبًا شديدًا في تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها **بطرق ثلاث:**

الأولى: أنه جعله في سورة «البلد» المكية من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال ممتنًا على الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ٨-١٨] فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم الإنسان بشكر نعم الله المتتالية.

الثانية: أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعني أن الإمام الذي يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب.

الثالثة: أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال في كفارة القتل الخطأ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] وقال في كفارة الظهار: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣] وقال في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩] ذلك كله فضلاً عن الترغيب الكثير من صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها.

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله؛ لأن لذلك علمًا هم أدرى به منا ومركزًا غير مركزنا التاريخي الذي يقضي علينا أن نقف عند حد

لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه.

حياة المدينة:

لما وصل رسول الله ﷺ إلىٰ قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الإثنين إلىٰ يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلىٰ الجمعة بمسجد في بطن وادي رانوناء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار علىٰ راحلته وكلما مر علىٰ قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» (لناقته) حتىٰ إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلىٰ مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرانها فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال: «**ههنا المنزل إن شاء الله**» فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المربد الذي بركت الناقة فيه، فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه[1] فاتخذه مسجدًا فأمر رسول الله ﷺ أن يبني مسجدًا ونزل علىٰ أبي أيوب حتىٰ بنىٰ مسجده ومساكنه فانتقل من بيت أبي أيوب إليها.

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس، أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلاً منهم.

ومن أول الأعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب[2] كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم علىٰ دينهم وأموالهم واشترط لهم

---

(١) روي من طريق آخر أنه قال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم؟ فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلىٰ الله، ويروىٰ أنه أبىٰ إلا بالثمن، والذي اخترناه هو رواية ابن إسحاق وهي توافق رواية مسلم وبعض روايات البخاري. (المؤلف).

وانظر «صحيح البخاري» (٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤)، و«السيرة» لابن هشام (٢/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٢٦-١٢٨).

وقد جاء فيه: «. . . وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» وفيه: «. . . وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ـ ما داموا محاربين ـ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته»؛ وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه: «وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه».

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدي المهاجرين والأنصار ويقول: تآخوا في الله أخوين.

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة التي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة: الأعمال الحربية ـ التشريع ـ الأخلاق التي ساس بها أمته.

المحاضرة الثانية عشرة

ودان - بواط - العشيرة - بدر الكبرى - بني قينقاع

الأعمال الحربية:

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعيًا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثني عشر شهراً خرج في صفر من السنة الثانية إلى ودان[1] وكان يريد قريشًا وبني ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة، ثم رجع ولم يلق كيداً.

أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكبًا من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة[2] فلقي بها جمعًا من قريش، فلم يكن بين الفريقين قتال: ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية. وبعث في هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر[3] من ناحية العيص[4] في ثلاثين راكبًا فلقي أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في (٣٠٠) راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مخشى بن عمرو الضمري وكان موادعًا للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض.

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته سرية، وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قريبة من الجحفة التي هي على أربع مراحل من مكة وست من المدينة. (المؤلف).

(٢) ثنية في شمال قديد من بادية مكة. (المؤلف).

(٣) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢١٥).

(٤) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام. (المؤلف).

بواط[١] :

ثم خرج[٢] رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول يريد قريشًا حتىٰ بلغ بواط من ناحية رضوىٰ ثم رجع إلىٰ المدينة ولم يلق كيدًا فأقام بها إلىٰ جمادىٰ الأولىٰ .

العشيرة[٣] :

في جمادىٰ الأولىٰ خرج[٤] حتىٰ نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادي الأولىٰ وليالي من جمادىٰ الثانية ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم عاد إلىٰ المدينة ولم يلق كيدًا ، وفي مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتىٰ بلغ الخرار[٥] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيدًا .

سفوان:

أقام[٦] عليه السلام بالمدينة قليلاً بعد قدومه من العشيرة فعلم أنّ كرز بن جابر الفهري أغار علىٰ سرح المدينة فخرج في طلبه حتىٰ بلغ واديًا يقال له سفوان[٧] من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلىٰ المدينة وأقام بها إلىٰ رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين بأمر غير مفتوح وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه : «إذا نظرت كتابي هذا فامض حتىٰ تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم» فمضىٰ وسلك الحجاز حتىٰ إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن

(١) موضع قرب جبل رضوىٰ، ورضوىٰ علىٰ مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة علىٰ سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلىٰ الشام . (المؤلف) .
(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢١٧) .
(٣) واد بالقرب من مكة قريبًا من قديد . (المؤلف) .
(٤) «السيرة» (٢/ ٢١٧) .
(٥) واد قريب من ينبع . (المؤلف) .
(٦) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢١٩) .
(٧) واد من ناحية بدر . (المؤلف) .

الحضرمي حليف لقريش فأتمر بها عبد الله هو ومن معه ولم يكن هذا ما بعثوا له وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستؤسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم؛ وقال: «**ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم**» ووقف العير والأسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال.

ولما كثر الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة: ٢١٧] يعني إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع: صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين، وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها.

ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله على المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما.

بدر الكبرى:

خرجت[1] عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٢٤) وما بعدها.

الرسول، فندب إليها أصحابه وقال: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقىٰ حربًا وكانت عدة من خرج معه (٣١٤) رجلاً: (٨٣) من المهاجرين، و(٦١) من الأوس و(١٧٠) من الخزرج.

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترسًا أمامه العيون فأخبر - وهو يسير - أن محمدًا قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلاً يذهب إلىٰ مكة يستنفر قريشًا إلىٰ أموالهم ويخبرهم أن محمدًا قد عرض للعير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتىٰ أتىٰ مكة وصرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة يا معشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرىٰ أن تدركوها الغوث الغوث - فتجهز الناس سراعًا وكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً فكانت عدتهم بين التسعمائة والألف ولم يزالوا في سيرهم حتىٰ نزلوا بالعدوة القصوىٰ من وادي بدر.

أما رسول الله ﷺ فإنه خرج من المدينة يوم الإثنين لثمان خلون من رمضان (أو (٩) منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥مارس سنة ٦٢٤) حتىٰ إذا كان قريبًا من الصفراء بعث العيون إلىٰ بدر لاستطلاع أخبار العير، حتىٰ إذا قارب بدرًا جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا، وقال له المقداد بن عمرو: امض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلىٰ برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتىٰ تبلغه فقال له الرسول: «**خيرا**»، ثم قال: «**أشيروا عليّ أيها الناس**» وإنما كان يريد الأنصار؛ لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا علىٰ أنهم يمنعونه ما دام في ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته

(١) موضع أقصىٰ أراضي هجر. (المؤلف).

إلا على من دهمه في المدينة من عدوه، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم، فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «**أجل**» فقال له سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إنَّا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسِرْ بنا على بركة الله فسُرَّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين؛ والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**» ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريبًا من بدر بلغه أن أبا سفيان قد نجا بالعير وأن قريشًا وراء وادي بدر - وكان أبو سفيان قد ساحل بالعير فنجا، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير، فأبى ذلك أبو جهل وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكان بدر موسمًا من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثًا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا.

ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد أبي جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بني زهرة أن يرجعوا. فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً في صفوف المشركين زهري، وكذلك لم يشهد من بني عدي أحد.

مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادي الدنيا، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله وقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه

من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له: «لقد أشرت بالرأي» وفعل كما قال.

ثم إن سعدًا قال للرسول: يا رسول الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ونعد عندك ركائبك؟ ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبيّ الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبني له.

تراءى الجيشان: فلم يكن بد من الحرب في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢هـ (١٣ مارس سنة ٦٢٤م) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون: لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن أبي طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبة وعليّ بإزاء الوليد فأما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وعتبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل علي وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين، ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار، فإن الهزيمة حلت بصفوف قريش، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون، لما انتهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين، وكانت هذه عادته في حروبه.

ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما: وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، والآخر: زيد بن

حارثة إلىٰ أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلىٰ المدينة وفي عودته قتل رجلين من الأسرىٰ أحدهما: النضر بن الحارث لأنه كان غاليًا في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذي يهجو به المسلمين ليغنين به، والثاني: عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرىٰ غيرهما.

ولما أقبل بالأسرىٰ فرقهم بين أصحابه، وقال: «**استوصوا بهم خيرًا**» قال أبو عزيز بن عمير: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدم غداؤهم أو عشاؤهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم خبز إلا نفحني بها! قال: فأستحي فأردها علىٰ أحدهم فيردها عليّ ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر.

ثم استقر رأي رسول الله ﷺ بعد أن استشار أصحابه علىٰ قبول الفداء من قريش في الأسرىٰ، وكان بعض الصحابة ـ ومنهم عمر وسعد بن معاذ ـ يريدون قتلهم، وكان رأي أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك، ويريدون قبول الفداء ـ وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال ـ فرضي عليه السلام رأي أبي بكر، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله ـ خصوصًا أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئًا من الغنائم، فإن موسىٰ عليه السلام كان يحرقها ولا يبقي شيئًا منها لذلك كان هذا القرار سببًا لعتاب الله سبحانه بقوله: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩] وقد كان من رأي سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرىٰ فقال له: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٠].

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أُرسل ومنهم مَن منَّ عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد

المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرىٰ الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة.

نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة «الأنفال» بأسرها وهي السورة الثامنة، وقد بدأت بأمر الأنفال وأنها صارت لله والرسول يقضي فيها الله بما شاء، ثم قضىٰ فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، فالباقي - وهو أربعة أخماسها - للغانمين، وقد خص عليه السلام سهم ذي القربىٰ ببني هاشم والمطلب ابني عبد مناف ولم يعط منه بني نوفل وعبد شمس، ثم قص في السورة خروج المسلمين إلىٰ هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرىٰ لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحىٰ إلىٰ الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا، وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذىٰ والفتنة والصد عن سبيل الله وتكلم فيها عن السلم والجنوح إليها متىٰ جنح لها أعداء المسلمين، وعن أمر الأسرىٰ إلىٰ غير ذلك من الأحكام.

وأمر هذه الغزوة مما يلفت النظر إلىٰ حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمأنينة فإن عددهم كان (٣١٤) رجلاً ليس معهم سوىٰ ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقبونها، وقريش كانت بين التسعمائة والألف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصرهم واحد وعند قريش من الغيرة علىٰ دينهم والحفيظة علىٰ شرفهم ما لا يخفىٰ مكانه، ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين علىٰ أعدائهم ما يستغرب فإنّ الحرب لم تستمرّ أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين، وانهزمت بقيتهم لا تلوي علىٰ شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العُدد والعدد، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده إحدىٰ الطائفتين، وقوله: «**والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**» وزادهم الله تثبيتًا حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة، كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيه عن أعز شيء

في الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهم الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة إحدىٰ الحسنيين وكل هذا للمحارب بمثابة إمدادات يراها متوالية الورود.

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق ما قيل منه ما قالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث:

يا راكبًا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق

أبلغ بها ميتًا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق

مني إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخفق

هل يسمعني النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟

أمحمد ولدتك خير نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق؟

أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق

فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم - إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

صبرًا يقاد إلى المنية متعبًا ... رسف المقيِّد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله ﷺ قال - لما بلغه هذا الشعر - لو بلغني هذا قبل قتله مننت عليه.

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان.

الكدر:

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتىٰ غزا[1] بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلىٰ المدينة ولم يلق كيدًا

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٤٠).

فأقام بها بقية شوال وذا القعدة، وفي مقامه هذا فدىٰ جل أسارىٰ بدر.

السويق[١] :

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتىٰ يغزو محمداً فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر بيمينه حتىٰ كان من المدينة علىٰ نحو بريد، ثم خرج من الليل حتىٰ أتىٰ بني النضير تحت الليل فأتىٰ حيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبىٰ أن يقبله فانصرف عنه إلىٰ سلام بن مشكم سيد بني النضير المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته، حتىٰ أتىٰ أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها: العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتىٰ بلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعًا وقد فاته أبو سفيان، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتىٰ يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم[٢] .

وإني تخيرت المدينة واحداً	لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميتًا مدامة	على عجل مني سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ـ ولم أكن	لأفرحه ـ أبشر بعز ومغنم
تأمل فإن القوم سر وإنهم	صريح لؤي لا شماطيط جرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أتى ساعيًا من غير خلة معدم

ذي أمر[٣] :

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبًا منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريبًا من ذلك ولم يلق كيداً ثم

(١) «السيرة» (٣/ ٤٠).
(٢) «السيرة» (٣/ ٤١ـ٤٢).
(٣) «السيرة» (٣/ ٤٢).

رجع إلىٰ المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلاً منه .

الفرع[1] :

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشًا حتىٰ بلغ بحران وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدًا .

أمر بني قينقاع[2] :

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم - كما قاله بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة - وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيًا من عدائهم إذ أنهم قالوا له : يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهرًا بحادثة وقعت في سوق بني قينقاع ، سببها تعدي رجل من اليهود علىٰ امرأة من العرب تعديًا معيبًا فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلىٰ اليهودي فقتله ، وقامت اليهود علىٰ المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج إليهم رسول الله وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا علىٰ حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها إلىٰ أذرعات بالشام وأقاموا فيها .

كان من نتيجة بدر أن قريشًا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يدلهم علىٰ الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقيهم علىٰ القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال ، فقدم بالعير علىٰ رسول الله ﷺ .

أمر كعب بن الأشرف[3] :

كان كعب بن الأشرف يهوديا من طيئ ، ثم من بني نبهان وأمه من بني

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٣/ ٤٢) .

(٢) انظر «السيرة» لابن هشام (٣/ ٤٢-٤٣) ، و«صحيح البخاري» (٣٨١١) .

(٣) «السيرة» (٣/ ٤٧) وما بعدها .

النضير، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتلِ مَن قُتِلَ من قريش، قال كعب: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتىٰ قدم مكة فنزل علىٰ المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض علىٰ رسول الله ويقول الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال:

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع

قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع

كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذي بهجة تأوى إليه الضيع

طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الاشرف ظل كعبًا يجزع

صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

صار الذي أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشًا لا يسمع

نبئت أن بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا

وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع

نبئت أن الحارث بن هشامهم ... في الناس يبني الصالحات ويجمع

ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمي على الحسب الكريم الأروع

ثم رجع إلىٰ المدينة فشبب بنساء المسلمين حتىٰ آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الأنصار فقتلوه جزاء خيانته العهد.

المحاضرة الثالثة عشرة

أحـد[١]

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب، ورجع فُلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحي الذي من عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له: إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال: فأعنا بنفسك فلك الله علي إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها ومن كنانة أهل تهامة وخرجوا معهم بالطعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة.

لما سمع بهم رسول الله ﷺ وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج إليهم أم يقيم في المدينة؟ فقال له عبد الله بن أبيّ بن سلول - وكان رأساً في الأنصار إلا أنه كان يضمر نفاقاً -: نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٥٥) وما بعدها.

وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأي رسول الله، لكن كان رأي جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلى بيته فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال[1] حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم قالوا: استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام: «**ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**» فخرج عليه السلام في ألف من الصحابة حتى إذا كان بالشوط انخذل عنه عبد الله بن أبيّ ابن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتي نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال، ثم تعبى عليه السلام للقتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وقال له: «**انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك**»، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير، وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار: يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع، وذلك ما أراد أبو سفيان.

التقى الناس ودارت رحى الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدي وعلي

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصري كان أول شوال الأحد، فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥). (المؤلف).

ابن أبي طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسنًا فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها - إلا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا، ومما زاد في دهشتهم وأضعف عزائمهم أن رجلاً قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل، فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ وحتى رمي بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشجّ وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار يردون عنه العدو، ثم فاء فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقاتلت في ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهي ممن بايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقي الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحًا شديداً، وقد امتاز جماعة من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله ﷺ منهم أبو دجانة وكان النبل يقع في ظهره وهو منحن على رسول الله حتى كثر فيه النبل، ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان راميًا، ومنهم عبد الرحمن بن عوف.

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد الأنصار فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن أنصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا إليه ونهض

معهم نحو الشعب معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلىٰ الشعب أقبل أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سببًا لموته وهو عائد إلىٰ مكة وهو الرجل الوحيد الذي قُتِلَ بيده عليه السلام.

ولما انتهىٰ إلىٰ فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتىٰ ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلىٰ الرسول ليشرب منه فوجد له ريحًا فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب علىٰ رأسه، وبينا هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه.

يظهر أن قريشًا رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من عار بدر فاكتفت به وعولت علىٰ الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادىٰ بأعلىٰ صوته - بحيث يسمعه من في الشعب - وقال: أنعمت فعال، إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، اعل هبل.

فقال عليه السلام: «**قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**»، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له: هلم إلي يا عمر، فقال له الرسول: ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر ثم نادىٰ أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت، ثم نادىٰ: إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول: نعم هو بيننا وبينك موعد وكان الذي يهم الرسول ﷺ في موقفه أن يعلم ذات نفس قريش، أيريدون المدينة أم ينصرفون إلىٰ مكة؟ فأرسل علي بن أبي طالب فقال: «**اخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة**

وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم» فخرج علي في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفنوها، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

ثم انصرف[1] عليه السلام راجعًا إلى المدينة فلقيته في الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام: «إن زوج المرأة منها لبمكان» لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها، ومر بامرأة من بني دينار من الأنصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة.

في غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطلب العدو وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشًا وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بما هم عليه من التعب والجراح حتي بلغوا حمراء الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئًا كان بها ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الأسد وسار حتى لقي أبا سفيان وأصحابه

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٧٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٩).

بالروحاء، وقد جمعوا الرجعة فإنهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقًا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحنق عليكم ـ شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

والذي اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين، وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تمّ لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع.

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ما تكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحد، وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر فاشتفت أنفسهم، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أبا سفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد، فقال له صفوان بن أمية بن خلف: لا تفعلوا، فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا.

وعند انصراف الرسول من حمراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي الذي منّ عليه بعد بدر، فقال له: أقلني يا محمد، فقال عليه السلام: «**والله لا تمسح**

عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»(١) ثم أمر بضرب عنقه.

والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلاً: أربعة من المهاجرين وباقيتهم من الأنصار، والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً.

أنزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن في سور «آل عمران» وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١-١٧٩].

وقد جمعت هذه الآيات أموراً:

(١) أجمل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد.

(٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما إلا عند النكبات.

(٣) توبيخ لهم - بألطف إشارة - على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل.

(٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر، وهي الفشل والتنازع والعصيان.

(٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر.

(٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم.

(٧) إعلان العفو عن المنهزمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٢)، ومسلم (٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة.

إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

(٨) الثناء على شهداء الموقعة والإخبار أنهم: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]. وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثاني يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجرًا عظيمًا.

وقد قيل في هذه الموقعة كثير من الشعر العربي، قالته قريش والمسلمون: نقله ابن هشام في سيرته (١).

يوم الرجيع:

قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلامًا فلو أرسلت معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرئوننا القرآن ويعلموننا الإسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل: إنا لا نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون. فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعا بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة - حين قدم ليضرب عنقه - أنشدك الله يا زيد؛ أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك، قال: والله لا أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي فيقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس

---

(١) «السيرة» (٣/ ١٢١-١٥٤).

أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

حديث بئر معونة:

قدم على رسول الله ﷺ في صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامري فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال عليه السلام: إني أخشى عليهم أهل نجد؛ فقال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين[1] رجلاً عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم: عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ما عدا رجلين: عمرو بن أمية الضمري لأنه كان في الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحًا قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو.

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال: «**هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا**» ثم قال لعمرو: لقد قتلت قتيلين! لأدينهما.

---

(١) كذا في «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٦٨)، والصحيح أنهم كانوا سبعين كما في «صحيح البخاري» (٣٨٦٠)، ومسلم (٦٧٧) وفي لفظ عند البخاري (٢٩٩٩): «... بعث أربعين أو سبعين...».

المحاضرة الرابعة عشرة

إجلاء بني النضير ـ ذات الرقاع ـ بدر الآخرة ـ الخندق وقريظة ـ بني المصطلق

إجلاء بني النضير[١] :

خرج عليه السلام إلىٰ بني النضير يستعينهم في أمر ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف؛ فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك علىٰ ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل علىٰ مثل حاله هذه (وكان جالسًا إلىٰ جنب جدار من بيوتهم) فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال ـ ورسول الله في نفر من أصحابه ـ فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعًا إلىٰ المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهىٰ عن الفساد وتعيب علىٰ من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها؟

أرسل جماعة من منافقي أهل المدينة إلىٰ بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم علىٰ أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضي الرسول بما طلبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلىٰ خيبر ومنهم من سار إلىٰ الشام.

---

(١) «السيرة» (٣/ ١٧٢) وما بعدها.

ونزل في أمر بني النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بني النضير ثم عين حكم الأموال التي تركوها وسماها فيئًا وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله: ﴿**لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾ [الحشر: ٧]. ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لغد.

ذات الرقاع[١] :

خرج عليه السلام من المدينة في جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بني محارب وثعلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلاً لقي بها جمعًا عظيمًا من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضًا حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس.

بدر الآخرة[٢] :

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعد أبي سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدرًا وأقام ينتظر أبا سفيان، أما هذا فإنه خرج بقريش حتى بلغ مجنة أو عسفان ثم بدا له فقال: «**أيها الناس، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا**» فرجع الناس، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيرًا على ما يكرهون.

الخندق[٣] :

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٣/ ١٨٤).
(٢) «السيرة» (٣/ ١٩٠).
(٣) «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٩٥).

ومعهم جماعة من بني وائل حتىٰ قدموا مكة علىٰ قريش فدعوهم إلىٰ حرب رسول الله وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتىٰ نستأصله فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولىٰ بالحق منه فسرَّ ذلك قريشًا ونشطوا لما دعوهم إليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتىٰ أتوا غطفان فدعوهم إلىٰ مثل ما دعوا إليه قريشًا وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وإن قريشًا قد تابعوهم علىٰ ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن في بني فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن دخيلة في بني أشجع بن أريث.

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق علىٰ المدينة بإشارة سلمان الفارسي وقاسىٰ المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتىٰ أحكموه ثم جاءت قريش ومن معها حتىٰ نزلوا بمجمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتىٰ نزلوا بذنب نعمىٰ إلىٰ جانب أحد، وخرج رسول الله والمسلمون حتىٰ جعلوا ظهورهم إلىٰ سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام.

خرج حيي بن أخطب النضيري حتىٰ أتىٰ كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة؛ وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده علىٰ أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حتىٰ الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتىٰ فتح له بابه ثم قال - إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام! جئتك بقريش علىٰ قادتها وسادتها حتىٰ أنزلتهم بذنب نعمىٰ وقد عاهدوني وعاقدوني علىٰ أن لا يبرحوا حتىٰ نستأصل محمدًا ومن معه فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله

في الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه؛ فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد؟ فشاتمهم سعد بن معاذ؛ وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين.

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعًا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار، ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين؛ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا: يا رسول الله أمراً نحبه فنصنعه أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئًا تصنعه لنا، قال: «**بل شيء أصنعه لكم**» فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعًا أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال عليه السلام: «**أنت وذاك**» فرجع رئيسا غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم

فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر.

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال: يا رسول الله إني أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي فمرني بما شئت فقال له عليه السلام: «**إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة**» فخرج نعيم حتىٰ أتىٰ بني قريظة وكان لهم نديمًا في الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم وإن قريشًا ليسوا مثلكم البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحولوا منه إلىٰ غيره وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتىٰ تأخذوا رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم! قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثم خرج حتىٰ أتىٰ قريشًا فقال لأبي سفيان ابن حرب - ومن معه من رجال قريش - قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقًّا أن أبلغكموه نصحًا لكم - إن معشر يهود قد ندموا علىٰ ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا علىٰ ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك علىٰ من بقي منهم حتىٰ نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن طلبت منكم يهود أحدًا من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلىٰ بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتىٰ نناجز محمدًا فقالوا لهم: إن غدًا السبت، وهو يوم لا نفعل فيه شيئًا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدًا معكم حتىٰ تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة

تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلىٰ بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم أحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال حتىٰ يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ إلىٰ القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فإذا أبو سفيان يقول لهم: لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلىٰ جنبي فقلت له: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام إلىٰ جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به علىٰ ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلىٰ بلادهم.

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون علىٰ ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقاة الأعداء واضطروا - بحكم ما هم فيه من الشدائد - أن يستعينوا بالخدع التي تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بني قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استسكن في أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاءً شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع.

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الأحزاب - أن يتوجه المسلمون إلىٰ بني قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتىٰ جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا علىٰ حكم

سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكمًا يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبي في مواليه من قينقاع بإجلائهم فلم يرض.

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد هزيمة كسرىٰ من جراء ما فعلوه بنصارىٰ الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين.

ذكر الله قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩-١١] والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب في عدوانهم والآية تدل علىٰ أن القتل لم يعمهم ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم: سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله وقد مات بعد حكمه بني قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر.

وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلىٰ صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل

مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك .

بني لحيان[1] :

أقام عليه السلام بالمدينة - بعد الخندق - إلى جمادي الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بني لحيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رءوس الجبال فعاد إلى المدينة .

ذي قرد[2] :

لم يقم بالمدينة إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن - في خيل غطفان - على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي فأشرف في ناحية سلع وصرخ وا صباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان راميًا مجيدًا فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكوع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هاربًا ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع فترامت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد وقال له : اخرج في أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون في أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله ﷺ واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد يومًا وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد .

بنو المصطلق[1] :

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بني المصطلق وهم بطن من

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٥٤) .

(٢) «السيرة» (٣/ ٢٥٦) .

(١) «السيرة» لابن هشام (٣/ ٢٦٤) .

خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحارث رئيس القوم.

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للمن على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم.

قالت عائشة: فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

الحديبية[١] :

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذي القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين، فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها.

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت معظماً له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا: إن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك عنا العرب، ثم بعثوا إليه رسولاً آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبره به بديلاً ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال:

(١) «السيرة» (٣/ ٢٨٢).

«**هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه**» فلما رأىٰ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي رجع إلىٰ قريش ولم يصل إلىٰ رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأىٰ فقال لهم ذلك فقالوا: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك؛ فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش ما علىٰ هذا حالفناكم أيصد عن البيت من جاء معظمًا له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لننفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له: مه - كف عنا يا حليس حتىٰ نأخذ لأنفسنا ما نرضىٰ به، ثم بعثوا له عروة بن مسعود الثقفي وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتىٰ جاءه، وقال له: يا محمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلىٰ بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا؛ وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك. ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا يحتملها المسلمون نال منه أبو بكر؛ ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله ﷺ ومحبتهم له فرجع إلىٰ قريش وقال لهم: يا معشر قريش قد جئت كسرىٰ في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا فروا رأيكم.

دعا رسول الله ﷺ - بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله إلىٰ قريش حتىٰ يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر: يا رسول الله إني أخاف قريشًا علىٰ نفسي وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها ولكني أدلك علىٰ رجل أعزّ بها مني عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلىٰ أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا له فخرج عثمان إلىٰ مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه، ثم أجاره حتىٰ يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف

رسول الله ﷺ، واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول الله قال: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة.

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه:

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش.

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

ثم دعا عليًا ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم . . .، فقال سهيل: اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . . .، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام: «**اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو**». ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في

عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت إلىٰ المسلمين فلما رأىٰ سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال: صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأرد إلىٰ المشركين يفتنونني في ديني؟ ولم تكن هناك حيلة إلا أن يُرد أبو جندل - عملاً بوثيقة الصلح - عملاً بالآية الكريمة: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

كانت حال بعض المسلمين عندما انتهىٰ الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت، وقد كانوا لا يشكون في ذلك لمكان رؤيا رسول الله ﷺ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لا تليق بالمسلمين حتىٰ إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: «بلى» ؛ قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: **«أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»**.

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدي وحلق الرءوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا إلىٰ هديهم ينحرون ثم حلقوا رءوسهم وأنزل الله في هذه الحادثة سورة «الفتح» بأسرها.

وقد سميت في أولها هذه الحادثة فتحًا مبينًا وذلك واضح، فإن الناس أمن بعضهم بعضًا بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب إلا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي ضحىٰ في نيل ذلك إنما هو شيء قليل جدًا ولكن الناس لا يصبرون - ثم ذكر في السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله، ووعد الموفي وأوعد الناكث، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلىٰ الحديبية وأبان ما سيعتذرون به

ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة، ثم بين للناس الأسباب التي من أجلها امتنع الرسول عن الحرب. ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله ﷺ وتمثيلهم أحسن تمثيل.

بهذه الهدنة أمن المسلمون شرّ قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاءوا إلا أنهم كانوا لهم عدوّ بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ما حل بهم وبإخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم فخرج في محرم للسنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنًا حصنًا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر.

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلاً معهم من بقي من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك.

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدوا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب عهد الحديبية فوصل إليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون، وكانت قريش تتحدّث أن أصحاب محمد في جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع

بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال: «**رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة من نفسه**» ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها.

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثًا ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة.

مؤتة[١] :

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي، وكان رسولاً إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديدًا على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة، وقال لهم عليه السلام: «**إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة**»، فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل[٢] قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو وهم في العدد القليل، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفي ذاك الوقت أظهر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٩).

(٢) في تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ما قيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التي كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار إليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم. (المؤلف).

أنفسهم فيه، وصار يتأخر بهم قليلاً قليلاً مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمي بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة، وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً في جانب مائتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذ عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلاً ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته إليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان إلا اثني عشر نفراً.

فتح مكة[1] :

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله ﷺ كما قدمنا وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية دماء، فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل بن معاوية الديلي ورفدتهم قريش بالسلاح، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد فأنشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهد، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة. أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد

---

(١) «السيرة» (٤/ ٢٦).

والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا[١] إلىٰ أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبًا عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج في هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتىٰ نزلوا بمرّ الظهران قريبًا من مكة.

كانت قريش محسة بأنه لا بد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين، وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقي أبا سفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه علىٰ عجز بغلته وسار به سيرًا حثيثًا ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان إلىٰ خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس: يا رسول الله قد أمنته فقال للعباس: اذهب به إلىٰ رحلك؛ فإذا أصبحت فأتي به فذهب به حتىٰ إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك؛ وأوصلك وأكرمك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنىٰ عني شيئًا بعد، قال: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلمَ أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؛ أما هذه فإن في النفس منها حتىٰ الآن شيئًا وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا فقال عليه السلام: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**»، ثم أطلق فذهب إلىٰ مكة مسرعا ونادىٰ بأعلىٰ صوته: يا معشر قريش

---

(١) رو‌ىٰ هذه القصة البخاري (٢٨٤٥).

محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس إلىٰ دورهم وإلىٰ المسجد، ثم سار عليه السلام بجنوده حتىٰ دخل من أعلىٰ مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لا تستحق الذكر، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلىٰ البيت فطاف به سبعًا علىٰ راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الشيبي ثم وقف علىٰ باب الكعبة وقال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: **«يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»**، ثم قال: **«يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟»** قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم قال: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[1].

ثم رد مفتاح الكعبة إلىٰ سادنها فهي في أعقابه إلىٰ اليوم. ثم دخل البيت فأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة.

وأمر - حين دخوله مكة - بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل في الإسلام في هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد.

---

(١) قال شيخنا رحمه الله «الضعيفة» (١١٦٣):

رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٤/ ٣١) وعند الطبري في «التاريخ» (٣/ ١٢٠) قال: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ... الحديث.

ونقله الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٣٠٠) ساكتًا عليه وهذا سند ضعيف مرسل لأن شيخ ابن إسحاق فيه لم يسم فهو مجهول، فهو مرسل أو معضل. اهـ. ثم حكم علىٰ الحديث بالضعف.

قلت: إنما هو عند الطبري من طريق ابن إسحاق عن عمر بن موسىٰ بن الوجيه عن قتادة، أن رسول الله ﷺ... فذكره وعمر بن موسىٰ هذا كان كذابًا يضع الحديث. فبان بهذا أن شيخ ابن إسحاق ليس مجهولاً إنما هو مبهم بينته رواية الطبري، والله أعلم.

وذكره الشافعي في «الأم» (٧/ ٣٦١) قال: قال أبو يوسف: إن رسول الله ﷺ... فذكره وحكاه عنه البيهقي في «الكبرىٰ» (٩/ ١١٨) وهذا إسناد معضل أيضًا والله أعلم.

يعتبر فتح مكة حدًا فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده فإن قريشًا كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب.

أمر حنين :

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزًا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضري ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم ومعه اثنا عشر ألفًا وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه، كانت هوازن وثقيف قد كمنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهيئ هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول: «**هلموا إلي أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله**» ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل، فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت: «**اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة**» فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدّة العدوّ قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وحدهم - نحو السبعين: وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن.

ولقد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلىٰ ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة، ثم عاد عنهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتىٰ نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فمُنَّ علينا مَنَّ الله عليك وقال له رجل من هوازن: إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث ابن أبي شمر الغساني أو للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام: **«أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟»** فقالوا: أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا فقال لهم: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم»**، فلما صلىٰ الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم عليه السلام: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»** فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وبذلك رد عليه السلام إلىٰ هوازن أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدىٰ العمرة وانصرف بعد ذلك راجعًا إلىٰ المدينة بعد أن ولىٰ علىٰ مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه إلىٰ المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة.

تبوك[1]:

أقام عليه السلام بالمدينة إلىٰ رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمىٰ هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣١).

ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يَردِونه ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر)، ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلاً إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله في سورة «التوبة»[1].

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله ﷺ محاربًا.

التشريع في المدينة:

بينا فيما سبق أن الذي نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن.

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منه بأمرين:

الأول: ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درسًا نافعًا للمسلمين.

الثاني: ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعني بالدينية ما شرعه ليكون أساسًا لمعاملات الناس بعضهم مع بعض.

---

(١) سورة [التوبة: ١١٧ وما بعدها].

الشرائع الدينية:

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئًا إلا أنه شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصًا بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقد بينها في سورة «النساء»[١] : ثم زاد المسلمين حثا على إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة «البقرة»[٢] .

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة «البقرة»:

الأول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللَّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

الثاني: في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للَّه﴾ [البقرة:١٩٦] إلى قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْه لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وذكره في سورة «آل عمران» من قوله: ﴿وَلِلَّه عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بين في سورة «الحج» المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ الآيات [الحج: ٢٨].

ولم يحج عليه السلام إلا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم[٣] : **«لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»**

---

(١) سورة [النساء: ١٠٢].

(٢) سورة [البقرة: ١٨٣ وما بعدها].

(٣) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٠١٦) من حديث جابر.

وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً.

(٤) الزكاة لم يرد في تفاصيلها في الكتاب شيء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة «التوبة»[1].

الشرائع الاجتماعية:

كنا نحب أن نجعل في مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهي أمر مالي محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاما يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله.

ما ورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع:

الأول: ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذي يسميه الناس الآن أحوالاً شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجي ولكنا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصي الذي ترجع أوامره ونواهيه إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضي لنا أهل اللغة باسم العائلة وإلا سميناها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه.

الثاني: ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض.

الثالث: ما يتعلق بالقصاص والحدود.

نظام البيوت:

(١) **الزواج**: شرع القرآن الزواج وسمى عقدته: ﴿**مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ [النساء: ٢١] وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين ﴿**مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ [الروم: ٢١] وجعل كلا

---

(١) في قوله عز وجل: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ٦٠].

من الزوجين لباسًا للآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهن ويسكن إليكم كما قال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧] أي تسكنون فيه.

(٢) حرم التزاوج بنساء بيَّنَّهن فنهى في «البقرة»[١] عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى في سورة «النساء» عن تزوج نساء بيَّنَّهن من أول قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢-٢٤] الآيات.

وأجاز في سورة «المائدة»[٢] تزوج المحصنات من أهل الكتاب.

أباح التزوج بأكثر من واحدة؛ إلى أربع، ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خائفًا من عدم العدل، فهو إذًا مأمور بالاقتصار على الواحدة والأسلوب الذي جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبه جيدًا لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم، والوصاية عليهم، فقال لهم: إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] يعني إن أمنتم أن تعدلوا؛ فإنه قال بعد: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ومما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

(٣) أمر بإعطاء النساء مهرًا عند التزوج: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾

---

(١) في قوله عز وجل: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم...﴾ الآية [البقرة: ٢٢١].

(٢) في قوله عز وجل: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان...﴾ الآية [المائدة: ٥].

[النساء: ٤] ولكنه لم يجعل لهذا المهر حدا معينًا يبتدئ به ولا ينتهي إليه.

(٤) العشرة: كثر في القرآن وصايا الرجل بالمعروف في معاشرة امرأته: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٢٩]، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١، الطلاق:٢]، وجعل للرجل الرياسة في البيت: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازًا في الحقوق فإن الكتاب يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨] فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذي يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين.

اهتم الكتاب كثيرًا بأمر عقدة الزواج حتى لا تنحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأول الأمر شكك الزوج في وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطبًا الأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩] وأي زوج لا يتأثر بما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة.

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقًا بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكمًا من أهلها وحكمًا من أهله للسعي في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحًا فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمرًا لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصًا عليهما: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]، وشرع في الكتاب نظامًا للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين

وأزال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ما داموا على حالهم.

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب إحداهما «البقرة» وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الإنسان بعدهما بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنظر المرأة زوجًا غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الأول أن في إمكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا **﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾** [البقرة: ٢٣٠].

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجته بإحسان: **﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾** [البقرة: ٢٢٨] وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج إلا إن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة، اقرءوا إن شئتم سورة «الطلاق» وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها: **﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾** [الطلاق: ١] ثم قال: **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾** [الطلاق: ٢].

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة إذا طلقت بمتعة عوضًا عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال: **﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾** [البقرة: ٢٣٦]، وقال: **﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** [البقرة: ٢٤١] وقال: **﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾** [الأحزاب: ٤٩]، وقال: **﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾** [النساء: ٢٠، ٢١].

فلا نرىٰ الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة علىٰ العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام .

(٥) فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيباً مفروضاً بعد أن كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] ثم بين تلك الأنصباء بيانًا تاما في سورة «النساء» .

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامىٰ فأمر بالمحافظة علىٰ أموالهم ونهىٰ عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة «النساء» كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف في أموالهم .

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوي فالذين يقولون ليس في الإسلام اعتناء بذلك النظام تراهم ابتعدوا جدا عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب .

المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات - الحدود - الدعوة ونتائجها

المعاملات:

ذكر الله تعالى أساس المعاملات في مواضع من كتابه:

(١) أمر أمراً عاما بالوفاء بالعقود[١] وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان للإنسان.

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهي ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه في سورة «البقرة»[٢]

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها: ﴿وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من اؤتمن أن يؤدي أمانته.

هذه هي الأصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها.

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها:

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة «النور» في موضعين:

---

(١) في قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [المائدة: ١].

(٢) في قوله عز وجل: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس...﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥].

الأول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٧-٢٩].

الثاني: في آخر السورة حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨]. إلى آخر الآيتين.

(٢) نهى النساء عن أن يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بمحضر أقارب لهن سماهم في سورة «النور»[1] وأمرهن في «الأحزاب»[2] بإدناء الجلباب ليكون شعارًا للحرائر حتى لا يتعرض لهن أحد في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة.

(٣) أمر[3] في التحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإلفهم.

الحدود والقصاص:

شرع الكتاب القصاص، وأثبت في سورة «الإسراء»[4] أن من قتل مظلومًا قد

---

(١) في قوله عز وجل: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء...﴾ الآية [النور: ٣١].

(٢) في قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

(٣) في قوله عز وجل: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

(٤) في قوله عز وجل: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولي الدم عند العرب أقرب عاصب للإنسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذي صار له الحق أن يقيم دعوىٰ القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبين في «البقرة»[1] أن كتب القصاص في القتلىٰ وأن القصاص لا ينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلىٰ ساداته والأنثىٰ بالأنثىٰ ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلىٰ رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها علىٰ قوم موسىٰ القصاص فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

أما الحدود فقد ذكر منها أربعة:

الأول: حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة.

الثاني: حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان في سورة «النور».

الثالث: حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد.

الرابع: حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات علىٰ شكل التخيير، ولكن الفقهاء وزعوها علىٰ جرائم مختلفة وعلىٰ كل حال فإن الكتاب قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]. وهذان الحدان في المائدة.

---

(١) في قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلىٰ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثىٰ بالأنثىٰ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدىٰ بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ [البقرة: ١٧٨].

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه الله في هذا الدين ليكون أساسًا لأعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا إليه.

الدعوة ونتائجها:

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا في دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالأنصار وكاد الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه إلا أنهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الإسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين، ويظهر لي أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإني لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى إنه لما مات عبد الله بن أُبي ابن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه في قميص له ونزل في قبره مع أنه كان سببًا عظيمًا في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن في هذه قوة كبرى.

ودخل في الإسلام قليل من يهود المدينة كعبد الله بن سلام ومن سار على رأيه، كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهي الحال مع قريش ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالاً فإن انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهًا لوجه كل ذلك كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه.

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من

الطعن في الدين الإسلامي فكان ذلك سببًا مهما من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر، حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش في الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإن الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله ﷺ أفواجًا قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود.

فممن وفد عليه ثقيف[١]، بعد أن انصرف عنهم رسول الله ﷺ والمسلمون رأوا أن الإسلام عم من بجانبهم فأرسلوا عنهم وفدًا يبايع الرسول على الإسلام، وفي مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم، وأشياء أعطاهم إياها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة؛ فقال: «**لا خير في دين لا صلاة فيه**»، وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سنا لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله: «**يا عثمان تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة**» وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلامًا.

وممن وفد عليه بنو تميم[٢] وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد وفيهم نزل أول سورة «الحجرات» ولما خرج عليه السلام استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٤/ ١٥٣)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٨٠).

(٢) «السيرة» لابن هشام (٤/ ١٧٥).

مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه علىٰ خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنىٰ في خطبته علىٰ المهاجرين والأنصار ثناء دينيًا ثم قام شاعرهم فألقىٰ كلمة يفتخر ـ وأولها :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤتىٰ له لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلىٰ من أصواتنا ؛ ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام .

وممن وفد من قيس : بنو عامر[1] فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتىٰ تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتىٰ من قريش؟ ثم سار إليها مضمراً غدراً فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد .

وقدم عليه وفد بني سعد بن بكر[2] وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال : أيكم ابن عبد المطلب فقال عليه السلام : **«أنا ابن عبد المطلب»** قال : أمحمد؟ قال : **«نعم»** قال : يا ابن عبد المطلب ، إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن عليّ في نفسك ، قال : **«لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك»** قال : أنشدك الله إلهك وإله

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٤/ ١٨٢) .

(٢) «سيرة ابن هشام» (٤/ ١٨٧) ، وانظر حديثه في «صحيح البخاري» (٦٣) من حديث أنس .

من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «**اللهم نعم**»، قال: فأنشدك الله . . إلخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «**اللهم نعم**» قال: فأنشدك الله . . . إلخ آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «**اللهم نعم**»، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها حتىٰ إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص؛ ثم خرج حتىٰ أتىٰ قومه فما أمسىٰ من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا بعد أن علمهم الإسلام وشرائعه.

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس[1] رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلىٰ وكان نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكًا بالإسلام.

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة[2]، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذي لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول ﷺ فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلىٰ بلادهم ارتد مسيلمة وادعىٰ النبوة وصار يسجع لهم أسجاعًا يحاكي بها القرآن.

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل[3] يقدم وفد طيئ فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام في زيد: «**ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه**» ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيدًا وأرضين معه، ثم وفد عليه من طيئ عدي بن حاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته.

ثم أقبل عليه وفود من مراد[4] وزبيد[5] وكندة[6] وقدمت عليه رسل ملوك

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٤/ ١٨٩).
(٢) «السيرة» (٤/ ١٩٠).
(٣) «سيرة ابن هشام» (٤/ ١٩١).
(٤) «السيرة» لابن هشام (٤/ ١٩٥).
(٥) «السيرة» (٤/ ١٩٧).
(٦) «السيرة» لابن هشام (٤/ ١٩٩).

حمير بإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل: ذي رعين ومغافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتابًا بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلاً من أصحابه يفقهون الناس في الدين.

وممن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامي[١] وكان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال:

بلغ سراة المسلمين بأنني   سلم لربي أعظمي ومقامي

ثم قدم عليه وفد بني الحارث بن كعب[٢] مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألهم عليه السلام: « **بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟** » قالوا له: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدًا بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وافدًا عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المعشار المكنى بأبي ثور.

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجًا حتى كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة في أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته ﷺ والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافًا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنه كان في وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعًا لسادتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة «التوبة»: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٩٧، ٩٨] وقد أثنى على آخرين منهم فقال: ﴿**وَمِنَ**

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٤/ ٢٠٤-٢٠٥).
(٢) «السيرة» (٤/ ٢٠٦-٢٠٧).

الأَعْـرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَيَتَّـخِـذُ مَـا يُنفِقُ قُـرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُـولِ أَلا إِنَّهَـا قُـرْبَةٌ لَّهُـمْ سَيُـدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَـتِـهِ إِنَّ اللَّهَ غَـفُـورٌ رَّحِـيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الإسلام فيهم قويًا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعاته إلى الملوك ورؤساء الأمم إلى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الإسلام أو يقف في سبيل دعوته، ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الأزمنة وتلك الحكومات لا بد أن تبدأ بالكبراء وذوي الزعامة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته إذا كانوا مخالفين له.

اختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختار دحية ابن خليفة الكلبي رسولاً إلى ملك الروم وكتب له كتابًا هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك).

وننقل هنا ما رواه ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب[1] قال: كنا قومًا تجارًا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لا نجد أمنًا فخرجت في نفر من قريش تجارًا إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه. فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على قدميه متشكرًا لله حين رد عليه ما رد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها

---

(١) رواه البخاري (٧) بتفصيل أحسن وأتم، ليس فيه القصة الأولى.

صلاته ومعه بطارقته وأشراف الروم أصبح ذات غداة مهموماً يقلب طرفه إلىٰ السماء فقال له بطارقته: والله لقد أصبحت أيها الملك الغداة مهموماً، قال: أجل رأيت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر قالوا له: أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا يهود، وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث إلىٰ كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم، فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرىٰ برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادي الأخبار بينها فقال: أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه.

فلما انتهىٰ به إلىٰ هرقل رسول صاحب بصرىٰ قال هرقل لترجمانه: سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده؟ فسأله فقال: خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم علىٰ ذلك فلما أخبر الخبر قال: جردوه فإذا هو مختون فقال هرقل: هذا والله الذي رأيت لا ما تقولون اعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته: قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتىٰ تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال: أبو سفيان فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال: أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا: نعم قال: انطلقوا بنا إلىٰ الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا: نعم قال: أيكم أمس به رحماً؟ قال أبو سفيان: أنا فقال: ادنه ادنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال: إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا عليَّ ولكني كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا علي ذلك ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي قال: فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره أقول له: أيها الملك ما يهمك من أمره إن شأنه دون ما يبلغك فجعل لا يلتفت إلىٰ ذلك ثم قال: أنبئني عما

أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم؟ قلت: محض أوسطنا نسبًا قال: هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به؟ قلت: لا، قال: فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا، قال: فأخبرني عن أتباعه منكم من هم؟ قال: قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد قال: فأخبرني عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ قلت: ما تبعه رجل ففارقه قال: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: سجال يدال علينا وندال عليه قال: هل يغدر؟ ـ فلم أجد شيئًا لما سألني عنه أغمزه فيه غيرها ـ قلت: لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره فوالله ما التفت إليها مني ثم كر على الحديث قال: سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبًا وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبًا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبًا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا، فلئن كنت صدقتني ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك، قال: فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي على الأخرى وأقول: أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام وقدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله ﷺ فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال: إنما قلت ما قلت لأختبر صلابتكم في دينكم؛ ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت

وقعة مؤتة كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله .

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلىٰ المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه : (سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ وآمن بي إني أدعوك إلىٰ أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقىٰ لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال : من ينزع ملكي مني أنا سائر إليه ولم يسلم .

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلىٰ النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلىٰ الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة .

فعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلىٰ الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسولَ وفاتُه صلىٰ عليه بالمدينة .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلىٰ كسرىٰ ومعه كتاب فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلىٰ كسرىٰ عظيم فارس سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلىٰ الناس كافة لينذر من كان حيًّا، أسلم تسلم، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فمزق كسرىٰ كتابه ولما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال : «مزق الله ملكه» ثم كتب كسرىٰ إلىٰ باذان عامله علىٰ اليمن ابعث إلىٰ هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فاختار باذان رجلين ممن عنده وبعثهما بكتاب إلىٰ رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلىٰ كسرىٰ فلما قدما المدينة وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما : إن شاهنشاه ملك الملوك كسرىٰ قد كتب إلىٰ الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي وقالا قولاً تهديديًّا . في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرىٰ قد قام علىٰ أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحي، فأخبرهما بذلك . فقالا : هل تدري ما تقول؟، إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا؛ أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال : «**نعم، أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على**

قـومـك من الأبناء» فخرجا من عنده حتىٰ قدما علىٰ باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتىٰ يأتيك أمري وكان ذلك سببًا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء .

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث إلىٰ رسول الله ﷺ بمارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التي بين العرب وأهل مصر .

وبعث سليط بن عمرو العامري إلىٰ هوذة بن علي الحنفي ، وبعث العلاء بن الحضرمي إلىٰ المنذر بن ساوي صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلىٰ جيفر وأخيه عباد الأزديين .

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلىٰ أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سببًا في إجابة بعض وشاغلاً لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفي غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرءوس والسادات .

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته ـ ختام القرآن ـ الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته:

ومما كان سببًا كبيرًا في نجاح الدعوة الإسلامية على يدي محمد رسول الله ﷺ ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه، وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج إلى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة ـ حينما أخبرها بأمره أول مرة ـ: ما كان الله ليخزيك أبدًا إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق.

الأخلاق الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله، ألا ترى الله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل إلينا.

النظافة الظاهرة: مما يروى عنه عليه السلام: «**بني الدين على النظافة**»[1]، وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها.

العقل والذكاء: لا مرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم.

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلاً عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» (١/ ٢٢٣)، وقال العراقي: لم أجده هكذا. وانظر «المصنوع» (١/ ٧٧)، و«كشف الخفاء» (١/ ٣٤١).

وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه - إلى أكمل عقل وأرجحه .

فصاحة اللسان وبلاغة القول: كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي[1] جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها ويحاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المعشار الهمذاني وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في المأثور من كلامه الجامع ومنه ما لا يوازئ فصاحة ولا يبارئ بلاغة نحو قوله: «**لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له**»[2] ، «**الناس معادن**»[3] ، «**ما هلك امرؤ عرف قدره**»[4] ، «**المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم**»[5] ، «**رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم**»[6] ،

---

(١) أخرج مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة: «. . . وأوتيت جوامع الكلم»، وعنده أيضًا بلفظ: «أعطيت» وعند البخاري (٦٦١١) بلفظ: «بعثت بجوامع الكلم».

(٢) **ضعيف**: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٠٧) من حديث سهل بن سعد، وفيه المسيب ابن واضح: ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٢)، ومسلم (٢٥٢٦)، (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

(٤) **ضعيف**: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٠٦) من كلام عمر بن عبد العزيز بلفظ: «. . . رحم الله امرأ عرف قدره».

وأخرجه أيضًا (٤/ ٦٣) من كلام وهب بلفظ: «. . . ومن انتحل فوق قدره جحد قدره. . .».

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، والنسائي (١٤٩٧)، وابن ماجة (٣٧٤٥) من حديث أبي هريرة.

وأخرجه الترمذي (٢٨٢٣) من حديث أم سلمة.

(٦) **حسن**: أخرجه الربيع في «مسنده» (٧٧٨)، والحارث بن أبي أسامة (٨٤٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٣٩) من حديث ابن عباس مرفوعًا.

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٨٠)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (٩)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٩)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٤) عن خالد بن أبي عمران مرسلاً وانظر «الصحيحة» (٨٥٥)، وأخرجه هناد في «الزهد» (١١٠٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٣٤). والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٨١) عن الحسن مرسلاً.

وأخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٢٧٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤١) عن الحسن قوله.

«إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون»(١) ، **«ذو الوجهين لا يكون وجيهًا عند الله»**(٢) ، **«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**(٣) ، **«الظلم ظلمات يوم القيامة»**(٤) ، وهذا قليل من كثير ، قال له أصحابه يومًا : ما رأينا الذي هو أفصح منك قال : **«وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين»**(٥) ، وقال مرة أخرىٰ : **«أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد»**(٦) فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلىٰ التأييد الإلهي الذي مدده الوحي .

---

(١) صحيح : أخرجه الطبراني في «الصغير» (٦٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري .
وأخرج البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا : «خياركم أحاسنكم أخلاقًا» .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٢٤/ ٢٥٤٦٦) عن عكرمة قال : قال لقمان : ذو الوجهين لا يكون عند الله أمينًا .
وفي «الصحيحين» : «إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» أخرجه البخاري (٦٧٥٧)، ومسلم (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) أخرجه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٩) من حديث ابن عمر ، وأخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٥) ضعيف : أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٥٩٤٩) من طريق موسىٰ بن محمد ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه . . . ، وموسىٰ هذا منكر الحديث .

(٦) موضوع : أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (١/ ١٤٠) قال : وأخبرني بعض الشاميين أن رسول الله . . . فذكره وهذا إسناد معضل أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١١٣) عن يحيىٰ بن يزيد السعدي مرسلاً بلفظ : «أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر» ، وفي إسناده الواقدي ، متروك الحديث .
وفي «كشف الخفاء» (٦٠٩) : « . . . ومثله : أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» ، وأورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده .
وكذا قال السيوطي في «المصنوع» (٤٠)، وانظر «الضعيفة» (١٦٨٩) .

والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد بين له الوحي معناها بقوله: «**أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك**»(١)، وقال له: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧]، وقال له: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [الشورى: ٤٣]، ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله. كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا قالت عائشة: ما خُيِّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا إن انتهكت حرمة الله فينتقم لله بها»(٢).

ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له: لو دعوت عليهم فقال: «**إني لم أبعث لعانًا ولكني داعيًا ورحمة اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»(٣)، فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال: «**ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل**»(٤)، ونهى من أراد من أصحابه قتله، لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً بل قال

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٦٨٣) عن الشعبي، وأخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٨٢)، والطبري (٩/ ١٥٥) عن سفيان بن عيينة عن أبيه.

وأخرج نحوه أحمد في «المسند» (١٥٦٥٦) من حديث معاذ بن أنس وإسناده ضعيف أيضًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة.

(٣) ضعيف: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٤٧) عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً، وانظر «ضعيف الجامع» (١٦٣٦).

وأخرج مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة».

(٤) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

لمن أشار بقتل بعضهم: «**لا لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[١] والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره الله عليهم وحكمه فيهم ما زاد على أن قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**[٢] **أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف: ٩٢]»، وكان عليه السلام أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضًا.

الجود والكرم: كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى، بهذا وصفه كل من عرفه، قال جابر: «ما سئل عليه السلام عن شيء فقال لا»[٣] وقال ابن عباس: «كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[٤]، وعن أنس: «أن رجلاً سأله فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى بلده وقال: أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة»[٥] وأعطى غير واحد مائة من الإبل[٦] وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله، فقال: «**ما عندي شيء ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه**» فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي ذلك فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً فتبسم ﷺ وعرف البشر في وجهه وقال: «**بهذا أمرت**»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٢)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) **ضعيف**: وتقدم تخريجه ص١٣١.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٨٧)، ومسلم (٢٣١١) من حديث جابر.

(٤) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث ابن عباس.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣١٢) من حديث أنس.

(٦) انظر «صحيح البخاري» (٢٩٨١)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٠).

(٧) **ضعيف**: أخرجه عبد الرزاق في «جامع معمر» (٢٠٠٥٧)، والترمذي في «الشمائل» (٣٥٤) والبزار (٢٧٣) والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٣٩) وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (١٠١) والضياء المقدسي في «المختارة» (٨٨) من حديث عمر بن الخطاب وقال الضياء: كذا رواه الترمذي في «الشمائل» وإسناده ضعيف.

الشـجاعـة والنجـدة: كـان عليه السلام منهـما بالمكان الذي لا يجـهل حضـر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه.

وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول: «**أنا النبي لا كـذب أنا ابن عبد المطلب**»، فما رؤي أحد يومئذ كان أشد منه»[١] .

وكان إذا غضب لا يغضب إلا لله ولم يقم لغضبه شيء، وقال علي: «كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»[٢] .

فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عري والسيف في عنقه وهو يقول: «**لن تراعوا**»[٣] .

الحياء والإغـضاء: كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد: كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه[٤] ، وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحدًا بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا»[٥] ينهى عنه ولا يسمي فاعله، وروي أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد وأنه يكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٧)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) حسن: أخرجه الحاكم (٢٦٣٣) من حديث علي.
وأخرج نحوه مسلم (١٧٧٦) من حديث البراء.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٧٥)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٢٣٢٠) من حديث أبي سعيد.

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٨٨) من حديث عائشة.
وانظر «صحيح البخاري» (٥٧٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٦).

حسن العشرة والأدب وبسط الخلق مع أصناف الخلق: قال علي في وصفه: «كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة»(١) .

وقال قيس بن سعد بن عبادة: «زارنا رسول الله ﷺ فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد: يا قيس اصحب رسول الله قال قيس: فقال لي عليه السلام: «اركب» فأبيت فقال: «**إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت**»(٢) .

وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها وقال أنس: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط! وما قال لشيء صنعته لما صنعته ولا لشيء تركته لم تركته»(٣) وكان يمازح أصحابه ويخاطبهم ويحاسبهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى

---

(١) **ضعيف:** أخرجه الترمذي (٣٦٣٨) من حديث علي بن أبي طالب.

(٢) **ضعيف:** أخرجه أبو داود (٥١٨٥)، ومن طريقه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٨٠٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٢٥) من حديث سعد بن عبادة.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٩١)، ومسلم (٢٣٠٩) من حديث أنس.

يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام، ويروىٰ أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلىٰ صلاته وكان أكثر الناس تبسمًا وأطيبهم نفسًا ما لم ينزل عليه قرآن أو يخطب.

الشفقة والرأفة والرحمة: وصفه الكتاب بذلك: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

روي أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئًا فأعطاه ثم قال: «**أحسنت إليك يا أعرابي؟**» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلىٰ الأعرابي وزاده شيئًا ثم قال: «**أحسنت إليك**» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا فقال له النبي ﷺ: «**إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك**» فلما كان العشي جاء فقال عليه السلام: «**إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك؟**» قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فقال عليه السلام: «**مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفورًا فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**»[1]، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «**لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[2]، «**كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته**»[3].

---

(١) أخرجه البزار كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٠٥) من حديث أبي هريرة وقال ابن كثير: وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٥-١٦) ثم قال: رواه البزار، وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك.

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣٧٥٩)، وأبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦) من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٥)، ومسلم (٤٧٠) من حديث أنس.

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم: قال عبد الله بن أبي الحمساء: «بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «**يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك**»[1]، وقال أنس: «كان عليه السلام إذا أُتي بهدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة**»، دخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة**» وكان يصل ذا رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحمًا ماسة سأبلها ببلالها**»[2]، ولما قدم وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه: نحن نكفيك، فقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم**».

وكان يبعث إلىٰ ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بِصِلة وكسوة فلما ماتت سأل: «**هل بقي من قرابتها أحد؟**» فقيل: لا أحد.

التواضع: كان عليه السلام أشد الناس تواضعًا وأقلهم كبرًا، عن أبي أمامة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا فقمنا له فقال: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا**»[3]، وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء،

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٩٩٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٥٩)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٣/ ٣٢٧)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ ١٩٨) وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ١٢٣)، وتمام في «مسند المقلين» (٦، ٧)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٤٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٧٢٦)، والضياء المقدسي في «المختارة» (٢٢٥)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٣٤) من حديث عبد الله بن أبي الحمساء، وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢١٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٢٢٢٨)، وأبو داود (٥٢٣٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٣)، والروياني (١٢٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٩٣٧) من حديث أبي أمامة.

والنهي عن فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود، صحيح أخرجه مسلم (٤١٣) من حديث جابر بن عبد الله.

ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم فقال: «**اللهم اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة**»، هذا وقد «أهدى في حجه ذلك مائة بدنة»[١] . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعًا لله تعالى، ومن تواضعه قوله: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**»[٢] و«**لا تفضلوا بين الأنبياء**»[٣] و«**لا تخيروني على موسى**»[٤] ، ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: «**هون عليك فإني لست بملك؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»[٥] .

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة: كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم؛ وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه؛ وكان يسمى قبل نبوته الأمين، وقال الربيع بن خثيم: «كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام»[٦] .

وروي عن عليّ أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك؛ ولكن نكذب بما جئت به[٧] ، وفي ذلك قال الكتاب: ﴿**فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ**

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٦٣١).

(٢) روى البخاري (٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١٨)، ومسلم (٢٣٧٤) عن أبي سعيد مرفوعًا؛ بلفظ: «لا تخيروا بين الأنبياء».

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٨٠)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٥) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث أبي مسعود البدري، وانظر «صحيح الجامع» (٧٠٥٢).

(٦) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٥٧).

(٧) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٠٦٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٢٣٤)، والدارقطني في «العلل» (٤٧٤)، والضياء المقدسي في «المختارة» (٧٤٨) من حديث علي مرفوعًا. =

يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وسأل هرقل أبا سفيان فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[١]، وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة؛ حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به؛ قلتم ساحر! لا والله ما هو بساحر[٢]، وفي حديث عليّ في وصفه أصدق الناس لهجة[٣].

وعن الحسن: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحدًا ولا يقرف أحدًا ولا يصدق أحدًا على أحد، أي: لا يسمع وشاية الواشين.

وقال خارجة بن يزيد: «كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه[٤]، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسمًا وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرًا له واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير.

وعلى الجملة؛ فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه؛ وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطبًا له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحببه إلى القلوب، وألان من

= وقد روي مرسلاً عن ناجية بن كعب ليس فيه علي، ورجحه الترمذي والدارقطني، أخرجه الطبري (٧/ ١٨٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧٢٣٥).
وفي «علل الترمذي» للقاضي أبي طالب (١/ ٣٥٤): سألت محمدًا (يعني البخاري) عن هذا الحديث فقال: الصحيح عن أبي إسحاق عن ناجية عن النبي ﷺ مرسل.

(١) أخرجه البخاري (٧) من حديث ابن عباس وقد تقدم.
(٢) انظر «السيرة» لابن هشام (٢/ ١٣٨).
(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٣٨) من حديث علي بن أبي طالب.
(٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٥٠٥) عن خارجة بن زيد وفيه عمر بن عبد العزيز بن رهيب لا يعرف.

شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا مناصرين مؤازرين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه؛ فضلاً عما أيده الله به من المعجزات، وقد أفاض القول فيها كتاب السير.

البيت النبوي:

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها، وقد كان له منها أبناء وبنات، فأما الأبناء فلم يعش منهم أحد؛ فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى به عليه السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر؛ وأما البنات فكن أربعًا: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة، فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالاً، فلما رأى الرسول القلادة: رق لها رقة شديدة وقال: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا**» فرضي بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام عهدًا على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام وكان رجلاً مأمونًا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل وردَّ المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلمًا فرد النبي ﷺ إليه زوجه زينب، ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجًا جديدًا وإنما ذلك بالعقد الأول، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها علي بن أبي طالب، ومنها كان الحسن والحسين وزينب، وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان ممتازًا عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهنَّ.

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة؛ منهنَّ تسع مات عنهنَّ؛ واثنتان توفيتا في حياته إحداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما، وها هي أسماؤهن:

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بني عامر بن لؤي من قريش، وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو.

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكرًا، ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبنى عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع، وفي النفس[1] شيء من تقدير هذا السن.

---

(١) لا ينبغي أن يكون في النفس شيء مما قد صح به الخبر.

فقد روى البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٤٢٢) عن عائشة أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست سنين، وأدخلت عليه وهي بنت تسع، ومكثت عنده تسعًا.

يؤيده ما رواه مسلم أيضًا (١٤٢٢):

أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وفي لفظ عنده أيضًا:

أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت سبع سنين وزفت إليه وهي بنت تسع سنين ولعبها معها ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة.

انظر إلى قوله ولعبها معها.

وأوضح من ذلك ما رواه البخاري (٣٦٨١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئًا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

وفي حديث الإفك في «صحيح البخاري» (٢٥١٨): . . . فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: يا بريرة هل رأيت فيها شيئًا يريبك؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله.

فهل بعد هذا يبقى في النفس شيء.

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي.

(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش.

(٥) وهؤلاء الخمس كلهن من قريش؛ يضاف إليهن خديجة فتكون القرشيات ستًا من هذه البطون - عبد مناف - أسد بن عبد العزىٰ - مخزوم بن يقظة - تيم بن مرة - عدي بن كعب - عامر بن لؤي.

(٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذي كان معتبرًا ابنًا للنبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبني فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشىٰ اعتراض أعدائه عليه لأن عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامة العرب فأخفىٰ في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾ [الأحزاب: ٣٧] فبينت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله، وكان النزاع اشتد بينهما؛ فأحب أن يفارقها - ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾ وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد؛ وهذا هو الذي أيدته الآية - ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾ - تخشىٰ الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه - ثم أبدىٰ ما أمر به وهو قوله: ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾ وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد، ولقد هدم قاعدة التبني قولاً كما هدمها فعلاً فقال: ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة وهي التي عتق بسبب

زواجها من كان أسر أو سبي من قومها وأسلم أبوها .

(٨) ميمونة بنت الحارث من بني هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزىٰ من بني عامر بن لؤي .

(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بني إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن أبي الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتي توفي عنهنَّ .

(١٠) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة ؛ وكانت تسمىٰ أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وهذه توفيت في حياته .

هؤلاء إحدىٰ عشر سيدة تزوج بهن الرسول ؛ وبنىٰ بهن ؛ منهن ست من قريش ؛ وخمس من سائر العرب .

وهناك اثنتان[1] لم يبن بهما ، وتسرىٰ بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس فأولدها ابنه إبراهيم الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياة أبيه ، وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] .

يظهر لنا أنه كان للنبي ﷺ رأي في أن يجمع بين نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان عند العرب بابًا من أبواب التقريب بين البطون المختلفة ، وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعداً له أذىٰ كثيراً من أعدائه ، فلما كان بالمدينة صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوىٰ البطون من سائر العرب وبني إسرائيل ، وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية .

---

(١) أما الأولىٰ فهي ابنه الجون وقد صح خبرها رواه البخاري (٤٩٥٥) من حديث عائشة .
وأما الثانية فهي امرأة من بني غفار روي أن النبي ﷺ تزوجها فلما أدخلت عليه رأىٰ بكشحها وضحًا فردها إلىٰ أهلها وقال : «دلستم علي» وهذا خبر لا يصح .
أخرجه أبو يعلىٰ (٥٦٩٩)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٧/ ٢١٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٧١) من حديث ابن عمر ، وانظر «شرح مشكل الآثار» (٢١٤٠-٢١٤٦ تحفة الأخيار) .

وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله المنزلية للناس خصوصًا من طالت حياته منهن كعائشة فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله، وتجدون في سورة «الأحزاب» كثيراً من أحوال بيته، وفيها يقول الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ختام القرآن:

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى في يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر (راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادي في تلك السنة).

الوفاة:

في أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمى فاستأذن نساءه أن يتمرض في بيت عائشة فأَذنَّ له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال: «**يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**»[1] وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس[2] فصلى بهم مدة مرضه.

ولما كان يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ (٨ يونية سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابةَ بوفاته أبو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٨)، ومسلم (٢٥١٠) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦)، ومسلم (٤٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري.

يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] [١] .

وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بني ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قميصه وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفرادًا دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له لحد في الموضع الذي مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها .

وكانت سنه عليه السلام ثلاثًا وستين سنة قمرية .

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٥) من حديث ابن عباس .

المحاضرة الثامنة عشرة

الخلافة

الخلافة:

قد كان للرسول ﷺ وظيفتان يؤديهما لأمته:

الأولى: التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله.

الثانية: كونه إمامًا للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر وإليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام.

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها.

والوظيفة الثانية هي التي اختصصنا بها محاضرتنا هذه.

لم ير المسلمون بدا من إقامة من يخلف رسول الله ﷺ في خلافة المسلمين: ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين:

الأول: البيت الذي يكون منه الخليفة.

الثاني: الشكل الذي به ينتخب الخليفة.

بيت الخلافة:

من المحقق أن الكتاب لم يشر أي إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه

خليفة المسلمين وأما الرسول ﷺ فروي عنه: «**الأئمة من قريش**»(١) كما أثر عنه: «**اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»(٢).

لم يدفن النبي ﷺ حتى كانت هناك فكرتان:

الأولى: عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت.

الثانية: تخصيصها، وهذه الفكرة ذات شعبتين:

الأولى: تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه.

الثانية: تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله ﷺ وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بني عمه علي وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز عليّ من بينهم بسبقه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث.

رأيُ عدم التخصيص كان للأنصار فإنهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطري بن الفجاءة وليس من قريش وإنما هو رجل من تميم

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٢٣٠٧) و(١٢٩٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٤٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٢)، والطيالسي (٢١٣٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٢٠)، وأبو يعلى (٤٠٣٢) من حديث أنس.

وأخرج البخاري في كتاب الأحكام/ باب: الأمراء من قريش (٦٧٢٠): «إن هذا الأمر في قريش. . .» من حديث معاوية مرفوعًا.

وأخرج مسلم (١٨٠٨) كتاب الإمارة/ باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، من حديث أبي هريرة مرفوعًا: الناس تبع لقريش في هذا الشأن. . .».

وأخرج البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٨٢٠): لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان» من حديث ابن عمر مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١) من حديث أنس مرفوعًا.

وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلىٰ الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك إلىٰ بيت أو قبيلة بل إلىٰ ما في الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم إلىٰ قاعدة وضعها القرآن وهي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ورأي التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأيًا للجمهور لما رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفًا من علة هذا التخصيص بقوله: إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحيّ من قريش، ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون استنتاجه أن السر في تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم علىٰ سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرىٰ مهما يكن قدره عظيمًا وبنىٰ علىٰ ذلك أنه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتىٰ لم تعد قادرة علىٰ حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية علىٰ العلل والحكم في كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة.

ورأي التخصيص بالقرابة القريبة كان لعليّ بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرىٰ نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله ﷺ كما صرح بذلك في حديث مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده علىٰ نيل ذلك الحق الذي رآه لنفسه أذعن لرأي الجمهور.

مكث الرأي الأوسط سائدًا والأخير خامدًا لا يجد له محركًا حتىٰ كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلامية دعاة له ينبهون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الإحساس فسرعان ما تنبه وقد كان تنبهه سببًا لخطوب طويلة ومصائب عظيمة

ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه قام في وجهه نصف الأمة قادمًا إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها إقرار الأمر في نصابه من بيت النبوة، وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غَلَّبت القوة وإحسان السياسة رأي عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وليس من بني هاشم.

عادت فكرة الشيعة إلى الخمود ولكن السيوف وإن تكون تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتًا إذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حينًا انتظارًا للمستقبل.

ما زال أبناء عليّ يرون هذا الحق لهم إرثًا لا ينازعهم فيه إلا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتمثيلاً إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججًا والقلوب تأثرًا لأنه كان يعطي الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان أكثر ما يقولونه من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معفرًا بدمائه بكربلاء بعد أن أذيق من العطش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيلاً من بعده ممن خرجوا على بني أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى رد الحق لأهله.

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بني علي وبني العباس في استحقاق الخلافة بل كان بنو علي يرون الحق لهم خالصًا لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بني العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الأول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس إليهم سرًّا في دولة بني أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو

مسلم الخراساني فتمم لهم الأمر ورد إليهم الخلافة بعد أن أسقط بني أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلىٰ الرضا من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل علىٰ أن الأمة كان توجهها إلىٰ علي وأهل بيته أكثر من توجهها إلىٰ بني العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسىٰ مما لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد، وخصوصًا في زمن المنصور والرشيد[1] والمتوكل من بني العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلىٰ واحد من بني عليّ كافيًا لإتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم.

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون علىٰ بني العباس كما كانوا يخرجون علىٰ بني أمية والعاقبة القتل والتشريد، وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلىٰ أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالشرق سكت علىٰ ما في نفسه.

ذهب الفارون إلىٰ أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولاً علوية لها خير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتي ذكرهم بعد والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم في السر حتىٰ كان شيء من ذلك فيما يقال سببًا من أسباب سقوط الدولة العباسية فإن ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد علىٰ مجيء التتر إلىٰ بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك في الممالك الإسلامية ـ لمصر وملوكها ـ فساعدوا علىٰ إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد إليهم حتىٰ يكون سلطانهم مقبولاً لا يتكلم الناس فيه

(١) هذا الكلام في حق الرشيد يحتاج إلىٰ تحقيق، ليس هذا محل تفصيله. وراجع ترجمة الرشيد للمؤلف في كتاب الدولة العباسية.

وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة.

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين.

شكل الانتخاب:

لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله ﷺ، اللهم إلا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما، ولننظر ما صار عليه المسلمون في ذلك وها هي طرائقهم:

(١) **الطريقة الأولى:** طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبا بكر - بعد حوار وجدال ولكن انتخاب أبي بكر كان أمرًا يحتاج إلى السرعة في البت حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله ﷺ في الهجرة فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه في وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحدًا من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهي الأمر بسرعة فمد يده إلى أبي بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عن بيعة أبي بكر: كان فلتة وقى الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال: لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلانًا مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيئة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو.

(٢) **الطريقة الثانية**: أن يعهد الخليفة الموجود إلىٰ شخص آخر بعده بالخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس: هل رضيتم من اخترته فقالوا: نعم، وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية في انتخاب ولي عهده من غير قيد.

(٣) **الطريقة الثالثة**: طريقة الاختيار الشورىٰ من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حيا وميتًا فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرىٰ أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظامًا ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد علىٰ ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأي المقبول فيجب علىٰ الأقل الرضوخ لحكمها وإلا اعتبر خارجًا يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذي فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحًا.

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتًا حسنًا، ولكنا لم نر في مستقبل الأمة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها: لا ينكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن القصد منها أخذ رأي الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتىٰ لا يجد محبو الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسًّا بأن كلاً منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف علىٰ الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها.

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولىٰ لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترمًا أهم الأمة بأسرها؟ أم هم أفراد مخصصون؟ وإن كانوا مخصصين فمن

هم؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا: هم أهل الحل والعقد، ولكن من هم أهل الحل والعقد؟ أهم ولاة الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة؟ كل ذلك لم يبين فالمتطلع للخلافة يجد مجالاً واسعًا للتأويل كما حصل عند استخلاف عليّ.

والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادرًا على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن في بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.

والطريقة الثالثة - في حقيقة الأمر - كالثانية إذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأي غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة - وحدهم - هم الذين ينتهي إليهم أمر انتخاب الخلفاء، وليس لغيرهم معهم رأي ولو كانوا من أهل الحل والعقد في الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى، كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلنًا أنه مخالف لأن بيعة علي ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين الطرفين في سهل صفين فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا إلى شيء سموه تحكيمًا ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبه وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معًا وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود. ولكنه أوجد للمتنازعين خصمًا ثالثًا قوي الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقًا

من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو: «لا حكم إلا لله» وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره.

ولما كان عليّ هو الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة، وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوها الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفيهم كفاراً فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضعوا لأمرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتىٰ لم يكن منهم فائدة لا لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة، انتهىٰ أمر عليّ واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة علي بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلي بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوىٰ المتنازعين وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال إن أحدهما تعداها إلا إن سرنا علىٰ رأي من يقول إن عليا معين للخلافة بالنص عن رسول الله ﷺ، وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته.

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولاية العهد علىٰ أن الخليفة هو الذي يعينه كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر إلا أن بينهما فرقًا وهو أن أبا بكر اختار رجلاً ليس من ذوي قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتىٰ تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلىٰ ولده يزيد ولكنه امتاز في عهده بأن طلب من ولاة الأمصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولي عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاة إلا من لهم هوىٰ في بقاء الأمر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الأمر، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم

أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قومًا لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد، من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير.

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء في وسط هذه الظلمات الحالكة فاعتزل وترك حبل الأمة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجًا حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهي أول مرة ولي العهد فيها اثنان[1].

ولم تزل طريقة العهد سائدة في بني أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت خلافة بني العباس فسارت على هذا النمط؛ إلا أنه في عهد الضعف الذي استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد له لأنه كان يجر من السرير إلى القبر فيجتمع أصحاب «العقد والحل» ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريعًا بعد أن جاءها سيل

---

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولي فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا بهلاك الأول، وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذي جعل ولي عهد له فيجتهد في نزعه وإقامة ابنه مقامه، فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد، وولى سليمان بن عبد الملك عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جدًا من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بني أمية جميعًا، وولى يزيد أخاه هشامًا ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصًا على الوليد حتى ساءت أخلاقه، وولى السفاح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدي، وولى المهدي ابنيه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل، وولى الرشيد ابنيه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعلم مما أصاب السابق. (المؤلف).

المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم في مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتىٰ إن الظاهر بيبرس البندقداري ثالث المماليك بمصر لما رأىٰ سقوط بني العباس ببغداد ورأىٰ نفسه ليس بذي عهد من خليفة ساعد علىٰ إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلىٰ آل عباس ليتسمىٰ باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه.

جاء البيت العثماني وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الإسلامية التي كان لها ملوك متفرقون وتسمىٰ كبيره في عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت، ومع هذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتىٰ أدىٰ ذلك بكثير منهم إلىٰ أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الإخوة حينما يتولىٰ ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك في بيتهم أكثر مما حفظه في أي بيت آخر.

أما الانتخاب عند أهل التنصيص علىٰ البيت العلوي فإنه كان منظوراً فيه إلىٰ الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسموا عليًا ومن يليه الأئمة وكانوا اثنا عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفىٰ [1] وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرىٰ في

---

(١) هذه فرية الاثنا عشرية أن جعلوا آخر أئمتهم المهدي المنتظر الذي اختفىٰ، فهو لم يختف بل لم يخلق أصلاً، فالحسن العسكري الذي يدعون أنه والد (الإمام المزعوم) مات وليس له عقب.
ثبت هذا لدىٰ أهل السنة بل وعند الشيعة أيضًا، فقد جاء في «تاريخ الطبري»:
ادعىٰ رجل في زمن الخليفة المقتدر أنه محمد بن الحسن بن علي بن موسىٰ بن جعفر فأمر الخليفة بإحضار مشايخ آل أبي طالب وعلىٰ رأسهم نقيب الطالبيين أحمد بن عبد الصمد المعروف بابن طومار، فقال له ابن طومار: لم يعقب الحسن وقد ضج بنو هاشم من دعوىٰ هذا المدعي وقالوا: يجب أن يشهر هذا بين الناس ويعاقب أشد عقوبة فحمل علىٰ جمل فشهر به يوم التروية ويوم عرفة ثم حبس في حبس المصريين في الجانب الغربي.
وفي «الصواعق المحرقة» (ص١٦٨): أكد أقرب الناس إلىٰ الحسن العسكري وهو أخوه جعفر أن =

سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقًا.

لم يكن يحل الخلاف في زمن من الأزمان إلا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظافرًا ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعىٰ في جمع الكلمة علىٰ قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين.

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل إلينا أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرىٰ رأي الشيعة

= أخاه مات ولا نسل له ولا عقب.

وفي «الغيبة» للطوسي (ص٧٥): ينقل الشيعة عن جعفر أنه حبس جواري أخيه وحلائله حتىٰ ثبت براءتهن من الحمل.

وشنع علىٰ من ادعىٰ ذلك (سفينة البحار ص٦٢).

وفي «أصول الكافي» للكليني (١/ ٥٠٣-٥٠٥): عن أحمد بن عبد الله بن خاقان (وكان أميرًا علىٰ الضياع...)، قال: لما مات الحسن العسكري سنة ستين ومائتين ضجت «سر من رأىٰ» ضجة واحدة: مات ابن الرضا وبعث السلطان إلىٰ داره من يفتشها ويفتش حجرها وختم علىٰ جميع ما فيها وطلبوا أثر ولده وجاءوا بنساء يعرفن الحمل فدخلن إلىٰ جواريه ينظرن إليهن فذكر بعضهن أن هناك جارية بها حمل فوُضعت تلك الجارية في حجرة ووكل بها بعض النسوة.

ثم أخذوا بعد ذلك في تهيئته فلما فرغوا من ذلك بعث السلطان إلىٰ أبي عيسىٰ بن المتوكل للصلاة عليه فلما دنا أبو عيسىٰ منه كشف عن وجهه فعرضه علىٰ بني هاشم من العلوية، والقواد والكتاب ثم قال: هذا الحسن بن علي بن محمد الرضا مات حتف أنفه علىٰ فراشه حضره من حضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته ثم صُلي عليه وبعد دفنه أخذ السلطان والناس في طلب ولده وكثر التفتيش في المنازل والدور وتوقفوا عن قسمة ميراثه ولم يزل الذين وكلوا بحفظ الجارية التي وهم عليها الحمل ملازمين لها حتىٰ تبين بطلان الحمل، فلما بطل الحمل عنهن قسم ميراثه بين أمه وأخيه جعفر.

وفي «أصول الكافي» أيضًا (١/ ٥٠٥):

أسند الحسن العسكري وصيته في مرضه الذي توفي فيه إلىٰ والدته وأوكل لها النظر في أوقافه وصدقاته وأشهد علىٰ ذلك وجوه الدولة وشهود القضاء.

وانظر كتاب «مع الشيعة الاثنا عشرية في الأصول والفروع» وكتاب «المراجعات المفتراة علىٰ شيخ الأزهر البشري» كلاهما للشيخ علي السالوس.

فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليه المتكلمين وصار أمرها موضوعًا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور:

(١) وجوب نصب الإمام أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأي الجمهور؟ أو من طريق العقل كما هو رأي المعتزلة والزيدية؟ أو من طريقهما معًا كما هو رأي بعض المعتزلة؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأي الإمامية؟ أو على الله ليكون معرفًا لله وصفاته كما هو رأي الإسماعيلية؟ أو لا يجب كما هو رأي الخوارج أو يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأي هشام الغوطي وأتباعه؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأي الأصم ومن شايعه من المعتزلة؟.

(٢) شروط الإمام وقد عدوا منها شروطًا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة.

(٣) ما تثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافًا للشيعة ثم قالوا: لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان وقال بعضهم: لا بد أن يكون ذلك أمام بينة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز؟ وهل يجوز خلعه ولأي شيء يكون ذلك؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أهو أبو بكر أم علي؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟

(٦) ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل؟

وكانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة في بعض الأحيان عديمة الجدوى من الوجهة العملية لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون

بالاً لتلك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم .

والخلاصة: أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ما هي عليه من غير حل محدد ترضاه الأمة وتدفع عنه، سببًا لأكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ما سيرد عليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين .

المحاضرة التاسعة عشرة

انتخاب أبي بكر - أول خطاب له - ترجمته - أخلاق أبي بكر أخبار الردة

انتخاب أبي بكر:

كانت الأنصار منقسمة إلىٰ شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عددًا من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عبادة من بني ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفي رسول الله ﷺ وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الأنصار في تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله ﷺ منهم وكان نظرهم متوجهًا إلىٰ اختيار سعد بن عبادة فإن سعدًا خطب فيهم مبينًا ما للأنصار من الفضل والسبق إلىٰ حماية رسول الله ﷺ، وأنه لا ينبغي أن ينازعهم في هذا الأمر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم: فإن أبىٰ ذلك المهاجرون من قريش وقالوا: نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟ فقال له آخر: نقول: منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضىٰ بدون هذا فقال سعد لما سمعها: هذا أول الوهن.

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلىٰ السقيفة مسرعين حتىٰ وصلوا إليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه في نفسه ليقوله في هذا الموقف فقال له أبو بكر: علىٰ رسلك وكان أبو بكر رجلاً وقورًا فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر علىٰ ذكر الأنصار فأثنىٰ عليهم ولم يترك شيئًا مما لهم من المآثر إلا ذكره، ثم روىٰ لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله: «**الأئمة من**

قريش» ثم قال: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بني جشم بن الخزرج فقال: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس فيؤكم وظلكم ولن يجترئ مجترئ على أخلاقكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير، فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال: أنا جذيلها[1] المحكك وعذيقها المرجب أما والله وإن شئتم لتعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال: يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولي فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به من الدنيا عرضًا فإن الله ولي المنة علينا بذلك ألا إن محمدًا من قريش وقومه أحق به وأولى وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم، فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك ابسط يدك لنبايعك فمد عمر يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير: عققت أنفست على ابن عمك الإمارة؟ قال: لا والله ولكني كرهت أن أنازع قومًا حقا جعله الله لهم.

---

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به، والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه. (المؤلف).

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطئون سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا علي بن أبي طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله ﷺ.

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة كلهم إذ ذاك في المدينة، ولم يزل علي بن أبي طالب ممتنعًا عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر: والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عساهم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد علي ثم قال: قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيرًا ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقا لقرابتنا من رسول الله ﷺ فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه، ثم قال أبو بكر: والله لقرابة رسول الله أحب إلي أن أصل من قرابتي وبعد أن أتم كلامه قال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقي على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به، ثم استغفر علي وتشهد فعظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكارًا للذي فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا في الأمر نصيبًا فاستبد به فوجدنا في أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا: أصبت وكانوا إلى علي قريبًا حينما راجع الأمر بالمعروف.

أول خطاب لأبي بكر:

بعد أن تمت بيعته قام في الناس خطيباً[١] فقال: «أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت[٢] فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

وهذه الكلمة هي مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفي هذا ضمان لحريتهم في القول أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه ـ حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منه ـ أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم.

ترجمة أبي بكر:

هو أبو بكر بن أبي قحافة من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لسنتين من عام الفيل وشب على الأخلاق الفاضلة والسير الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله ﷺ قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول الله ﷺ: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر**»، وكان له في الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من

---

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهرون بها ما لأنفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم إجمالاً. (المؤلف).

(٢) صدفت: أعرضت.

ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بدا من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضيًا أن يصيبه ما يصيب إخوانه: ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي ﷺ على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة.

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بني عمر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج في الجاهلية أيضًا أم رومان بنت عامر من بني غنيم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله ﷺ - وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً - وتزوج في الإسلام أيضًا حبيبة بنت خارجة بن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم - فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث.

أخلاق أبي بكر:

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحًا وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبي بكر فإنا نجد أظهر أخلاقه:

صدق العزيمة - الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان في الأمر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شوريا فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شيء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقًا: هكذا كان أبو بكر.

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التي تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر.

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر في سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان مترددًا في أموره حسب المؤثرات التي تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك.

أول ما ظهر من صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول ﷺ، هيأ بعثًا ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤتة وكان في هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الإسلام فكلم في تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد في الأمر أو أخر البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمرًا حتمًا وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بإنفاذ بعث أسامة، ثم تكلم في أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضبًا شديدًا وقال: يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر؟! واشتد في الكلام مع عمر الذي كان يكلمه في ذلك عن بعض الأنصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال: عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه، ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بإبقائه بل قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له، وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوي حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تمامًا واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه، ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهي:

«لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعرقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا يدفعها باسم الله»[(١)] .

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يومًا ثم عاد وكان هذا البعث مفيدًا للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا: لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية!.

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في أخبار الردة.

أخبار الردة:

قدمنا أن كثيرًا من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الإسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة «الحجرات»: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢] فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول ﷺ فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية؛ خصوصًا ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة

---

(١) في «لسان العرب»: وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة: وستجدون آخرين للشيطان في رءوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أي: إن الشيطان قد استوطن رءوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا إنسانًا بشدة الغي والانهماك في الشر؛ قالوا: قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش، وفي حديث أبي بكر: وستجد قومًا فحصوا عن أوساط رءوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف، وفي الصحاح كأنهم حلقوا أوسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها. (المؤلف)

يدعون إلى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فلبوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين .

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة .

(٢) وفريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعلمه من الانتقاض الذي كاد يكون في عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء .

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها ؛ فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة ؛ وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهمّ بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فإن أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي ، فخرج في تعبيته حتى نزل على أهل الربذة فالأبرق فاقتتل جنده مع بني عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً ، وقد غلّب بني ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة ؛ فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذي القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم أحد عشر لواء لأحد عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدي ببزاخة فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح .

(٢) عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة .

(٣) ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة .

(٤) المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء ومعاونة الأبناء .

(٥) حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان.

(٦) عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا من قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه في عمله.

(٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

(٨) العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين.

(٩) طريفة بن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

(١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

(١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتابًا واحدًا (منشورًا) أرسله إليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال: (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالإسلام وعمل به اغترارًا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وإني قد بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحًا قَبِلَ منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي»، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور

عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم.

وكتب إلىٰ القواد عهدًا صورته واحدة وهو هذا:

«هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانتيه وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولىٰ عنه ورجع عن الإسلام إلىٰ أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتىٰ يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلىٰ أمر الله عز وجل وأقرّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله علىٰ الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلىٰ الدعوة لم يكن له عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبىٰ قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتىٰ يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونًا ولئلا يؤتىٰ المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول.

طليحة الأسدي:

كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله ﷺ بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعي للناس النبوة ليكون له من الشأن ما رأىٰ لبني قريش فدعا إلىٰ ذلك قومه من بني أسد فشايعوه والتفت إليه طيئ لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطفان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيء

بأرض نجد .

وكان بالمدينة عدي بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب إلىٰ قومه فأذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم في الذروة والغارب حتىٰ قالوا : فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتىٰ نستخرج من لحق ببزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهنهم فاستقبل عدي خالداً ، وقال له : أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك ؛ ففعل خالد ، ثم عاد عديّ إلىٰ قومه ، وقد أرسلوا إلىٰ إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم ، ثم راجعوا الإسلام ، فعاد إلىٰ خالد وأخبره ، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتىٰ أتىٰ بزاخة ، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً ، فلما أحس عيينة بن حصن الفزاري بالضعف جاء إلىٰ طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له : ألا ترىٰ ما يصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء؟ قال : نعم قد جاءني وقال : إن لك يومًا ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثًا لا تنساه ، فقال عيينة : أرىٰ والله أن لك حديثًا لا تنساه ، يا بني فزارة هذا كذاب وولىٰ عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلمًا فقال له عمر : أنت الكاذب علىٰ الله حين زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قيامًا فإن الرغوة فوق الصريح ، فقال : يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الإسلام كله فلا تعنيف علي ببعضه فأسكت عمر .

بنو تميم ومالك بن نويرة:

كان الرسول قد أمر علىٰ بطون تميم أمراء : منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة ، فلما توفي رسول الله ﷺ كان منهم من ظل علىٰ الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلىٰ أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينا هم علىٰ ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت

الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارىٰ تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلىٰ الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحملها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلىٰ وكيع بن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلىٰ مثل ما دعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأي تميم يبدءون فسجعت لهم سجاح قائلة: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب؛ ثم أغيروا علىٰ الرباب؛ فليس دونهم حجاب، فكانت بذلك خطوب في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بني تميم وعولت علىٰ المسير إلىٰ اليمامة بجموعها وكان بها مسيلمة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها وبينما هم علىٰ ذلك إذ سمعوا بقدوم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعها وعادت إلىٰ الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة علىٰ ما فعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندمًا ظاهرًا وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلىٰ خالد، وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحدًا فبعث سراياه مغيرة علىٰ القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفًا لأمر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالدًا تزوج زوجة مالك بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر: إن في سيف خالد رهقًا فإن لم يكن هذا حقًا حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك، وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال: هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد وودىٰ مالكًا وبخذلان بني يربوع عاودت تميم كلها الإسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلىٰ أبي بكر كما كانت تدفعها إلىٰ رسول الله ﷺ.

بنو حنيفة ومسيلمة:

كانت بنو حنيفة قد وفدت علىٰ الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم

مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمة ودعا الناس إلىٰ اتباعه، وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبني حنيفة نصفها ثم يقول: ولكن قريشًا قومًا لا يعدلون، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلىٰ المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بني حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجهًا آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهىٰ من مالك بن نويرة ليسير إلىٰ اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلمة كبيرة جدا تبلغ أربعين ألفًا لأن أكثرها اتبعه عصبية حتىٰ كان بعضهم يقول: أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمدًا صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، سار خالد حتىٰ وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالاً شديدًا حتىٰ انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوي الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية علىٰ عدوهم حتىٰ قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأىٰ بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم جماعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفي بأخذ ما عندهم من النقود ذهبًا وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقا علىٰ ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلىٰ خالد أن يقتل مقاتلهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح؛ فوفىٰ لهم خالد بما عاهدهم عليه، ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفدًا إلىٰ أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه: ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟! قالوا: يا خليفة رسول الله لقد كان الذي بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئًا منها فقال: ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم، وأقام خالد بعد فراغ الأمر في واد من أودية اليمامة يقال له: الوبر.

اليمن والأسود العنسي:

ولما أسلم أهل اليمن ولى عليهم رسول الله ﷺ باذان الذي كان عاملاً لكسرى فلم يزل واليًا عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً واليًا على صنعاء وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلمًا ينتقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول، ثم قام رجل من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الأبناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله ﷺ وكان أهل اليمن في أمره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتابًا على يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل في أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينًا، وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس بن عبد يغوث المرادي فهو يخافه خوفًا شديداً ففاتحه الأبناء في أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر.

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله ﷺ عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقي على

إسلامه من رءوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتىٰ تصلهم النجدات وما زالوا كذلك حتىٰ وصلتهم الحشود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معديكرب ثم ذهبت إلىٰ كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضًا وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتىٰ غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلىٰ أبي بكر يبشرونه بالفتح .

البحرين والحطم:

كان عليه السلام قد ولىٰ علىٰ البحرين المنذر بن ساوي وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر في الشهر الذي مات فيه رسول الله ﷺ وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلىٰ الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلىٰ حيث جمعهم فقال : يا معشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتم وما تجيبوني إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضىٰ؟ قالوا : نعم، قال : فما فعلوا؟ قالوا : ماتوا، قال : فإن محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا علىٰ إسلامهم ؛ أما بكر فإنها تمت علىٰ ردتها يقودها إلىٰ ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوىٰ كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتىٰ قدم عليه العلاء بن الحضرمي أميراً علىٰ الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال في مسلمة بني حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الإسلام بجرانه في البحرين وكتب العلاء إلىٰ أبي بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلىٰ الإسلام .

وكانت هناك وقائع أخرىٰ بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات في جميعها انتصر المسلمون .

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التي هاجت في جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول ﷺ فأطفأها وليد عجاجتها قبل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحار بادئ بدء في هذا الأمر ولكن إذا رجع إلىٰ قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند وإليهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفسًا هي أكبر نفس عرفت عن خليفة.

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد فلما نقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلىٰ أبي بكر يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضبًا شديدًا ولم يكن هناك هوادة في رجوعه إلىٰ خالد ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لأي سبب كان من غير أمر الرئيس، ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته، وحاول عمر أن يوقع [(١)] أبو بكر بخالد مع جسامة ذنبه فلم يفعل لأنه خاف الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ.

إنا نقول في ذلك قولاً صريحًا، لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذي عرف، حصل ذلك في وقت استولىٰ فيه الذهول علىٰ أفئدة المسلمين كافة حتىٰ أقواهم شكيمة وأشدهم قلبًا.

---

(١) أي: يقتص أبو بكر من خالد علىٰ ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته إما بالقود أو العزل.
وكلا الأمرين مروي عند الطبري في «التاريخ» (٢/ ٢٧٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٧٢٥) وعبد الرزاق (٩٤١٢)، وانظر «السير» (١/ ٣٧٢).

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية - حال الفرس والروم لأول عهد أبي بكر

غزوة الفرس - غزوة الروم

ظهور الأمة العربية:

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً.

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الأعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية.

دولة الفرس:

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الأكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن بابك، وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالأمر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت في عهد إسكندر المقدوني وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي: ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاها وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان

الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لعهد رسول الله ﷺ وكان ملكًا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز؛ وهو الذي أرسل إليه الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام فرأى ذلك أمرًا عظيمًا أن يدعوه عبد من عبيده - زعم - ليكون خاضعًا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلاً بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيرًا إلى أهل بيته فولي من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهريزار مرابطًا بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولي أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يومًا من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله ﷺ واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التي جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فزخهر من أصبهبذ خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلاً من عقب أزدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه إلا أيامًا وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم.

الرومان:

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تناصي دولة الفرس في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية: والغربية وقاعدتها

رومية في زمن القيصر تيودثيوس الذي ولي أمر الرومان إلىٰ سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذي ولي من سنة ٣٩٥ إلىٰ سنة ٤٠٨ وما زالت الملوك تتوالىٰ علىٰ هذا الكرسي حتىٰ كان ملكهم لأول العهد الإسلامي هرقل الذي كان قبل أن يتولىٰ الملك واليًا في أفريقية ثم خرج علىٰ الملك فوقا فقتله، وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكًا حتىٰ سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت علىٰ يده سوريا وملكها المسلمون.

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تخمد في هذه البقاع وكانت الحربَ بينهما سجالاً؛ فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتىٰ يصل إلىٰ شواطئ بحر الروم ومرة يطغىٰ عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات وما يسقيان من تلك الأراضي الخصيبة الجميلة.

وأقرب تلك الوقائع إلىٰ العهد الإسلامي ما حصل أولاً من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرىٰ أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتىٰ أجلوا الرومان عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت جنود الفرس توالي فتوحها حتىٰ وصلت إلىٰ البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها وشنوا غاراتهم علىٰ فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف فوقا علىٰ سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلىٰ مصر فأخذوا إسكندرية، وقد أشار الكتاب إلىٰ هذه الواقعة في أول سورة «الروم» التي نزلت بمكة إبان هذه الحروب قال تعالىٰ: ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ**﴾ [الروم: ٢، ٣] ثم قال مخبراً عمن تكون له العاقبة فقال: ﴿**وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ**﴾ [الروم: ٣، ٤]، ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين علىٰ أعدائهم من المشركين فقال: ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ**

اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤، ٦].

وقد حصل ذلك فعلاً فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦١٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ما ذاقوه منهم قبلاً؛ ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٥ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي راسل فيها رسول الله ﷺ الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت بأورشليم: (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد في ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال، وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف.

هذا مجمل حال تلك الدولتين لأول عهد الخلفاء الراشدين.

غزو الفرس:

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الأبلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيح وهو شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد، وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذار يقول له فيه: أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء بالقرب من البصرة - فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاجل يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلاً للخبث، تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا.

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك، كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينا هو قادم إذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار[1] وعسكر به فسار خالد إليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدّره الطبري[2] بثلاثين ألفاً.

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الولجة[3] ثم أتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المتنصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمته حتى مات في طريقه عطشاً وقتل في

---

(١) المذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهي قصبة ميسان. (المؤلف).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/ ٣١١).

(٣) وهي من الشمال من المذار من أرض كسكر. (المؤلف).

الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارىٰ قومهم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يداً علىٰ حرب المسلمين واجتمعوا بأليس[١] وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة.

ولما فرغ من أليس نهض إلىٰ أمغيشيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلي ينتهي إليه، فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة، لما علم الأزاذبة - مرزبان الحيرة - بما كان من خالد في أمغيشيا علم أنه غير متروك فهيأ لحرب خالد وقدم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتىٰ لم يعد يحمل السفن تسير فيه، وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنقال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الأزاذبة حتىٰ لقيه هو وجنده علىٰ فم فرات باذقلي فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتىٰ عسكر بالخورنق مشرفاً علىٰ الحيرة - وأهلها متحصنون بقصورهم - فحاصرهم خالد ولما رأىٰ أهل الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلىٰ الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيله ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه علىٰ ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدّها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًا وعمراً ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرة بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم علىٰ ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم علىٰ غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركًا لها وعلىٰ المتعة وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم

(١) قرية من قرىٰ الأنبار. (المؤلف).

حتىٰ يمنعهم وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة[1] وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢ .

ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الأعراب اسمه شويل كان أسلم علىٰ يدي النبي ﷺ فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطىٰ من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام: «**هي لك**» فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة: دعوه فإنه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأفتدي منه فلما وصلت إلىٰ الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترىٰ فادني قال: لا إلا علىٰ حكمي، قالت: فلك حكمك فقال: فلست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه قال: ما كنت أرىٰ أن عدداً يزيد علىٰ ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال: كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد علىٰ ألف فقال خالد: أردت أمراً وأراد الله غيره نأخذ مما يظهر وندعك ونيتك. ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه علىٰ بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلىٰ أرضيهما من شاطئ الفرات علىٰ عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إني عاهدتكم علىٰ الجزية والمنعة علىٰ كل ذي يد بانقيا وباروسما جميعاً علىٰ عشرة آلاف دينار سوىٰ الخرزة، القوي علىٰ قدر قوته والمقل علىٰ قدر إقلاله في كل سنة وإنك قد نقبت علىٰ قومك وإن قومك قد رضوا بك، وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضي قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتىٰ نمنعكم.

ولما رأىٰ دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه علىٰ ما بين

---

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التأريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر. (المؤلف).

الفلاليج[1] إلىٰ هرمزجرد[2] علىٰ ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتابًا، ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور، وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلىٰ ملك فارس والآخر إلىٰ مرازبة الفرس رؤسائهم وصورة الأول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلىٰ ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرا لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم في أرضكم ونجوزكم إلىٰ غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون علىٰ غلب علىٰ أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»، وصورة الثاني: «بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلىٰ مرازبة فارس أما بعد: فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر»، وكان أهل فارس في ذلك الوقت في ارتباك داخلي بشأن من يتولىٰ الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهرسير وهي إحدىٰ المدائن التي سميت بها مدائن كسرىٰ وكانت في الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها، فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلاً يولونه الملك وليس من بيته إلىٰ أن يجدوا من آل كسرىٰ من يولونه وهو الفرحذاذا بن البندوان.

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف خالد علىٰ الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الأنبار[3] وقد تحصن أهلها وخندقوا علىٰ أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهىٰ الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح علىٰ أن يخليه

---

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجة، والفلوجة الكبرىٰ والصغرىٰ قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر. (المؤلف).

(٢) ناحية من أطراف العراق. (المؤلف).

(٣) مدينة علىٰ الفرات غربي بغداد بينها عشرة فراسخ. (المؤلف).

ويلحقه بمأمنه في جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر [١] وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له: صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب في جنده تاركًا الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد في بيتهم أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالد هذا الكتاب:

«من خالد إلى عياض: إياك أريد».

وهو أخصر كتاب فيما نعرف، ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسهم أكيدر بن عبد الملك: أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرًا منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه فقال: لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل في خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده وهو من جهة

(١) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة وهي على طرف البزية. (المؤلف).

وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بني كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي، وبعد أن أقام خالد قليلاً عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لإعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين إلى الحصيد[١] والخنافس فأوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيح وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالاً، ثم كانت له وقائع بالثنى[٢] والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جمعيًا وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشراً وبعد ذلك أذن في الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجًا معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل أوريبال فما توافى إلى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معًا وخالد وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبي بكر بصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذي أرسله إليه أبو بكر: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء».

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣، وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش: اقتطع من

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه سوق للعرب. (المؤلف).

(٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقربه الزميل. (المؤلف).

بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالي الأبلة إلىٰ الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها مرة، وكان اسمه يسبقه إلىٰ كل موقعة أرادها وكان في كل عمله فاتحًا لا مغيرًا فإنه كان بعد حماة طريقه ليأمن أن يؤتىٰ من خلفه وكان إذا افتتح بلدًا أقام فيه أميرًا من قِبَلِه ينظر شئونه وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتىٰ صاروا يفضلون حكمه علىٰ حكم الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلىٰ نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته علىٰ المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان إذا رأىٰ الجنود ينظر بعضها بعضًا بل سرعان ما يخرج طالبًا رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء علىٰ خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده.

وعلىٰ الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه ومما يبين عظيم علمه ما قاله الهيثم البكائي، قال: كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي يبلغهم ويقولون: ما شاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقارًا لما كان بعد فيما كان قبل.

غزو الروم:

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخرًا عن إرسال خالد لافتتاح العراق فإن أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص ولشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم

يتبع بعضهم بعضًا وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد ابن الوليد ستة وثلاثين ألفًا.

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالأمر هرقل وكان نازلاً بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأي؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك[١] ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه، بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة[٢] وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقًا لهم وهو لهيب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيرًا حثيثًا حتى وجئ فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبري[٣] ٢٤٠ ألفًا.

---

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الأردن. (المؤلف).

(٢) واد في أرض حوران. (المؤلف).

(٣) «تاريخ الطبري» (٢/ ٣٣٤).

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أي أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً: إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته، قالوا: فهات فما الرأي قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم الذي كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني واليكم اليوم فأمروه فعبى خالد الجيش تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوسًا (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوسًا وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيسًا يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف وجعل للجيش قاصا يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك وقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن

الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد (الأشقر: فرسه).

وخرجت الروم في تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا وكان القعقاع يرتجز.

يا ليتني ألقاك في الطراد وأنت في حلبتك الوراد

قبل اعتزام الجحفل الوراد

يرتجز عكرمة:

قد علمت بهكنة الجواري أني على عكرمة أداري

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم مقام الموسيقى[1] في تشجيع القلوب، نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان: وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبًا ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت في البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها على ما يقول الطبري[2] ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجْل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم.

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبي جهل فإنه كان يقول: قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر

---

(١) تشجيع قلوب مقاتلي الموحدين لا تكون بالموسيقى ولا بغيرها مما حرم الله ورسوله.
وهل يستوي الحلال والحرام أعني الرجز والموسيقى فأما الرجز فقد قاله رسول الله ﷺ فقال:
«اللهم لولا أنت ما اهتدينا....
وقال: «ما أنت إلا أصبع دميت....
وأما الموسيقى فقد قال رسول الله ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف».

(٢) «تاريخ الطبري» (٢/٣٣٨).

اليوم ثم ينادي من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعًا قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتى أثبتوا جميعًا جراحًا وقتلوا إلا من برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحًا فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول: كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء في ذلك اليوم في جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان.

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الإسلامية وقال: سلام عليك يا سوريا سلامًا لا لقاء بعده.

في أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائدًا عاما مكانه فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ولم يذعه لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم قوله: الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إليّ من عمر، والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه.

جيش عدته أربعون ألفًا يغلب جيشًا فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية، يقولون: إن ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سببًا في فوزهم هذا الفوز السريع، كان يمكن أن يكون هذا سببًا لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحًا منظمًا معبئًا أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم

كان يخوص هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين :

الأول: ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة، وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده .

الثاني: أنه واثق بالعاقبة في الأخرىٰ فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنىٰ وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدىٰ الحسنيين إما موت بعده سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلىٰ ذلك ما وفقوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم وقليل كانت أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر . وإلىٰ هنا انتهت الأعمال الكبرىٰ التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي .

يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها .

إدارة البلاد في عهد أبي بكر:

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية نهائيا وكان أبو بكر قد جزأها إلىٰ ولايات وعلىٰ كل ولاية أمير من قِبَلِه وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل في القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأن أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده :

(١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله ﷺ .

(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول ﷺ .

(٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي ولي فتحها بعد الردة .

(٤) حضرموت وواليها زياد بن لبيد .

(٥) خولان وواليها يعلىٰ بن أمية .

(٦) زبيد ورفع وواليهما أبو موسى الأشعري .

(٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل .

(٨) نجران وواليها جرير بن عبدالله البجلي .

(٩) جرش وواليها عبدالله بن ثور .

(١٠) البحرين وواليها العلاء بن الحضرمي .

أما العراق والشام فكانت لا تزال الحروب قائمة فيهما وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيهما، ولم يكن لأبي بكر وزير وإنما كان عمر يلي القضاء وأبو عبيدة أمينًا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام .

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظًا مرتبًا في الصدور ومكتوبًا آيات وسورًا ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله ﷺ وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف يملى من أصحاب رسول الله ﷺ والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر .

رزق الخليفة:

كان أبو بكر رجلاً تاجرًا قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصلح أمور الناس للتجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولابد لعيالي ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يومًا بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذي فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم (بالتقريب ١٢٨ جنيها مصريًا) ولما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لا أصيب من هذا المال شيئًا وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا

للمسلمين بما أصبت من أموالهم ، فدفع ذلك إلىٰ عمر فقال عمر : لقد أتعب من بعده .

فمن هذا يفهم أن المبدأ الذي اختطه أبو بكر هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة ، وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال ، والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ فيه شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده إلىٰ بيت المال .

أرزاق الجند:

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان ، وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغير ما ينفله رئيس الجند للممتازين وكان أبو بكر يسوي في العطاء لا يفضل أحداً علىٰ أحد .

أرزاق العمال:

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطي العمال أرزاقهم ويوزع ما بقي علىٰ من عينوا في الكتاب[1] لمصارف الزكاة .

وفاة أبي بكر:

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادىٰ الآخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله ﷺ يميل عنه قليلاً إلىٰ الجهة الشرقية .

---

(١) في قوله عز وجل : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ [التوبة : ٦٠] .

المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر - ترجمته - أول خطاب له - الفتوح في بلاد الفرس - بدء القادسية

٢ - عمر بن الخطاب

كيف انتخب:

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد؛ وكانوا يحسون دائمًا بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتشر عقد نظامهم وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبدالرحمن بن عوف وقال أخبرني عن عمر فقال يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئًا، قال: نعم، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: يا أبا عبدالله أخبرني عن عمر قال: أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبدالله قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبدالله لا تذكر مما ذكرت لك شيئًا قال: أفعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئًا ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم.

ولما تمّ له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد» ثم أغمي عليه فكتب عثمان

«فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً» ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ عليّ فقرأ عليه فكبر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري: ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا: سمعنا وأطعنا.

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ هـ ١٣ أغسطس سنة ٦٣٤م.

ترجمة عمر:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنه ٢٧ سنة ولما دعي إلى الإسلام لم يكن في بدء أمر مقتنعا بصحة الرسالة فحارب الإسلام حربًا شديدًا حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب إلى رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خفية أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر

مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقًا لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله ﷺ وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها، ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعًا للنزاع في أمر الخليفة وخوفًا أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبته أبي بكر الأناة في الأمور وكثيراً غيرها.

أول خطاب له:

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه «**إنما مثل المؤمن كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق**» والجمل الأنف هو الجمل الذليل المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير له أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسمًا فقال: أما أنا فوربّ الكعبة لأحملنكم على الطريق، ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه. والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال.

* * *

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس:

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعًا لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحدًا أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له: استمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به إني لأرجو أن أموت من يومي هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني أنيٌّ[1] عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطرمت المدينة نارًا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم؛ ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى، وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءني أن أؤمر خالدًا على العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما في أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال: أيها الناس لا يعظمنّ عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله

(١) أنيٌّ: يعني بطيء.

ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء[١] المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال ﴿ليظهره على الدين كله﴾ والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين ـ فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأقر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين فإنها الحرب؛ والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف فسار أبو عبيد بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة ـ كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزر ميدخت ملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاما للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد.

كان أول ما صنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسى من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام في النمارق[٢] لما رأى ذلك المثنى ضمّ إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلاً ثم سار إلى النمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء؛ فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال: نعم، قال: فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد ما فعل الربعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ما تروني فاعلاً معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزم كلهم.

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر[٣] لاجئين إلى نرسى فاجتمع إليه الجند

---

(١) الطراء: الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد. (المؤلف).

(٢) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق. (المؤلف).

(٣) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحصر الحجاج واسطًا خسرو سابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفيا ومنسان ودست ميسان. (المؤلف).

الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسى وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر؛ وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسالمهم وجاءوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قومًا من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشًا آخر عظيمًا يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر مترًا من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة(١) موضع البرج والعاقول فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفي آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمى المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم.

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال: اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقبل لكنا له فئة وحصل في هذه الواقعة غلطتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه عن العبور فلم ينته والذي زاد تلك الغلطة تأثيرًا ما فعله ذلك الرجل الأحمق عبدالله بن مرثد الثقفي من قطعه الجسر عند ما رأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن

---

(١) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة. (المؤلف).

آخرهم.

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير بن عبدالله البجلي في قومه من بني بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا إليه حتى يقابلوه على البويب[1] وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعًا أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر المثنى بالإفطار فأفطروا وكانت تعبية الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلاً يستوفز ويستقل من الصف فقال: ما بال هذا؟ قالوا: هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال: إني بذلك لجدير فاستقر ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولاً لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبرًا جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين منحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمائة ألف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإحراجه العدو قال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فإنها كانت مني زلة لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب[2] بعد أن عقد لهم جسراً.

---

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات. (المؤلف).

(٢) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا. (المؤلف).

وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرىٰ التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتىٰ سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب.

وأقام المثنىٰ بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبث السرايا للإغارة ومما يدل علىٰ تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنىٰ أرسل رجلين من بكر ابن وائل في جند فأغاروا علىٰ صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتىٰ رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يومًا من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قومًا من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفئوا راجعين إلىٰ المثنىٰ وقد غرقوهم.

كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين إلىٰ عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك علىٰ وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتىٰ قدما علىٰ المثنىٰ

أمر القادسية[1] :

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلىٰ أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب، ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب علىٰ تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمستناقان في أمر سلطانهما أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتىٰ وهنتم أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وأنه لم يبلغ من خطركما[2] أن تُقركُما فارس علىٰ هذا الرأي وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأىٰ الرجلان أن كلام القوم

---

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخًا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي علىٰ جادة الكوفة. (المؤلف).

(٢) من خطركما: أي من عظيم شأنكما.

حتى فبحثا في كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأي وجدا رجلاً يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن إحدى وعشرين سنة فملكه الفرس، واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته وحينئذ سمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جند الحيرة والأنبار والمسالح والأبلة، بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج: المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار[1] ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق في المياه التي تلي حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذافار ونزل الناس بالجل[2] وشراف[3] إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضًا إن كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣ .

أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣ لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ والعَجَلَ العَجَلَ وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب، فأما القبائل التي طرفها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق، وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المثنى فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار[4] فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن ابن عوف وكان عثمان يدعى في إمارة عمر رديفًا والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر: ما نريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه

---

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط. (المؤلف).

(٢) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينها وبين الفرعا ١٦٠ ميلاً. (المؤلف).

(٣) بين واقصة والفرعاء ومن شراف إلى دواقصة ميلان. (المؤلف).

(٤) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق. (المؤلف).

فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعًا على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ويقيم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح وإلا عاد رجلاً وندب جندًا آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى علي وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم: إن الله قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانًا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعًا لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعًا لهم أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد عليا وطلحة) وهذا الخطاب يبين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشورى وبوضع الأساس لذلك النظام، ثم أجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأي أخيرًا على تولية القائد العظيم سعد بن أبي وقاص الزهري وكان في ذلك الجيش حدّ الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيسًا ولا ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم.

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية ـ المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال: إذا انتهيت إلىٰ زرود[1] فانزل بها فسار حتىٰ إذا وصل إلىٰ زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بني تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر.

وفي ذلك الوقت مات المثنىٰ بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلىٰ سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس علىٰ حدود أرضهم علىٰ أدنىٰ حجر من أرض العرب وأدنىٰ مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرىٰ فاءوا إلىٰ فيئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ علىٰ أرضهم إلىٰ أن يرد الله الكرة لهم.

ثم سار سعد من زرود حتىٰ أتىٰ شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر علىٰ أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلىٰ أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر به فقدر الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العراف فعرف علىٰ كل عشرة رجلاً وأمر علىٰ الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر علىٰ الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام وولىٰ الحرب رجالاً فولىٰ علىٰ مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبية يلون الأمير، ويليهم أمراء الأعشار، ثم أصحاب الرايات، ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا علىٰ تعبية وبإذن عمر وهذا كتابه الذي أمره فيه بمبارحة شراف.

---

(١) رمال من الثعلبية والخزيمية علىٰ طريق الحاج إلىٰ الكوفة. (المؤلف).

أما بعد:

فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلاً كئوداً لبحوره وفيوضه ودآدئه[1] إلا أن توفقوا غيضاً من فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهيت إلى القادسية ـ والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة.

وكتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة.

ثم جاء كتاب آخر يقول فيه «واكتب إليّ أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها واجعلني من أمركم على الجلية» فكتب إليه سعد

(١) الدآدئ ما اتسع من التلاع وهي مسايل الماء. (المؤلف).

بصفة البلدان القادسية بين الخندق[1] والعتيق وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح[2] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر ؛ وأما الآخر فعلى شاطيء النهر يدعى الحضوض[3] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[4] والحيرة وأن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لأهل فارس قد خفوا لها واستعدوا لنا وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاء مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر في عافية - فكتب إليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالأمانة قوله له إني قد ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم وأطرحوا الشك وآثروا النقية عليه ، فإن لاعب أحد منكم أحدًا من العجم بأمان أو قرفة بإشارة أو لسان كان لا يدرى الأعجمي ما كلمه به وكان عندهم أمانًا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك ، الوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيئًا على المسلمين وسببًا لتوهينهم .

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي

---

(١) خندق سابور في برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفًا من شرهم وأوله من هيت يشق طف البادية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعًا لأهل البادية من السوار . (المؤلف) .

(٢) ضيق . (المؤلف) .

(٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية . (المؤلف) .

(٤) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس شرقي الفرات وغربيه بساتين . (المؤلف) .

يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قومًا عليهم نجار ولهم آراء ونفرًا لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه: سلهم ما جاء بهم وما دعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ إرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك: ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسَّن الحسنَ وقبح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قتلناكم فقال يزدجرد: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم لا تغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدي فقال: أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف وإنما يكرم الأشراف الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبني لأكون الذي أبلغك ويشهدون على ذلك أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فترى ذلك طعامنا وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ولا نلبس الأرض ولا نلبس إلا ما

غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلاً معروفًا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئًا إلا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإليّ يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال كسرى: أتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت إلا من كلمني ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم ثم قال: من أشرفكم؟ فقال عاصم بن عمرو: أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعدًا وبشروه بالظفر متفائلين.

فصل رستم من المدائن في تعبية كبرى وعدد جنده ١٢٠ ألف عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قومًا أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربًا لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم فعلمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة.

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فكر ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلاً بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقيمًا بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمي بالرقاع فيها الأمر والنهي إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجنب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبدالله الأسدي وهو يقول:

قــد علمت واردة المسـائح ذات اللبـان والبنان الواضح
أني صمـام البطل المشايح وفـارج الأمـر المهمّ الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعينه السبب مثلي على مثلك يغريه العقب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببني أسد وكان لهم في ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الأسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم إلا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها فنفس عن بني أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم إرماث .

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالإبل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني ما لقيت جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح .

وفي اليوم الثالث نقلت القتلىٰ والجرحىٰ ثم اصطدمت الجنود علىٰ حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها في الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما في عيني الفيل ونفض رأسه فطرح سائسه وولي مشفره فنفحه أحدهما بالسيف فرمىٰ به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولىٰ فوثب في العتيق فتبق فتبعته الفيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوىٰ المسلمين وما زال القتال مشتدًا حتىٰ جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأىٰ العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله وما زال القتال مشتدًا حتىٰ أصبحوا والناس حسرىٰ لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم: إن الديرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتىٰ انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة إلىٰ سرادق رستم فلما رأىٰ ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتىٰ قبض عليه وقتله وصعد علىٰ سريره ثم نادىٰ قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهي درفش كابيان، ثم تتبعوا بقية المنهزمين حتىٰ أجلوهم إلىٰ ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمىٰ يوم عماس وليلته تسمىٰ ليلة الهرير ولم يمر علىٰ المسلمين موقعة أشدّ منها هولاً لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفًا.

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلىٰ عمر هذا الكتاب: (أما بعد فإن الله نصرنا علىٰ أهل فارس ومنحهم سنن من كان من قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلىٰ المسلمين واتبعهم المسلمون علىٰ الأنهار وعلىٰ طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ

وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دوي النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضىٰ منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم) .

كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسمًا أخبارهم من حين يصبح إلىٰ انتصاف النهار فيرجع إلىٰ أهله ومنزله وفي اليوم الذي ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين؟ فأخبره فقال: يا عبدالله حدثني قال: هزم الله العدوّ وعمر يجري وراءه ويستخبره والآخر يسير علىٰ ناقته ولا يعرفه حتىٰ دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل: فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين؟ وعمر يقول: لا عليك يا أخي فقرئ كتاب الفتح علىٰ الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقوامًا من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم علىٰ عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادّعىٰ أهل السواد أن فارسًا أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض) .

ثم كتاب آخر يقول فيه (إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعىٰ أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإنا في أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا علىٰ أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وإن من ادعىٰ فصدق أو وفىٰ فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة، وإن شاءوا تموا علىٰ منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول فيه:

(أما بعد: فإن الله جلّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين العدل في السيرة والذكر، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء، وإن رؤى لينا فهو أقوىٰ وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور، وإن رؤى شديدًا فهو أنكش للكفر فمن تم علىٰ عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعىٰ أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم وأبلغوهم مأمنهم) وكتب جواب الكتاب الثاني: (أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعىٰ ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم، وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوهم إلىٰ أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم).

فلما عادت كتب عمر عرضوا علىٰ من يليهم ممن جلا وتنحىٰ عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعىٰ الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرىٰ ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلىٰ واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فيئًا لمن أفاء الله عليه فهي والصوافي الأولىٰ ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرىٰ وكان خراج كسرىٰ علىٰ رءوس الرجال علىٰ ما في أيديهم من الحصة والأموال - ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرىٰ ومن صوب معهم لأنه كان متفرقًا في السواد فكان يليه لأهل الفيء من وثقوا به وترضوا عليه.

كان عمر يتخوف أن يؤتىٰ المسلمون من جهة الأبلة لأنها لم تكن فتحت بعد

فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلىٰ الأبلة لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتىٰ أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة، ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبلة وهي مرفأ فارس علىٰ خليج عمان الموصل إلىٰ بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزًا حربيًا عظيمًا تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة.

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم علىٰ المسير إلىٰ قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم علىٰ شاطيء العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذي قار وتلك الأمواه حين أمروا بالمسير في جمادىٰ إلىٰ القادسية وكان كلامًا أبدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادىٰ ورجب شيء

العجب كل العجب بين جمادى ورجب
أمر قضاه قد وجب يخبره من قد شجب

تحت غبار ولجب

ثم إن سعدًا ارتحل وكان علىٰ مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرسانًا مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حربًا غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل علىٰ الفرزان فساروا إليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلىٰ نهاوند وصعد الباقون إلىٰ المدائن وقطعوا الجسر.

فأقام سعد ببابل أيامًا ثم سير المقدمة مع زهرة حتىٰ وصل بهرسير وهي المدائن الدنيا علىٰ شاطئ دجلة الغربي وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد علىٰ بهرسير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية علىٰ أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت إلىٰ المدائن القصوىٰ الشرقية فنزل سعد ببهرسير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد علىٰ مخاضة يعبرون منها إلىٰ الجهة الشرقية لأنه لم يكن مراكب

يعبر عليه الناس فإن الفرس كانوا قد ضموها إلى الشاطئ الثاني وكان سعد أعد فصيلة تحمي الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضًا والذي جعل سعدًا يسرع بذلك خوفه أن يزدجرد ينقل كل ما في المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هاربًا على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة .

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول ﴿كَمْ تَرَكُوا من جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وصلى فيها صلاة الفتح وجعله مسجدًا وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ، ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئًا كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثني عشر ألفًا وكلهم كان فارسًا ومعهم من النجائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك ، وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعًا في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المقبلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، ولما ورد الخمس على عمر قسمه على مستحقيه ، ثم قال : أشيروا علي في هذا القطف ، فأجمع ملؤهم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك فر رأيك إلا ما كان من علي فإنه قال : يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم .

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدًا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول على ما سقت دجلة والثاني على ما سقى الفرات .

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز
غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء:

لما انتهى فل الفرس إلى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب وإلى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبدًا وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإن كان لنا فهو الذي نريد وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذرًا فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب إلا طرقهم فأرسل سعد بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح إليهم جيشًا أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثني عشر ألفًا حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم، ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حربًا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصدًا الري فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطًا لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأي عمر في ذلك الوقت

أن يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدًا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد وإني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال.

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتب إليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين.

وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبدالله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يومًا تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفًا في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا إليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم: (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم، فتبادروا إلى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم.

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح

ماسبذان[١] فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء[٢] يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هيت[٣] وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء.

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال.

تمصير الكوفة:

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيرًا فقال عمر (والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددهم وكفا ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة (٧ يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جندًا ممن رضي الإقامة بها؛ وكان عمر يريد أن يقيموا

---

(١) كورة بها عدة مدن: منها أربوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همذان. (المؤلف).

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات. (المؤلف).

(٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية. (المؤلف).

معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتًا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن وجعل على بناء المدينة أبا الهياج بن مالك الأسدي وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعًا وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبعة أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعًا.

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بحياله دارًا بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذي بناه له فارسي كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبئ عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها.

وفي هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وإن نزلها المسلمون سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيه.

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان[1] وماسبذان وقرقيساء والموصل[2] وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغرًا له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين.

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة.

---

(١) في أواخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة. (المؤلف).

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن الإسلامية الكبرى. (المؤلف).

فتح الجزيرة[1] :

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداها يقودها سهيل بن عدي لفتح الرقة، والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين، والثالثة يقودها عقبة ابن الوليد لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن ذلك يكسر شوكة الروم الذين ساروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان في ذلك تخفيفًا على جنود الشام.

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية.

أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم.

فتح الأهواز[2] :

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جندًا فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيري فهزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان.

---

(١) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار ووانخابور وعاردين وآمدوميا فارقين والموصل وغير ذلك. (المؤلف).

(٢) مجموع كور عدها ياقوت عشرًا وهي سوق الأهواز ورامهرمز وأيذج وعسكر مكرم وتستر وجندي سابور وسوس وسرق ونهرتيري ومناذر. (المؤلف).

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومهرجان قذق [١] ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيري مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين ؛ ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف في حدود الأرضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الأهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل إليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف ابن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندي لمصدق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أن ظلمت الذمة ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك؟ فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم إذاً .

انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونًا وناصراً .

غزو فارس من البحرين:

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئًا في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين إلى فارس

---

(١) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق إلى همذان في تلك الجبال . (المؤلف) .

فتسرعوا إلىٰ ذلك وفرقهم أجنادًا فحملهم في البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازيًا.

عبرت تلك الجنود فخرجوا في اصطخر(١) وبإزائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأىٰ المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلىٰ البحرين فوجدوا شهرك الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا.

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه علىٰ العلاء وأرسل إليه يعزله وأمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه(٢) إليه بتأمير سعد عليه وقال له: الحقْ بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد وكتب عمر إلىٰ عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جندًا لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوي النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفًا وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتىٰ وافوا شهرك وهو آخذ علىٰ جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه وخلصوا إخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها ثابتة البصرة وكانوا فضل ثوابت أمصار ثم انكفئوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين عائدين إلىٰ بلادهم من طريق البصرة.

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضىٰ حجه استعفاه فأبىٰ أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلىٰ عمله فانصرف فمات في بطن نخلة فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائرًا لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنىٰ عليه بفضله وولىٰ عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتَح سنة ١٨هـ.

---

(١) مدينة كبيرة لفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتىٰ تحول أردشير إلىٰ جور. (المؤلف).

(٢) الوجوه: جمع وجه بمعنىٰ الجهة.

وفي «الغريب» لأبي عبيد (١/ ٩٣): «في حديثه عليه السلام حين قال لعمرو بن العاص... إني أرسلت إليك لأبعثك في وجه يسلمك الله فيه..».

فتح رامهرمز والسوس وتستر:

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس[١] وهو بمروف كتب إليهم يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم علىٰ رضاهم بغلبة العرب علىٰ سوادهم فتحرك من مكاتباته أهل فارس والأهواز وتعاقدوا وتواثقوا علىٰ النصر فكتب أمراء الثغور إلىٰ عمر فكتب إلىٰ سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلىٰ الأهواز جندًا كثيفًا يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري وكان ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جندًا إلىٰ الأهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معًا أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتىٰ إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز وألحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلىٰ تستر وهناك توافقت جنود المصرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل في الحصار جماعة من ذوي النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفًا كانت الحرب فيها سجالاً وفي آخر زحف هزمت الفرس حتىٰ دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا علىٰ ثغرة فيها منها تدخل المياه إلىٰ البلد فنهدوا إلىٰ ذلك المكان ومنه هجموا علىٰ المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلىٰ القلعة ولما رأىٰ شدة الأمر عليه نادىٰ متبعيه وقال أضع يدي في أيديكم علىٰ حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فملك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لأخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفدًا إلىٰ عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلىٰ المدينة دخلوا علىٰ عمر وهو في المسجد نائم ودرته معلقة في يده فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا فقال أين حرسه وحجابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا

---

(١) فارس اسم لولاية وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس:

١ـ اصطخر ٢ـ أردشير
٣ـ دار أبجرد ٤ـ سابور
٥ـ قباد خزة. (المؤلف).

حاجب قال: فينبغي أن يكون نبيًا قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له: هذا ملك الأهواز قال له عمر: كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد أخرى فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتي به في قدح غليظ فقال لو مت عطشًا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا فأتي به في إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر إني قاتلك قال قد أمنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين أمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم؛ فأسلم ففرض له في العطاء على ألفين وأنزله المدينة.

ثم قال عمر للوفد: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلى وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وأن ملك فارس حي بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح.

فتح نهاوند[١] :

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل[٢] جنوبي همذان فكتب عمر إلى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعًا عظيمًا متحصنًا في حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأي في الحروب ممن معه وقال لهم: قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشاءوا وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه فما الرأي؟ فتكلم عمرو بن نبي وكان أكبر الناس يومئذ سنًّا وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدي فقال أرى أن تبعث خيلاً تحدق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطرادا فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم إنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب، فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربي المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت

---

(١) مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخًا وهي أعتق مدينة في الجبل. (المؤلف).

(٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمدان والدينور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت: وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط. (المؤلف).

فصائل عليها القعقاع الفل إلى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاءوهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان .

أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتووا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً .

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالألوية إلى أصحابها وهم :

(١) الأحنف بن قيس التميمي ووجه إلى خراسان .

(٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه إلى أردشير خرة وسابور .

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه إلى اصطخر .

(٤) سارية بن زنيم الكناني ووجه إلى فسا ودرابجرد .

(٥) سهيل بن عدي ووجه إلى كرمان .

(٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى سجستان .

(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتتح سنة ١٨هـ .

فتح أصبهان[١] :

سر عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جي والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبدالله وقال إما أن تحمل

(١) إقليم من نواحي الجبل كان قاعدته جيًا ثم صارت اليهودية . (المؤلف) .

عليّ وإما أن أحمل عليك فقال احمل فوقف له عبدالله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائمًا ثم استوى على الفرس عريًا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلاً كاملاً ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وادفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جي بالصلح إلا ثلاثين رجلاً منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدي.

فتح أذربيجان[١] :

بينا نعيم بن مقرن في همذان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج روذ بين همذان وقزوين فسار إليهم وقاتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة.

فتح الري[٢] :

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار إلى الري فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قولة وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن إلى قرمس فسار إليها وأخذها سلمًا ومن هناك كاتبه ملك

---

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة. (المؤلف).

(٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخًا، وإلى قزوين ٢٧ فرسخًا وكانت مدينة عظيمة جدًا ويقال في النسب إليها رازي. (المؤلف).

جــرجــان[١] بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان .

فتح الباب[٢] :

كـان قائد الجيش الذي وجه إلى البـاب سراقـة بن عـمـرو وعلى مـقـدمتـه عبدالرحمن بن ربيعة فلما أطال عبدالرحمن على الباب كاتبه ملكها شهر براز مستأمنًا ليأتيه فأمنه عبدالرحمن فجاءه الملك وقال له إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القح في شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم فقال عبدالرحمن : فوقي رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبدالرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولابد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحًا على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يومًا كاملاً فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوه أخذوا به - وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة .

---

(١) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان . (المؤلف) .

(٢) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهي ثغر عظيم . (المؤلف) .

فتح خراسان[1]:

كان يزدجرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقي من الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصغد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو الروذ حتى إذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر بمن معه في أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده.

ولما عبر يزدجر النهر أتته جنود مددا من ملوك الترك والصغد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقدوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا.

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس ولجبال اللان.

فتوح أهل البصرة:

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلي ثم فتح فسا ودارابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر.

وفتح سهيل بن عدي كرمان وفتح عاصم بن عمرو سجستان، وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران.

---

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التي دونها نهر جيحون.

ومما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعي فإن عمر ولاه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأىٰ شيئًا من حلية فقال: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئًا فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلىٰ أمير المؤمنين فإن له بردًا ومؤنة؛ قالوا: نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلىٰ عمر قال الرسول: فأتيت المدينة فإذا عمر يغدي الناس متكئًا علىٰ عصىٰ كما يصنع الراعي وهو يدور علىٰ القصاع فلما دفعت إليه قال: اجلس؛ فجلست في أدنىٰ الناس فإذا طعام فيه خشونة طعامي الذي معي أطيب منه فلما فرغ الناس قال: يا يرفأ ارفع قصاعك؛ ثم أدبر فاتبعه فدخل دارًا؛ ثم دخل حجرة، فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه، فإذا هو جالس علىٰ مسح؛ متكيء علىٰ وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ إلى بإحداهما فجلست عليها، وإذا بهو في صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم. غداءنا فأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق؛ فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا؛ فقالت: إني أسمع عندك حس رجل، قال نعم؛ ولا أراه من أهل البلد، قالت لو أردت أن أخرج إلىٰ الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته، وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته، قال: أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر، ثم قال: كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا، قال: فأكلت قليلاً وطعامي الذي معي أطيب منه وأكل فما رأيت أحدًا أحسن أكلا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه، ثم قال: اسقونا؛ فجاءوا بعس من سلت، فقال أعط الرجل، قال فشربت قليلاً، ثم أخذه فشرب حتىٰ قرع القدح جبهته، فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس، قال مرحبًا بسلمة بن قيس ورسوله؛ حدثني عن المهاجرين كيف هم؟

قلت: هم كما تحب من السلامة والظفر علىٰ عدوهم، قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها، قلت البقرة بكذا والشاة

بكذا، ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلمة، فلما نظر إلى فصوصها وثب، ثم جعل يده في خاصرته ثم قال: لا أشبع الله إذًا بطن عمر، ثم قال ما جئت به أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم؛ لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة.

قال: فارتحلت حتى أتيت سلمة، فقلت: ما بارك الله فيما اختصصتني به اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فاقرة فقسمه فيهم.

ولست في حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم الرجال نفسًا، ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شيء قد طابت به أنفسهم، ومع ذلك لم يرض إلا أن يردها عليهم فكيف لا تكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب وإلى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيًا بين أيدي المسلمين، فقد صار إليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في جميع المواقع التي زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون في أمره، كما كان يوصيهم خليفته دائمًا، وعرفوا بالعدل في حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة، وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق والمدنية في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم.

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

فهرست الجزء الأول
من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

مُحَاضَرَاتُ فِي تَارِيخِ الأُمَمِ الإِسْلَامِيَّة

الدولة الأموية

تأليف
الشَّيْخ مُحَمَّد الخُضَرِيّ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
حمدي حامد صبح

الجزء الثاني

دار ابن رجب

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٨٠٥٨ـ٢٠٠٥

I.S.B.N : ٩٧٧ـ٣٩٠ـ٠٥٩ـ٢

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢

المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨



المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح في بلاد الروم ـ فتح حمص ـ فتح بيت المقدس

الفتوح في بلاد الروم:

كانت واقعة اليرموك في أول خلافة عمر، في أثنائها جاء الخبر بموت أبي بكر واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت إمرته بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل[1] من أرض الأردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد، وهنا التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم إلى دمشق فكانت فحل في ذي القعدة سنة (١٣هـ) على ستة أشهر من خلافة عمر، ثم ساروا إلى دمشق[2] وخالد على المقدمة فحصروها ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعًا بهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شيء من أمر العدو عيونه زاكية وهو معنيٌّ بما يليه فاتخذ حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقًا فبلغه ذات ليلة أن الناس غافلون في فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع ابن عمرو وأمثاله وقال للجند: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا

---

(١) من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين. (المؤلف).

(٢) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية في عهد الدولة الأموية. (المؤلف).

الباب فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون، رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها والأوهاق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخل وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أو دنا من الباب حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الذي أراد عنوة أزر من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا: ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضًا وانتهابًا وهذا صلحًا وتسكينًا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحًا وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحًا وبعد أن تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالدًا معه ضنا به.

الوقعة بمرج الروم:

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم: توذر البطريق، وشنس، فوقف الجندان متقابلين وفي الصباح رأوا الأرض خلوًا من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالدًا أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج إليه محاربًا وبينا هما يتحاربان قدم خالد فأصاب الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد إلى دمشق وعاد خالد إلى أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جند شنس إلى حمص.

فتح حمص[١] :

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصبهم شيء تراجعوا إلى الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق.

ثم أرسل خالدًا إلى قنسرين نزل بالحاضر[٢] زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد، أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم.

ولما بلغ عمر ذلك قال: أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثنى بن حارثة: إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما.

ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم: لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية[٣] على يد معاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين[٤] على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غورًا وأنكاها فعلاً ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال

---

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق. (المؤلف).

(٢) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافًا من العرب. (المؤلف).

(٣) بلدة على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديمًا من أمهات المدن. (المؤلف).

(٤) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبريل (المؤلف).

أرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسيا فسارَّه بقتله فقال: اخرج فقم مكان كذا وكذا فإذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو فقال: قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعًا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرىٰ فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم يروه رددتهم إلىٰ مأمنهم وكنت علىٰ رأس أمرك فقال: نعم ودعا رجلاً فسارَّه وقال: اذهب إلىٰ فلان ورده إليَّ فرجع إليه الرجل وقال لعمرو: اذهب فجئ بأصحابك فخرج عمرو ورأىٰ أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال: خدعني الرجل هذا أدهىٰ الخلق[1] ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك حتىٰ كثرت القتلىٰ بينهم ثم إن أرطبون انهزم من الناس فأوىٰ إلىٰ إيليا ونزل عمرو أجنادين.

فتح بيت المقدس:

كانت إيلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدام الدين وكان المتولي لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولي علىٰ فلسطين وإيليا حاضرتها الكبرىٰ ولما طال علىٰ أهلها الحصار رغبوا في الصلح علىٰ شرط أن يكون المتولي لعقده عمر بن الخطاب فكتب إليه عمرو بذلك فسار إلىٰ الشام وهي أول خرجة خرجها وكتب إلىٰ أمراء الشام أن يستخلفوا علىٰ ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها، فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد علىٰ الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال: سرع ما لفتم عن رأيكم إياي تستقبلون في هذا الزي وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها علىٰ

---

(١) هذه الحكاية بعيدة التصديق وإلا كانت دليلاً علىٰ بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركًا جنده من غير راعٍ لهم خصوصًا إذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص. (المؤلف).

رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها بلامقة وإن علينا السلاح، قال: فنعم إذًا وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءته رسل أهل إيليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابًا هذا نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية)

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الأمان شخص إلى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القيامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك: أريد الصلاة، فقال له: صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفردًا فلما قضى صلاته قال للبترك: لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع

على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها، ثم قال: أرني موضعًا أبني فيه مسجدًا، فقال: على الصخرة التي كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردمًا كثيرًا فشرع في إزالته، وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد أن قسمها أقسامًا وجعل فلسطين ولايتين إحداهما الرملة والأخرى قصبتها إيلياء - ومما يزيد المسلم شرفًا تلك المعاملة الباهرة التي عامل بها سلفه مغلوبهم من الوفاء والعدل فإذا قارن ذلك بما أصيب به أهل إيلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين.

وفي سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والأنصار فسار حتى إذا نزل بسرغ[١] لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان بالشام طاعون، فقال عمر لابن عباس: اجمع إليَّ المهاجرين الأولين؛ قال: فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا فمنهم القائل: خرجت لوجه نريد فيه الله وما عنده ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك، ومنهم القائل: إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقوم عليه فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عني، ثم قال لابن عباس: اجمع مهاجرة الأنصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عني ثم قال: اجمع لي مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء فقال عمر: يا ابن عباس أصرخ في الناس فقل: إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فلما اجتمعوا قال: أيها الناس إني راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله قال: فرارًا من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أن رجلاً هبط واديًا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة؟! بقدر الله لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم

---

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام. (المؤلف).

خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبدالرحمن بن عوف وكان متخلفًا عن الناس لم يشهدهم بالأمس فلما أخبر الخبر قال: عندي من هذا علم قال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارًا منه لا يخرجنكم إلا ذلك**»[١] فقال عمر: فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم.

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم: أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة ابن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم: أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه في الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه.

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر في أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتى الشام فنظر في أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأموات ثم خطبهم خطبة قال فيها: (ألا وإني قد وليت عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاني الله من أمركم إلى أن قال: فمن علم علم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس: لو أمرت بلالاً فأذن فأمره فأذن فما بقي أحد كان أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره ﷺ ثم رجع عمر إلى المدينة، وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمي.

ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص في محاضراتنا أحببنا أن نرجئ تفاصيل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٢) من حديث عبد الرحمن بن عوف

فتحها إلى الوقت الذي نتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقًا .

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب في مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام وأديرت البلاد على مقتضى العدل الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين ، لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة .

ولما كانت حياة عمر ممتازة بما كان فيها مما جعل بعد أساسًا عظيمًا لكثير من المدنية الإسلامية أحببنا أن نورد عليكم منهاجملاً لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس ، متأسيًا في ذلك برسول الله ﷺ وسلفه أبي بكر الصديق .

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء ـ سيرة عمر في عماله ـ معاملة عمر للرعية
عفته عن مال المسلمين ـ ميله للاستشارة وقبول النصح
رأي عمر في الاجتماعات ـ وصفه وبيته

القضاء:

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحارث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضيًا بها (٧٥ سنة) لم يعطل فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولي الحجاج استعفاه فأعفاه، ومن طُرفه في القضاء أن عدي بن أرطاة دخل عليه فقال: إني رجل من أهل الشام قال: من مكان سحيق قال: تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال: وأردت أن أرحلها قال: الرجل أحق بأهله قال: وشرطت لها دارها قال: الشرط أملك قال: فاحكم بيننا، قال قد حكمت، وهو الذي قال حين تزوج امرأة من بني تميم ثم نقم عليها شيئًا فضربها:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشُلَّت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفي سنة ٨٧هـ.

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبي العاص السهمي حسبما جاء بكتاب القضاة الذين ولوا مصر فهو أول قاض قضى بها في الإسلام.

وولى أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة؛ ومن أعرف من ولاهم أبو موسى الأشعري ولما كان العهد الذي ولاه به مما يبين لنا شيئًا من نظام القضاء وأصوله،

أحببنا إيراده ودونكموه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس سلام عليك أما بعد : فإن القضاء فريضة[١] محكمة وسنة متبعة فافهم[٢] إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس[٣] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح[٤] جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أوحرّم حلالاً . لا يمنعك[٥] قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل : الفهم الفهم[٦] فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل[٧] لمن ادعى حقًّا غائبًا أمدًا ينتهي إليه فإن أحضر بينة

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضي بها وهي لا تعدو ما حده الله وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة . وما بينه رسول الله وسار عليه وهو ما أشار إليه بالسنة المتبعة . (المؤلف) .

(٢) يريد أن من يدلي بحجته مهما يكن مصيبًا بليغًا فإن كلامه لا ينفعه إذ لم يكن لكلامه نفاذ إلى قلب القاضي وذلك لا يكون إلا بالتنبيه لما يقال من الخصوم . (المؤلف) .

(٣) هذا أساس المساواة التي جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضي إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وإن نجا من مغبتها اليوم فإنه ليس بناج غدًا . (المؤلف) .

(٤) يكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لا قيمة له ؛ لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور . (المؤلف) .

(٥) يريد بذلك أن القاضي لا يتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به في قضيته فإذا ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا وإنما كان هذا مراده ؛ لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم في حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال : ذاك على ما قضينا وهذه على ما نقضي . (المؤلف) .

(٦) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس : وهو أن يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من أجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضي أن يكون عارفًا بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهدًا لا مقلدًا غيره في تفسير أو تأويل . (المؤلف) .

(٧) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذي ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه . (المؤلف) .

وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون[١] عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجربًا عليه شهادة زور أو ظنينًا في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان وإياك[٢] والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس وما تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساسًا لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك .

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم إلا سهلاً مجردًا عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعني أنه مستقل تمام الاستقلال في قضائه لا يمنعه شيء أن يحضر إلى مجلسه الأمير فمن دونه .

سيرة عمر في عماله:

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الأمراء فكان الوالي في نظره فردًا من الأفراد يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس فكان

---

(١) يشير بذلك إلى أصل عام وهو أن الأصل في الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء .

الأول : الجلد في الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لأن الله يقول : ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا﴾ .

الثاني : المجرب عليه شهادة الزور .

الثالث : الظنين في الولاء أو النسب وهو الرجل يكون له موالٍ فيتولى غيرهم أو يكون لهم نسب في قبيلته فينتسب إلى غيرها وكان هذا جالبًا للعار ولعله يكون في زمننا كذلك . (المؤلف) .

(٢) يشير بذلك إلى ما يجب على القاضي من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حريته في الدفاع عن نفسه . (المؤلف) .

حب المساواة بين الناس لا يعدله شيء من أخلاقه إذا اشتكى العاملَ أصغرُ الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوي بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضي به الشريعة أو عزله .

وسُوَّاس الأمم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يرى ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يُقيد من عماله ولعل ذلك لما كان في عهده من الاضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لأن مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقر فلم يكن هناك ما يدعو إلى مراعاة هذه السياسة .

كان إذا بعث عاملاً على عمل يقول : «اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني» .

وخطب الناس يوم جمعة فقال : «اللهم أشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فَيْأَهم وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه لي» : وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : «إني لم أستعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمهروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ وأنا شريككم» .

وخطب مرة فقال : «أيها الناس إني والله ما أرسل عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه» .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء

المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه ؟ قال : «أي والذي نفس عمر بيده إذًا لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمهروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم» .

وكان للوصول إلى ما يريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم ، موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها وإذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت ، وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رءوس الأشهاد في موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أي إنسان .

وقد استحضر عمر إليه كثيرًا من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت إليه من بعض الأفراد فقد استحضر سعد بن أبي وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئًا .

واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الأثر الصالح في الفتوح الإسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه إليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلمه القليلة أن عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرًا فسلم ما في يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذي فرضه الله لمثلهم : وشكى إليه عمار بن ياسر وكان أميرًا على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم : إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة .

وقال قائل منهم : إنه لا يدري علام استعمل فاختبره عمر في ذلك اختبارًا يدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الإجابة في بعضه فعزله عنهم ثم

دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال: والله ما فرحت به حين بعثتني وقد ساءني حين عزلتني فقال: لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقًا به من عمر في كل أيامه إلا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح.

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله إلى كل شكوى ليحققها في البلد الذي حصلت فيه، وكان ذلك العمل موجهًا إلى محمد ابن مسلمة الذي كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلاً لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقًا سريًا وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علنًا وعلى ملأ من الأشهاد ولم يكن هناك محل للتأثير في أنفس الشهود؛ لأن يد عمر كانت قوية جدًا وكان لكل إنسان الحق أن يرفع إليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيرًا.

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل إلا قليلاً وربما وجد هذا العمل مجالاً للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من عماله من يستحق أن تقع به تلك العقوبة إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها.

لم يرَ عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة.

ولَّى عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي واتجرت فيه قال وما لك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال وكانت التجارة هي التكأة التي يتكئ عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعًا باتًا، وعلى الجملة فشدة

عمر علىٰ عماله رفهت الرعية .

معاملته للرعية:

علىٰ قدر ما كان عليه عمر من الشدة علىٰ عماله كانت رأفته ورقته علىٰ عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسئولية عظمىٰ فكان يقول لو أن جملا هلك ضياعًا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ، وقال هشام الكعبي : رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتىٰ ينزل قديدًا فنأتيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضًا حتىٰ توفي قال الحسن البصري : قال عمر : لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ ، وأما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلىٰ الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرىٰ يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) .

وروىٰ أسلم قال : خرجت مع عمر بن الخطاب إلىٰ حرة واقم حتىٰ إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال يا أسلم : إني أرىٰ هؤلاء ركبًا قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتىٰ دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة علىٰ النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) .

قالت المرأة : وعليك السلام ؛ فقال : أأدنو؟ قالت : أدن بخير أو دع ، فقال : ما بالكم؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت : الجوع ، قال : وأي شيء في هذا القدر؟ قالت : ماء أسكتهم به حتىٰ يناموا ، الله بيننا وبين عمر فقال : أي رحمك الله ما يدري عمر بكم؟ قالت : يتولىٰ أمورنا ويغفل عنا! فأقبل عليّ فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتىٰ أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال : احمله عليّ ، قلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله عليّ (مرتين أو ثلاثًا) كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك ، فقال

في آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة! لا أم لك، فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتىٰ انتهينا إليها فألقىٰ ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئًا وجعل يقول: ذري عليّ وأنا أحرّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلىٰ الدخان من خلال لحيته حتىٰ أنضج وأدم القدر وقال: ابغني شيئًا فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول: أطعميهم وأنا أسطح لك، فلم يزل حتىٰ شبعوا ثم خلىٰ عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول: جزاك الله خيراً إنك أولىٰ بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله، ثم تنحىٰ ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع، فجعلت أقول: إن لك لشأنا غير هذا؛ وهو لا يكلمني، حتىٰ رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله، ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتىٰ أرىٰ ما رأيت فيهم.

ومثل هذه الحوادث علىٰ صغرها تدل عن روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولي عليهم من الرعية.

خطب مرة فقال: أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعًا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفىٰ عمر مهمًّا محزنًا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده.

لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا درته وهي عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائمًا في يده أنىٰ سار وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة.

روىٰ الطبري[1] عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال: أمط الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق إلىٰ منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها علىٰ حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين: ما ذكرتها قال: وأنا ما نسيتها فعمر كان مؤدبًا حكيمًا ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة.

روىٰ[2] راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتىٰ بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتىٰ خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال: إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك والذي أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرىٰ منها بديلاً.

كانت الرعية مع هذا تهابه مهابة شديدة.

روىٰ أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا عبدالرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر ابن الخطاب فإنه قد أخشانا حتىٰ والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبدالرحمن بن عوف لعمر فقال: أوقد قالوا: ذلك والله لقد لنت لهم حتىٰ تخوفت الله في ذلك ولقد اشتددت عليهم حتىٰ خشيت الله، وايم الله لأنا أشد منهم فرقًا منهم مني.

عفته عن مال المسلمين:

كان يحبب عمر إلىٰ الناس عدله وتسويته ويزيده إليهم حبًّا عفته وأمانته فقد كان يرىٰ مال المسلمين مرتعًا وخيمًا لمن رتع فيه حتىٰ إنه كان يقتر علىٰ نفسه تقتيراً ربما وجد مساغًا لاعتراض قصار النظر.

(١) «تاريخ الطبري» (٢ / ٥٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢ / ٥٧١) وإسناده ضعيف.

كان عمر يرىٰ أنه لا ينبغي أن يأكل إلا بما يأكل منه أقل رعيته لا يتجاوز ذلك إلىٰ ما فرقه .

كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فإذا حلّ ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسدّد منه احتال له حتىٰ إذا أخذ عطاءه سدد منه ولما رأىٰ بعض الصحابة ما يعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا : لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه فقال عثمان : هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لا تخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال : من هؤلاء لأسوأنهم قالت لا سبيل إلىٰ علمهم قال : أنت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتنىٰ رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس قالت : ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال : فأيّ الطعام ناله عندك أرفع قالت : حرفًا من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال : فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه في الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال : يا حفصة فأبلغيهم أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقًا فمضىٰ الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضىٰ إليه ثم اتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقًا غير طريقهما لم يلقهما .

وكان يتحاشىٰ أن ينتفع أحد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق روىٰ مالك في الموطأ أنه خرج عبدالله وعبيدالله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلىٰ العراق فلما قفلا مرا علىٰ أبي موسىٰ الأشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال : لو أقدر لكما علىٰ أمر أنفعكما به ثم قال بلىٰ ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلىٰ أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعًا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة

فتؤديان رأس المال إلىٰ أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقالا : وددنا ذلك ففعل وكتب إلىٰ عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلىٰ عمر قال : أكل الجيش أسلفه قالا : لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما أديا المال وربحه فأما عبدالله فسكت وأما عبيدالله فقال ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر : أدياه فسكت عبدالله وراجعه عبيدالله فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضًا فأخذ عمر رأس المال ونصف وربحه وأخذ عبدالله وعبيدالله نصف ربح المال قالوا هو أول قراض في الإسلام .

ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسير إليه عمر الرسل مع البريد .

بعثت أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب إلىٰ ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلىٰ البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهىٰ به البريد إليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلىٰ بهم ركعتين وقال : إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورىٰ من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون : هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون : قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئًا فقال : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلىٰ بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها .

فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالاً للعدول عن الجادة .

وكان إذا صعد المنبر فنهىٰ الناس عن شيء جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلىٰ اللحم وأقسم بالله لا أجد

أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

ميله للاستشارة وقبوله للنصح:

كان عمر إذا نزل به الأمر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لا خير في أمر أبرم من غير شورىٰ وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به.

ومن قوله في ذلك يحق علىٰ المسلمين أن يكون أمرهم شورىٰ بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعًا لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به، من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعًا لهم فجعل أولىٰ الأمر منفذين لما رآه أولوا الرأي والناس تبع ما أخذ به الإمام من رأىٰ أولي الرأي.

وكثيرًا ما كان يرىٰ الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلىٰ رأيه، رأىٰ مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حدًّا لا يتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد قال الله تعالىٰ ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠] فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينون له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافًا عن القصد، قال مرة في خطبته: أيها الناس إن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوّموني، فقال له رجل من أخريات المسجد: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناك بسيوفنا، فسره ذلك.

وكان له خاصة من كبار أولى الرأي منهم العباس بن عبدالمطلب وابنه عبدالله وكان لا يكاد يفارقه في سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم.

رأي عمر في الاجتماعات:

كان عمر يميل إلىٰ أن تكون مجتمعات الناس عامة يهوىٰ إليها جميع الناس

علىٰ اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس، لأن ذلك يدعوهم إلىٰ أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة.

روىٰ ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش: بلغني أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معًا حتىٰ يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتىٰ تحوميت المجالس وايم الله إن هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأىٰ فلان قد قسموا الإسلام أقسامًا أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معًا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس.

وفي الحق إن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون إليهم مضيع كثيرًا لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيد فائدة كبرىٰ وهي نقل أقوالهم غير محرفة ولا مشوبة بما يطمس حقيقتها ثم إن كثرة المجالس تدعو بدون ريب إلىٰ كثرة الاختلاف في المسائل التي تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة في الدين والذي خافه عمر علىٰ الناس وعلىٰ من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة من أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلىٰ اختلاف الناس في الدين اختلافًا عظيمًا.

الوصف على الجملة:

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلىٰ القلوب فكان عفيفًا عن أموالهم عادلاً بينهم مسويًا بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيمًا يضع الشيء في موضعه يشتد حينًا ويلين حينًا حسبما توحي إليه الظروف التي هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم السير فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلىٰ خسف يلحقها من أي إنسان ولذلك نقول إن عمر أتعب من بعده فإن النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذي يفنىٰ في مصلحة رعيته ولا يرىٰ لنفسه من الحقوق إلا كما لأدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها.

العربي تستدعي سياسته حكمة عالية فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك وإن لنت معه ليكون رجلاً نافعًا لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون لم يجمعوا صفات عمر التي مجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على خليفة في أي زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول .

بيت عمر :

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش ؛ فولدت له عبدالله وعبدالرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين .

وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة ؛ فأولدها عبيدالله وقد فارقها في هدنة الحديبية .

وتزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في الهدنة .

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة .

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصمًا وهذه طلقها .

وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيدًا ورقية ومات عنها .

وتزوج لهية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبدالرحمن الأصغر .

وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمر .

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت : الأمر إليك فقالت أم كلثوم : لا حاجة لي فيه فقالت عائشة : ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت : نعم إنه خشن العيش شديد على النساء ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته فقال : أكفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين : بلغني خبر أعيذك بالله منه ، قال ما هو قال : خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر ، قال : نعم

أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك، قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال: أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله ﷺ.

وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابسًا ويخرج عابسًا.

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر - عثمان وكيف انتخب - ترجمته - أول قضيه نظر فيها كتبه إلى الأمصار - أول خطبة له - الفتوح في عهده

مقتل عمر:

ما كان يظن أن تنتهي حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس في مكنة إنسان أن يرضي الخلق كافة فإن عمر إذا كان قد أرضى العرب بما صنعه لهم وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوي السلطان عليهم؛ لأنه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم.

كان المسلمون يسْبون من أبناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون إلى الهرمزان ملك فارس الذي أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لا فضل له على واحد.

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيروز ويكنى بأبي لؤلؤة وهو غلام للمغيرة ابن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً في السوق لقيه ذلك الغلام فقال يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شعبة فإن عليّ خراجاً كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان في كل يوم قال عمر وإيش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال قد بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحًا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال فاعمل رحًا قال إن عشت لأعملن لك رحًا يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدني العبد آنفاً ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله التوراة قال عمر والله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة قال اللهم لا ولكن

أجد صفتك وحليتك وإنه قد فنئ أجلك وعمر لا يحس وجعًا ولا ألمًا فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقئ يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلئ صبيحتها (ولو صحت هذه الحكاية[1] وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يدًا في مقتل عمر أو أنه كان عالمًا بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين علئ عمر وربما يقال لو كان كذلك فماذا يدعو كعبًا إلئ إنباء عمر بهذا النبأ؛ والجواب علئ ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزًا عظيمًا فإنّ كثيرًا منهم يرون بعد ذلك أن توراته فيها علم كل شيء وأنه صادق في كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحئ إليه.

وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الأخبار الإسرائيلية التي لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئًا كثيرًا هو كذب محض؛ لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه).

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر إلئ صلاة الصبح وكان يوكل بالصفوف رجالاً يسوونها فإذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهنّ تحت سرته، وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن أبي البكير الليثي وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفي الناس عبدالرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادئ عبدالله بن عمر وقال اخرج فانظر من قتلني قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والأنصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول:

---

(١) هذه القصة أخرجها الطبري في «التاريخ» (٢ / ٥٥٩) بإسناد ضعيف: فيه عبدالعزيز بن أبي ثابت، قال البخاري: لا يكتب حديثه منكر الحديث.

فـواعـدني كـعب ثلاثًا أعـــدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب
ومـــا بي حـــذار الموت إني لميت ولكن حذار الذنـــب يتبعـــه الذنـــب

ثم دعي له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفي ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصىٰ بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلىٰ عليه صهيب حسب وصيته؛ وروي أن طعنه كان يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدىٰ وعشرين ليلة من متوفىٰ أبي بكر.

والصحيح الأول ومدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادىٰ الثانية سنة ١٣ إلىٰ ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه.

٣ـ عثمان بن عفان

كيف انتخب:

لما طعن عمر وأحس بالموت طلب إليه أن يعهد إلىٰ خليفة من بعده فتردد وقال إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يريد أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يريد رسول الله ﷺ) وقال لو كان أبو عبيدة حيًّا استخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولىٰ أبي حذيفة حيًّا استخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: إن سالمًا شديد الحب لله فقال له رجل أدلك علىٰ عبدالله بن عمر فقال قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي إن كان خيرًا فقد أصبنا منه وإن كان شرًا فشرعنا إلىٰ الله حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد ﷺ أما لقد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد.

ثم كرر عليه القول بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولي رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم علىٰ الحق وأشار إلىٰ عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حيًّا وميتًا عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبدالرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير بن عبيدالله فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوا واليًا فأحسنوا موازرته وأعينوه إن ائتمن أحدًا منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذي يتم فيه الانتخاب

وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائبًا) وأحضر عبدالله بن عمر ولا شيء له من الأمر وقم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما فإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبدالله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبدالله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون فقال عبدالرحمن بن عوف أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلي ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطني ميثاقًا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة فقال عبدالرحمن أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلوا المسلمين فأخذ منهم ميثاقًا وأعطاهم مثله وبذلك صار الأمر في عنق عبدالرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ

بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له خل ابني عبد مناف وهذا الأمر فقال الزبير نصيبي لعلي .

وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لي فأختار قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعليّ أحب إليّ أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا إسحاق إني خلعت نفسي منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إليّ لم أردها ثم قال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى علي فجاء فناجاه طويلاً ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى التج المسجد بأهله فقال : أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم فقال سعد يا عبدالرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبدالرحمن إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ودعى عليًّا فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال نعم فبايعه عبدالرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك علي تأخر وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الإثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ .

ترجمة عثمان:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله ﷺ وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيًا عفيفًا ولما بُعث رسول الله ﷺ كان من السابقين الأولين أسلم على يد

أبي بكر وزوّجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله ﷺ كل مشاهده ولكنه لم يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثم زوّجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله ﷺ وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى وكان له في جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً اشترى بئر رومة بماله ثم تصدّق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ ولما توفي عليه السلام كان لأبي بكر ثم لعمر أمينًا كاتبًا يستشار في مهام الأمور.

ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤م).

أول قضية نظر فيها:

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا في دمه فقد قال عبدالرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فانظروا بأي شيء قتل فجاءوا بالخنجر الذي ضرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التي وصفها عبدالرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيدالله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانيًا من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيدالله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف

وينظر في أمره فلما بويع عثمان جلس في المسجد ودعا بعبيدالله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والأنصار أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق فقال عليّ أرىٰ أن تقتله فقال بعض المهاجرين : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك علىٰ المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان : أنا وليهم قد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلا حسنًا لتلك المشكلة .

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار:

كتب عثمان إلىٰ أمراء الأمصار كتابًا عامًا هذه صورته : (أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء) .

وكتب إلىٰ أمراء الأجناد بالثغور : (أما بعد فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان علىٰ ملأ منا ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه) .

وكتب إلىٰ عمال الخراج : (أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلىٰ ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم) .

وكتب إلىٰ العامة من المسلمين بالأمصار : (أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلىٰ

الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فإن رسول الله ﷺ قال: «**الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا**» (١).

أول خطبة له:

وكان أول خطبة له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم أصبحتم أو أمسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا، بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال عز وجل: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦]).

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان:

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه:

(١) مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعي.

(٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبدالله الثقفي.

(٣) صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بني نوفل بن عبد مناف.

(٤) الجند وأميرها عبدالله بن أبي ربيعة.

(٥) البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي وهذه الخمس في الجزيرة العربية.

(٦) الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي.

---

(١) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٥٩١) بإسناد ضعيف.

(٧) البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسىٰ عبدالله بن قيس الأشعري وهاتان بالعراق.

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي.

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام.

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي.

الفتوح في عهد عثمان:

كانت مغازي أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالري وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامي في تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو وإعادة من شق العصا إلى الطاعة ففي عهد إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتىٰ رضيت بأن تؤدي ما كانت صولحت عليه وَسَيَّر سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة.

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان[1] سار إليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا علي والعبادلة أبناء عباس وعمر وعمرو بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتىٰ طلبوا الصلح.

وفي سنة ٣٢ أوغل عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر[2] حتىٰ وصل بلنجر وهي أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فأصيب عبدالرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون

---

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الري وقرمس والبحر وبلاد الديلم والجبل. (المؤلف).

(٢) هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند. (المؤلف).

فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل على ثغر الباب بعد عبدالرحمن أخوه سلمان .

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففي عهد إمارة عبدالله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيدالله بن معمر فسار إليهم عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفي عهد إمارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية .

وفي سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج إليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار إلى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان[١] ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار إلى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة .

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسَيَّر حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فصار حتى أتى تاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس[٢] .

وفي سنة ٣٨ فتح معاوية جزيرة قبرص وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما

---

(١) ولاية واسعة من نواحي خراسان وهي طخارستان العليا والسفلى .
فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخاً والسفلى غربي جيحون أيضاً إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا وأكبر مدينة بطخارستان : طالقان . (المؤلف) .

(٢) مدينة بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب . (المؤلف) .

يتمنىٰ غزو الروم في البحر إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرىٰ الغزو فيه تغريراً بالمسلمين.

كتب عمر إلىٰ عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه فكتب إليه عمرو: (إني رأيت خلقًا كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود علىٰ عود إن مال غرق وإن نجا برق) فلما قرأه عمر كتب إلىٰ معاوية (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا).

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال: لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه؛ ففعل، وسار إلىٰ قبرص وأمده من مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحًا علىٰ سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلىٰ الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس علىٰ المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلىٰ العدو عليهم.

وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعد لذلك أسطولاً جعل أميره عبدالله ابن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ولكنه خرج في يوم طليعة في قارب فانتهىٰ إلىٰ المرقىٰ من أرض الروم فنذر به فتكاثروا عليه وقاتلوه[1].

وأما في مصر؛ ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الإسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره إليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار إليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور الإسكندرية واستولىٰ علىٰ كثير من مراكب الأسطول وسَيَّر عمرو عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلىٰ أفريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس إلىٰ طنجة فسار ابن سعد واستولىٰ علىٰ كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهىٰ أمره معهم بالصلح علىٰ أن

(١) في «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٠١): فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح.

يدفعوا له ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار.

وفي عهد إمارة عبدالله بن سعد بلغه مجيء ملك الروم بأسطول عظيم فيه ستمائة مركب فسار إليه ابن سعد بأسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر بأسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها «ذات الصواري» وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم ففي عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبدالله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التي كان يشن الروم عليها الإغارة من وقت لآخر.

المحاضرة السابعة والعشرون

الأحوال الداخلية والفتن

الأحوال الداخلية:

لابد أن نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين في الأمصار المختلفة خصوصًا البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرىٰ قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث.

رویٰ الطبري[1] عن الحسن البصري قال: كان عمر بن الخطاب قد حجر علىٰ أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقال: ألا إني سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعًا ثم ثنيًّا ثم رباعيًّا ثم سديسًا ثم بازلاً ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد نزل ألا وإن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أو يتهافتوا إلىٰ النار.

فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغمومًا في الناس وصاروا أوزاعًا إليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا: يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل علىٰ الإسلام وأول فتنة كانت في العامة وقال الشعبي: لم يمت عمر حتىٰ ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال: إن أخوف ما أخاف علىٰ هذه الأمة انتشاركم في البلاد فإن الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢ / ٦٧٩).

فيقول قد كان لك غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر.

وروى الطبري[1] بسنده قال: لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس.

وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الأسرة التي لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يومًا ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقًا في الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة.

من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشئومة التي جنى المسلمون مرها أحقابًا طويلة وهم إلى الآن في آلام شديدة من جرائها.

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم إذ أن دواعي الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه.

كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوي الرءوس النابغة فلا يجدون سبيلاً إلى نزاع أو شر إلى ما وقر في أنفسهم من الألفة الإسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين الرعية وظل العدل وارف فوق رءوسها.

ولى عثمانُ سعدَ بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالاً لأجل ولما حلّ الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢ / ٦٧٩).

بأناس من الرعية على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضًا: يلوم هؤلاء سعدًا ويلوم هؤلاء عبد الله بن مسعود.

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدًا عن إمارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محببًا إلى الناس ورفيقًا بهم.

حدث في زمنه أن شبابًا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشبيل بن أبي الأزدي فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به وكان سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائي وكان أبو زبيد نصرانيًّا ثم أسلم وكان معروفًا بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم: هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر؟ فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود: من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال: أيرضى من مثلك بأن يجيب قومًا موتورين بما أجبت أي شيء أستتر به إنما يقال هذا للغريب، فتلاحيا وافترقا على تغاضب.

ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب إلى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال فأخبروه الخبر فقال: من يشهد؟ فقالوا: فلان وفلان فسألهما: كيف رأيتما؟ قالا: كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان: ما يقيء الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وأفتى عليّ بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولى على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى

الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم: والله إني قد بعثت إليكم وأنا كاره ولكني لم أجد بدًا إذ أمرت أن أأتمر ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها والله لأضربن وجهها أو تعييني وإني لرائد نفسي اليوم ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان: (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وطلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والمقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها.

فكتب إليه عثمان: (أما بعد، ففضل أهل السابقة والمقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم إلا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء.

واحفظ لكلٍّ منزلته وأعطهم جميعًا بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد إلى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام والقادسية فقال لهم: أنتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبئ عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمستمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبسًا شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم.

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان في بعض الأحيان يجلس للناس جلوسًا عامًا ولا يحجب عن مجلسه بأحد فبينما هو ذات يوم في مجلس العامة ولم يتحدثوا إذ قال قائل: ما أجود طلحة بن عبيد الله فقال سعيد بن العاص: إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جوادًا والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشًا رغدًا فقال شاب: حدث والله لوددت أن هذا المطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة) فقال الناس لذلك

الشاب: فض الله فاك تتمنى له سوادًا ثم ثار إليه جماعة من سفهائهم فيهم الأشتر النخعي وعمير بن ضابئ ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما في مجلس سعيد، وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولا همَّ لهم إلا الوقيعة في سعيد ومن ولاه فكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج هؤلاء النفر من الكوفة فأمر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية ابن أبي سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرمهم ثم قال لهم ذات يوم: إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفًا وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا وأن قريشًا لو لم تكن عُدْتُم أذلة كما كنتم إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنة فلا تسدوا عني جُنتكم وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المئونة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم فردوا عليه ردًا دل على تمكن الفتنة في رءوسهم فرد عليهم معاوية ردًا شديدًا وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة: مه إن هذه ليست بأرض الكوفة والله إن رأى أهل الشام ما تصنعون وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود بقاءهم في الشام فأمره عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأدبهم عبد الرحمن تأديبًا شديدًا حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم في الوقيعة بعثمان وعماله وهؤلاء هم رءوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان العبدي وجنوب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي.

وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليبلغه أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا: والله لا يدخلها علينا واليًا أبدًا ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولىٰ عليهم أبا موسىٰ الأشعري حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاءُ أهلَ الحلم وضعف سلطان الأمراء. وقوة الطاعة لم يبق لها في نفوس القوم من أثر.

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيرًا من ذلك ففي سنة ٢٩ هاج أهلها علىٰ أبي موسىٰ الأشعري عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عنهم وولىٰ بدله عبد الله بن عامر وكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين ولثلاث سنين من إمارته بلغه أن في عبد القيس رجلاً نازلاً علىٰ حكيم بن جبلة وكان حكيم رجلاً لصًّا إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعىٰ في أرض فارس فيُغير علىٰ أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما يشاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلىٰ عثمان فكتب إلىٰ ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتىٰ تأنسوا منه رشدًا فكان لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ذلك الرجل المسمىٰ عبد الله بن سبأ ويكنىٰ بابن السوداء نزل عليه وكان يلقي إلىٰ الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم: عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم: عجبًا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يُقْصَون عن أمركم إلىٰ ما يماثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه علىٰ سائر الأنبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته فبلغ شيء من خبره عبد الله ابن عامر فأحضره وسأله: من أنت؟ فقال: رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك فقال: ما يبلغني ذلك فاخرج عني فخرج حتىٰ أتىٰ الكوفة فأخرج منها فسار إلىٰ مصر وهناك وجد مهده بعد أن نفث ما نفث

بالعراق .

أما الأمر في مصر فقد كان أشد مما في العراق فإن ابن سبأ لما جاءها ألقىٰ إلىٰ الناس تعاليمه ومن ضمنها : أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصي وكان عليّ وصي محمد ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلىٰ خاتم الأوصياء ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب عليٌّ وصيه وتناول أمر الأمة ثم قال بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن علىٰ أميركم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلىٰ هذا الأمر ، فبث دعاته وكَاتَبَ من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلىٰ ما عليه رأيهم وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون إلىٰ الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلىٰ مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتىٰ تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء الناس إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا : يا أمير المؤمنين يأتيك عن الناس الذي يأتينا .

فقال : لا والله ماجاءني إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث إلىٰ الأمصار من يستقي أخبارها ويعلم علم ما فيها فندب لذلك رجالاً سيرهم إلىٰ الأمصار فسير محمد بن مسلمة إلىٰ الكوفة ، وأسامة بن زيد إلىٰ البصرة ؛ وعبد الله بن عمر إلىٰ الشام ، وعمار بن ياسر إلىٰ مصر وفرق رجالاً سواهم في البلاد الأخرىٰ فأقبل جميعهم ، إلا عماراً ، فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئًا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، أما عمار فقد ورد إلىٰ عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه منهم عبدالله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر وكان من أشد المؤلبين علىٰ عثمان بمصر رجلان :

محمد بن أبي حذيفة وكان[1] الذي دعاه إلىٰ ذلك أنه كان يتيمًا في حجر عثمان، فكان عثمان والي أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولي فقال: يا بني لو كنت رضيًا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال: فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني قال: اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع إلىٰ مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية.

والثاني: محمد بن أبي بكر وقد كان من الإسلام بالمحل الذي هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا إلىٰ هذا فصار كما يقول سالم بن عبدالله بن عمر مذممًا بعد أن كان محمداً وإنما مال إليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقداً[2] علىٰ عثمان، فقد قال سعيد بن المسيب: إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام؛ فضربهما عثمان وكان قذفًا.

أما الحال في الشام، فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط إلا أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشنيع علىٰ عثمان وعماله وذلك أن ابن السوداء لما أتىٰ الشام جاء أبا ذر؛ فقال: يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلىٰ أن تسمي مال المسلمين مال الله قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال: فلا تقله قال: فإني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتىٰ ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء: من أنت؟ أظنك يهوديًا، ثم أتىٰ عبادة بن الصامت فتعلق به وأتىٰ به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر ثم قام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٨١)، و«تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٠٣).

(٢) هذا الوصف من الأخلاق الدنية لا يجوز إطلاقه علىٰ رجل ممن قال الله فيهم ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه..﴾ الآية، والحقد: هو الغل الذي تبرأ منه ﴿الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا..﴾ فكيف بالسابقين الأولين ﴿الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله﴾ نعوذ بالله من الوقيعة في أصحاب رسول الله ﷺ ثم إن هذا الخبر المروي بهذا الشأن أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٦٨١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٠٤) بإسناد ضعيف، علىٰ أن الذي فيه: «قيل فعمار بن ياسر قال: كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان فأورث ذلك بين آل عمار وآل عتبة شرا..».

نار تكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتىٰ ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه علىٰ الأغنياء، وحتىٰ شكا الأغنياء ما يلقون من الناس فكتب معاوية إلىٰ عثمان بذلك؛ فأمره عثمان أن يجهز أبا ذر، فأرسله إليه فلما قدم عليه ورأىٰ المجالس في أصل سلع قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل علىٰ عثمان قال: يا أبا ذر، ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً فقال: يا أبا ذر عليَّ أن أقضي ما عليّ وآخذ ما علىٰ الرعية ولا أجبرهم علىٰ الزهد وأن أدعوهم إلىٰ الاجتهاد والاقتصاد وكان هذا الرأي الاشتراكي متمكنًا من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنه رأيٌ قاتل فأمر أبا ذر أن يخرج إلىٰ الربذة فيقيم بها ويقال إن أبا ذر هو الذي طلب منه ذلك فسيره وأجرىٰ عليه رزقًا وعلىٰ رافع بن خديج مثله وقد توفي أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين إلىٰ الإسلام.

أما الحال في المدينة فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبئيون سببًا لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشو القالة حتىٰ تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد علىٰ عثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر.

لما رأىٰ عثمان كثرة الكلام أرسل إلىٰ عماله بالأمصار أن يوافوه جميعًا بالموسم فقدموا عليه: عبد الله بن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويْحكم! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقًا عليكم وما بعصب هذا إلا بي فقالوا له: ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟ لا والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك علىٰ شيء وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها قال: فأشيروا عليّ، فقال سعيد بن العاص: هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقىٰ به غير ذي المعرفة فيخبر به فتحدث به في مجالسهم قال: فما دواء ذلك؟

قال: طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبد الله ابن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم وقال معاوية: قد وليتني فوليت قومًا لا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتيهما قال: فما الرأي؟ قال: حسن الأدب قال فما ترىٰ يا عمرو؟ قال: أرىٰ أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم علىٰ ما كان يصنع عمر فأرىٰ أن تلزم طريقة صاحبيك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين؛ إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شرًا واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعًا اللين فترون أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا همَّ لهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراضٍ في أنفسهم فقال لهم عثمان: كل ما أشرتم به عليّ قد سمعت ولكل أمر باب يؤتىٰ منه إن هذا الأمر الذي يخاف علىٰ هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يعلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة إلا في حدود الله التي لا يستطيع أحد أن يبادئ بعيب أحدها فإن سده شيء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لأحد عليّ حجة حق وقد علم الله أني لم آل الناس ولا نفسي، ووالله إن رحىٰ الفتنة لدائرة فطوبىٰ لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها.

ثم رد الأمراء إلىٰ أعمالهم ولم يأمر بشيء مما أشاروا به وقد عرض معاوية علىٰ عثمان أن يسير معه إلىٰ الشام فأبىٰ وقال: لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي فعرض عليه أن يرسل له جندًا يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فأبىٰ وقال: لا أقتر علىٰ جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق علىٰ أهل دار الهجرة والنصرة.

كان التصميم الذي دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتىٰ إذا قابلوا سعيدًا بالجرعة ردوه واجتمع الناس

على أبي موسى الأشعري وأقره عثمان ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة؛ لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتحق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما أولئك القادمون أخبروهما بما يريدون فقالوا: إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه؛ فإن أبى قتلناه.

فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر. فضحك؛ ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان: بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ألا إنهم زعموا أنهم يذكرونيها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم قالوا: أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك هو؟ قالوا: نعم.

وقالوا حميت حمى وإني والله ما حميت حمى قبلي والله ما حموا شيئًا لأحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحَّوا منها أحداً إلا من ساق درهماً وما لي من بعير غير راحلتين وما لي من ثاغية ولا راغية وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي أكذلك هو؟ قالوا: اللهم نعم.

وقالوا كان القرآن كتبًا فتركتها إلا واحداً ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

وقالوا إني قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله ﷺ والحكم مكي سيره رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ الطائف ثم ردّه رسول الله ﷺ فرسول الله سيره ورسول الله رده أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعًا محتملاً مرضيًا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولي من قبلي حدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشدّ مما قيل لي في استعماله أسامة، قال أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

وقالوا إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم فأما حبي فإنه لم يمل معهم علىٰ جور بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح، أفحين أتيت علىٰ أسنان أهل بيتي وفنىٰ عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا وإني والله ما حملت علىٰ مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم إلا الأخماس ولا يحل لي منها شيء فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالي.

وقالوا أعطيت الأرض رجالاً وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلىٰ أهله لم يذهب ذلك ما حوىٰ الله له فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنفلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني.

وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف وأعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف.

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئًا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم فكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمائة والألف وأميرهم جميعًا الغافقي بن حريب العكي ولم يجترءوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء.

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعًا عمرو بن الأصم، وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعًا حرقوص بن زهير السعدي وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأن ضِياعَه كانت ببلدهم وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليًّا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبي بكر وهو ربيب عليّ وابن أبي حذيفة بينهم.

ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة واتفقوا جميعًا أن يقدموا روادًا ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما عليًّا وطلحة والزبير وقالا: إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا عليًّا ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن

أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على عليّ وعرضوا له بالأمر فرد عليهم ردًا شديدًا وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي على ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كرّوا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا: من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم عليّ فكلمهم وقال: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون: أخذنا مع البريد كتابًا بقتلنا وقال الكوفيون البصريون: جئنا ننصر إخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم عليّ: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا: فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعليّ إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل، قم معنا إليه قال: والله لا أقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال علي: والله ما كتبت لكم كتابًا فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استغل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) ثم تركهم عليّ وخرج من المدينة.

ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا فقال: إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا: قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لا يزال يصلي بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه في داره، وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي بن أبي طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد في تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك ما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه «الكامل» أن

عثمان كتب إلىٰ علي وهو محصور: (أما بعد، فقد بلغ السيل الزبىٰ وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر أشده) ثم تمثل بهذا البيت:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل   وإلا فأدركن ولما أمزق

وكانت حاشية عثمان من بني أمية ترىٰ أن لعلي ضلعًا في هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدي عما في القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة المسلمين وقد أدت الحال إلىٰ أن ترك علي المدينة رأسًا، في هذه الفتنة التي نظن أنه لم يكن في إمكانة قمعها إلا أنه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسي كل ما في النفوس لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه، ولا يغيب عن الفكر أن رءوس المسلمين لو كانت متفقة تمامًا لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذي أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء علىٰ الأمر وفعلوا ما فعلوا لو كان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرقت كلمة المسلمين.

استمر الحصار علىٰ عثمان واشتد عليه حتىٰ منعوه الماء فكان لا يصل منه إليه شيء إلا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر، ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شددوا عليه الحصار لما بلغهم أن جندًا من الأمصار أقبلت لنصر عثمان، وفي أثناء الحصار ولىٰ عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتابًا مطولاً يقرؤه علىٰ المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه، فسار ابن عباس أميرًا علىٰ هذا الموسم فقرأ الكتاب علىٰ المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت.

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفًا من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جارًا له ولما رأىٰ ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئًا، دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر مريدًا قتله فلم يصنع شيئًا فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت علىٰ عثمان

زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فأطعن أصابع يدها ثم أهوىٰ له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا مَنْ فيه ثم أتوا بيت المال فانتهبوه، وأذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يومًا، وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنه ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦م)

المحاضرة الثامنة والعشرون

أسباب مقتل عثمان ـ بيت عثمان ـ علي وكيف انتخب ترجمته ـ أول خطبة له ـ أول أعماله

إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان:

بعد أن أتينا على تفصيل الحوادث التي أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث.

السبب الأول:

مهما كان رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سببًا للفتن والثورات وإذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فإن من يتصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء في وجهه وفي غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروه حتى كانوا يلقبونه في بعض الأحيان: نعثلاً، ونعثل رجل مصري كان طويل اللحية شبهوه به للغض منه ويقول في لسان العرب إنهم لم يجدوا فيه عيبًا سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهي عصا رسول الله ﷺ وقد أُثِرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التي أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ما تحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصًا إذا صادفت مهيجين مثيرين.

السبب الثاني:

كان عثمان معروفًا بخلق الحياء واللين، أما الحياء فقد كان مشهوراً به في

جاهليته وفي إسلامه حتىٰ قال في حقه عليه السلام: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[١] وخلق الحياء يحمل صاحبه علىٰ الإغضاء عن كثير مما يكره، أما اللين فإن الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن علىٰ المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها علىٰ يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتىٰ إن خطبته التي قالها علىٰ المنبر لأول مرة لم تخل من هذا، دعاه الخلق الأول إلىٰ التسامح مع من يناله منهم من أذىٰ في حق نفسه فلا يوجه إلىٰ واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبداً في سياسة الرعية بل لابد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد اللائق بهم.

انظروا إلىٰ ما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلاً بمركزه فإنه خفقه بالدرة وقال: جئت لا تهاب سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك فلابد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفاً أو ذلة، والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعوا إليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة، من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الأحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين علىٰ الشدة لئلا يكون فاتحًا باب الفتنة الذي يخيفه، ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفىٰ بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلىٰ بلادهم فما زادهم ذلك إلا فساداً لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرىٰ وتقنعهم الحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه فكلما أعجزهم باب عدلوا إلىٰ غيره.

السبب الثالث:

ما خالف به عثمان صاحبه عمر في أعلام قريش فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بإذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠١) من حديث عائشة.

بذلك وكان هذا لهم مما حببه إليهم ولكن ترتب عليه ما حذره عمر فإنه قد اجتمع إليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم حتىٰ إذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فنبه بذلك ذكرهم وإلا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة، وأهل الكوفة يريدون الزبير، وأهل مصر يريدون عليًا.

صحيح أن عليًا لم يجئ مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحمًا وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها عليٌّ بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه عليٌّ فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعل عثمان وانقطاع العامة إلىٰ أولئك الأعلام أو لمن هو منهم بسبيل حتىٰ يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلىٰ صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه؛ لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلىٰ ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت علىٰ أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتىٰ وقت اشتداد الأزمة وعلىٰ مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات.

السبب الرابع:

سهولة التأثير في الجماعات متىٰ أوتوا من قبل ما يهوون وما يحبون وهم في هذه الأحوال لا يصبرون حتىٰ يتثبتوا مما يلقىٰ عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلمًا ويسرون إن كان سارًا؛ كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عربًا يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التي يألفونها وهي نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسوبهم علي بن أبي طالب وصي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كما كان لكل نبي وصي وأنه من اللازم

أن يعطىٰ الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد علىٰ ذلك ما يدسه مدحًا لعلي بن أبي طالب حتىٰ علا به إلىٰ درجة لم يطلبها عليٌ لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله في القلوب خصوصًا إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة علىٰ من بيده أمر الخلافة ولذلك نرىٰ الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذىٰ في نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوي قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفًا والذين كانوا يؤيدونه لأغراض في أنفسهم اشتغلوا في الأمر بمهارة فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب إلىٰ المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم علىٰ العامة علنًا فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلىٰ المصر الأول فتقرأ علىٰ العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون نحن في عافية مما ابتلي به هؤلاء الناس حتىٰ أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاّه رسول الله ﷺ وولاّه أبو بكر وولاّه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقًا به من عمر حياته كلها إلا أفرادًا قلائل منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان واليًا من أول حياة عمر إلىٰ آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها وكانوا يعيبون عبد الله بن سعد بن أبي سرح لا لأنه ظالم أوجائر وإنما لأمر آخر وهو أن النبي ﷺ حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول ﷺ كان إذا عفا فإنما جر علىٰ الذنب سترًا لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليًا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو واليًا له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم علىٰ ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيطة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الأمة ، وإذا أردنا أن نحمل الناس في

ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولي الأمر. والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك.

من الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سببًا دائمًا لتفريق كلمة المسلمين؛ ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلا أن المسألة ألبست ثوب الدين وكلٌّ حاول الوصول بما يثبته، وما يختلقه إلى غرض من الأغراض ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيئ القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثم نحكم بأنهم أخطئوا خطأ عظيمًا ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبيين الصواب له لخطئه. وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان. فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية.

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح، وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديدًا.

وهم في كل زمن كثيرون. فما ظنك إن كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر بإغضائه وتهاونه إن الشر حينئذ يكون مستطيرًا والبلاء عظيمًا. وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير.

دفن عثمان:

من غريب ما فعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن إلا بصعوبة واستتار.

خرجوا به بعد المغرب فدفنوه، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل، وصلى عليه جبير بن مطعم.

بيت عثمان:

١، ٢ ـ تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله ﷺ وولدت ولدًا اسمه عبد الله فماتت. ثم تزوج بعدها أم كلثوم أختها.

٣ ـ وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الأصغر فمات.

٤ ـ وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسي فولدت له عمرًا وخالدًا وأبانًا وعمر ومريم.

٥ ـ وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيدًا وأم سعيد.

٦ ـ وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك؛ ومات.

٧ ـ وتزوج رملة بنت شيبة من بني عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو.

٨ ـ وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم. وقد توفي وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة.

عمال عثمان:

العلاء بن الحضرمي: على مكة ـ القاسم بن ربيعة الثقفي: على الطائف ـ يعلى ابن منية: على صنعاء ـ عبد الله بن ربيعة: على الجند ـ عبد الله بن عامر: على البصرة ـ سعيد بن العاص: على الكوفة ـ عبد الله بن سعد: على مصر ـ معاوية ابن أبي سفيان: على الشام.

* * *

٤ ـ علي بن أبي طالب

كيف انتخب:

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب علي بن أبي طالب مشابهة لما كان عليه الحال في انتخاب من قبله فإنه عقب وفاة رسول الله ﷺ كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلاً ثم ثابوا إلىٰ الجماعة وأجمع رأيهم علىٰ انتخاب أبي بكر وعقب وفاة أبي بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لأنه كان قد عهد إلىٰ عمر فرأىٰ المسلمون وجوب طاعته.

وعقب وفاة عمر كان قانون الشورىٰ قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلىٰ واحد من ستة يعينونه هم، وبين الحدود في المخالف.

أما عند موت عثمان فلم يكن الأمر كذلك، فالمدينة فيها جماعة الثوار علىٰ عثمان، وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الأمصار التي لم يكن لها اشتراك في الجريمة، وأصحاب رسول الله ﷺ كثير منهم من كان خارج المدينة، ومنهم المرابطون في الثغور، ومنهم العمال، ومنهم من كان مقيمًا بالمدينة.

كانت الكلمة العليا في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين؛ الذين قتلوا الخليفة، ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من عليّ للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلاً ثم أجاب إلىٰ ذلك؛ ويقول الكوفيون: أول من بايعه الأشتر، وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير؛ لأنهما زميلاه في الشورىٰ وإن تطلع إلىٰ الخلافة أحد دونه فهما.

روىٰ الطبري[1] عن الزهري أنه دعاهما إلىٰ البيعة فتلكأ طلحة فقام مالك الأشتر وسل سيفه وقال: والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه

---

١) «تاريخ الطبري» (٢ / ٦٩٧).

الزبير؛ وروي أن عليًا قال: لهما إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما فقالا: بل نبايعك وقالا بعد ذلك: إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا، وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع، فقال له: لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس قال: خلوا سبيله، وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع، فقال: لا أبايع؛ حتى يبايع الناس، قال: ائتني بحميل، قال: لا أرى حميلاً، قال الأشتر: خل عني أضرب عنقه، قال علي: دعوه أنا حميله إنك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً.

وتخلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان، وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليًا ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة إلا من فر ولحق بالشام.

ترجمة علي:

هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله ﷺ شقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد.

ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان عليّ مراهقًا وكان مقيمًا مع الرسول في بيته تخفيفًا على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وكان له الشرف العظيم ببياته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجرًا حتى لا يرتاب المترصدون في وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي أمر أن يسلمها لأهلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بنته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ما عدا غزوة تبوك فإن الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الأثر المحمود والمقام الذي لا يجهل في جميع الغزوات وكان شجاعًا يخوض الغمرات ولا يبالي بشدة وكان يكتب لرسول الله ﷺ ولما لحق الرسول بربه كان

عليّ يرىٰ في نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربىٰ والصهر ولكن المسلمين رضوا أبا بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرىٰ أنه أحق بالأمر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً في الأحكام الشرعية ولما عهد عمر إلىٰ الشورىٰ دخل معهم وكان يغلب علىٰ ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلىٰ عثمان فرضي وبايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتىٰ إن اسمه استعمل للتغرير بالناس حتىٰ يهيجوا علىٰ خليفتهم وحتىٰ خاطبه بعض أهل مصر قائلاً: إن لم تقم معنا فلم كتبت إلينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف علىٰ ذلك.

ولما انتهىٰ أمر عثمان بويع بالخلافة علىٰ نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال.

أول خطبة له:

صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: إن الله عز وجل أنزل كتابًا هاديًا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر.

الفرائض أدوها إلىٰ الله سبحانه يؤدكم إلىٰ الجنة إن الله حرم حرمًا غير مجهولة وفضل حرمة المسلم علىٰ الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذىٰ المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباده في عباده وبلاده إنكم مسئولون حتىٰ عن البقاع والبهائم أطيعوا الله عز و جل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض.

ولما أراد عليّ الذهاب إلىٰ بيته قال له السبئية فيما قيل:

خذها إليك واحذرن أبا حسن ... إنا نمر الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن ... بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن ... حتى يمرن على غير عنن

فقال عليّ وذكر ما كان :

إني عجزت عجزة لا أعتذر ... سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر ... وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر ... أو يتركوني والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له : إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم : إني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون قالوا : لا قال : فلا والله فلا أرىٰ إلا رأيًا ترونه إن شاء الله إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدًا إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور فرقة ترىٰ ما ترون وفرقة مالا ترون وفرقة لا ترىٰ هذا ولا هذا حتىٰ يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا - واشتد علىٰ قريش وحال بينهم وبين الخروج وإنما هيجه علىٰ ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم وبعضهم يقول والله إن ازداد الأمر لاقدرنا علىٰ انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا إلىٰ ما قال عليّ أمثل ، وبعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره والله إن عليًا لمستغن برأيه وأمره عنا ولا نراه إلا سيكون علىٰ قريش أشد من غيره .

أول أعمال علي:

رأىٰ عليّ أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة

أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولاً وابن عباس ثانيًا فأبىٰ ذلك إباء تامًا كأنه قد وقر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئًا من أمر المسلمين وأن الإبقاء علىٰ واحد منهم يومًا كاملاً نقص في دينه ولو كان الأمر قد استتب وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاة شيء لأن الخليفة هو الذي يعطي الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع أنه قَبِلَ أن يؤخر الحدّ علىٰ قتلة عثمان حتىٰ يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله .

فرق العمال علىٰ الأمصار فأرسل عثمان بن حنيف إلىٰ البصرة وعمارة بن شهاب إلىٰ الكوفة وعبيدالله بن عباس إلىٰ اليمن وقيس بن سعد بن عبادة إلىٰ مصر وسهل بن حنيف إلىٰ الشام ، فأما سهل فإنه خرج حتىٰ أتىٰ تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت؟ فقال : أمير علىٰ الشام فقالوا : إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع قال : أوما سمعتم بالذي كان ، قالوا : بلىٰ فرجع إلىٰ علي .

وأما قيس بن سعد فإنه سار حتىٰ أتىٰ مصر فافترق عليه أهلها فرقًا فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلىٰ خربتي وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن علىٰ جديلتنا حتىٰ نحرك أو نصيب حاجتنا ، وفرقة قالوا نحن مع علي ما لم يقد إخواننا وهم في ذلك مع الجماعة .

وأما عثمان بن حنيف فإنه سار حتىٰ البصرة وكان أهلها فرقًا كأهل مصر وأما عمارة فإنه سار حتىٰ إذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلىٰ الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس إلىٰ اليمن فجمع بعلي كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر علىٰ حاميته إلىٰ مكة فقدمها بالمال .

اضطراب الحبل:

اضطرب الحبل في جميع الأمصار الكبرىٰ الإسلامية .

ففي الشام كان الأمير معاوية بن أبي سفيان بن حرب ، كان أميرًا على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوبًا من أهله فلما وقع إليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض أن يدخل في بيعته لأسباب :

(١) أنه يتهم عليًا بشيء من أمر عثمان .

(٢) أنه آوي قتلته في جيشه .

(٣) أنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن عليًا يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة ، نعم ليس من السهل أن يدخل مختاراً في بيعة نتيجتها إذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للإمارة عليهم ولم ير لعلي بيعة توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً .

أرسل عليّ إلى معاوية سبرة الجهني يطلب إليه أن يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية إليه بشيء ولم يجبه حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس فدفع إليه طوماراً مختومًا عنوانه .

من معاوية إلى علي

وقال له : إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئًا ثم سأل الرسول ما وراءك؟ قال : إني تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود قال : ممن؟ قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي : مني يطلبون دم عثمان ألست موتوراً كثرة عثمان اللهم إن أبرأ إليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ومن

الغريب أن عليًا لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يالمضر يالقيس الخيل والنبل إني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل إلا بشق الأنفس.

أحب الناس أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهل القبلة أن يجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي فجلس إليه ساعة ثم قال له علي: يازياد، تيسر فقال لأي شيء قال: تغزو الشام فقال زياد: الأناة والرفق أمهل:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فمتثل علي:

متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفًا حميًّا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال: السيف ثم دعا علي ابنه محمداً فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف على المدينة قثم بن عباس وأقبل على التهيؤ والتجهز. وبينما هو على ذلك إذ فجأه ما هو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وإنهم توجهوا إلى البصرة، وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبتعد عن المدينة في هذه الأوقات وقد علمت وهي بمكة أن عثمان قتل وأنه قد بويع لعلي بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا نصها:

(إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحًا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادروا بالعدوان ونبأ قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع

عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبًا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذا ماصوه كإيماص الثوب بالماء).

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله بن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا وقرأت ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٤] ننهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا أننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره؛ ثم سألا طلحة ما أقدمك؟ فقال: المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع عليًّا قال: بلى واللج على عنقي وما أستقيل عليا

إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما: مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان إلىٰ ابن حنيف فأخبراه فعزم علىٰ التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها علىٰ رأي واحد فلما قدم جيش عائشة إلىٰ البصرة خرج إليهم من أهلها من هو علىٰ رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه في ميسرة المربد ووقف الآخرون في ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين علىٰ المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس في معنىٰ ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين: فرقة قالت: صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتىٰ حجز بينهم الليل وفي غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا إلىٰ أن زال النهار ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم إلىٰ الكف فيأبون حتىٰ إذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا علىٰ أن يبعثوا رسولاً إلىٰ المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد بايعا كرها فالأمر أمرهما وإلا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولاً هو كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتىٰ أتىٰ المدينة يوم جمعة فدخل المسجد ونادىٰ يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين علىٰ بيعة علي أم أتيا طائعين؟ فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال: اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهين فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب ابن سنان وأبو أيوب الأنصاري في عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة وأخذ بيده صهيب إلىٰ داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب إلىٰ البصرة.

وكان علي لما علم بخبر كعب كتب إلىٰ عثمان يعجزه ويقول: والله ما أكرها

على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل وإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب إلى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الأمر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد إلى علي وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل في نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن له شركة في دم عثمان ثم نادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجيء بهم أذلاء فقتلوا، ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا بأخبارهم إلى أهل الشام وإلى أهل الكوفة يطلبون إليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به. واستمروا منتظرين ما تأتيهم به الأقدار.

روى الطبري[1] عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة، وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت: يا أبا محمد، أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك إلى زورك ألا كرهت شيئًا فاجلس؛ فقال يا علقمة: بينا نحن يد واحدة على من سوانا، صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضًا، إنه إن كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه، قلت: فرد محمد بن طلحة: فإن لك ضيعة وعيالاً فإن يك شيء يخلفك فقال: ما أحب أن أرى أحدًا يخلف في هذا الأمر فأمنعه فأتيت محمد بن طلحة فقلت له: لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعته قال: ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره.

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٢).

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجمل - صفين

أمر علي:

لما بلغ عليًا مسير من سار إلى البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة، فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطلب إليهم أن ينفروا إلى معاونته على المخالفين له، ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس إلى أميرهم أبي موسى يستشيرونه في الأمر فقام فيهم خطيبًا، وكان آخر خطبته أما إذا كان ما كان، فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فأغمدوا السيوف، وأنصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة فتكلمت رسل علي وأغلظت لأبي موسى القول ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لأهل الكوفة: يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يتيه أولو النهي أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به، فسامح الناس وأجابوا ورضوا به، وقال لهم الحسن: إني غادٍ فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء فقفز من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذي قار فقال لهم: قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدءوا بظلم ولن ندع أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله.

ثم إن عليًا اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى

أتى عائشة فقال أي أمه: ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟!، قالت أي بني إصلاح بين الناس.

فطلب أن يحضر طلحة والزبير. حتى يعرف رأيهما، فلما جاءا أخبرا أن مقصدهما كمقصد عائشة، فقال لهما القعقاع: ما هذا الإصلاح؛ قالا: قتلة عثمان فإن هذا إن ترك كان تركًا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم قتلتم ستمائة رجل إلا رجلاً فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم طلبتم ذاك الذي قلتم (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم قربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر بعثه الله في هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم وايم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل فقال له القوم: أحسنت وأصبت فإن جاء علي بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح.

ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض: إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا فقال لهم ابن السوداء: إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليًا وطلحة والزبير عما تكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون.

ولما وصل علي إلى البصرة بعث إلى القوم إن كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل.

قام السبئيون في الغلس ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ما هذا؟ قالوا طرقنا أهل الكوفة ليلاً فقال: قد علمنا أن عليًا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريبًا منه يخبره بما يريدون فقال له: ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت بدا من القتال وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعًا دينيا وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لا تصاب بشر فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل ... ننعي ابن عفان بأطراف الأسل

الموت أحلى عندنا من العسل ... ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لا تسلمه أبدًا وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل، فجاء الجمل إنسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمي فيه من النبل فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر

فقطعا مرضة الرحل واحتملا الهودج فنجياه من القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة؛ وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم، فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فأتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله فقتله.

قتل في هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبد الله) وعبدالرحمن ابن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب.

وبعد أن انتهت الموقعة مر علي بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال: زعموا إنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعًا.

وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها: إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وإنه عندي على معتبتي من الأخيار وقال علي: أيها الناس، صدقت والله وبرت ما كان بيني وبينها إلا ذلك وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها عليّ أميالاً وسرح بنيه معها يومًا.

بعد انتهاء الموقعة أخذ علي بيعة أهل البصرة وأمر عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبي سفيان.

هكذا انتهت هذه الموقعة التي سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحل كلٌ دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف في نظرهم عظيمًا مهيبًا.

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فإن طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حرامًا من غير ترة

ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرىٰ كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر في تحقيق هذه القضية وإقامة الحد علىٰ من يستحقه؟! إن إعطاء الحق للأفراد في أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام في إقامته أو اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا يرون الإمامة علىٰ صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولاً للنظر في أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك في إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلىٰ أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندري كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون: إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ولم يكن عند علي بن أبي طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتىٰ يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان، حقيقة إن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتىٰ اشتبه الأمر علىٰ الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير في قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وأن من الخطأ العظيم أن يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوي إلىٰ جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن في نظرهم أن يتفق علىٰ ذلك الناس؛ لأن الاتفاق إنما يقع علىٰ رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم في تضييق المسالك علىٰ كل من يريد الإصلاح حفظًا لأنفسهم علىٰ أن مجرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاما - وهو عندنا الصادق في قوله - والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليه

إلى حظيرته والكي لا يكون إلا آخر الدواء.

أمر صفين:

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وأفظع أمرًا وهو الحرب في صفين.

انصرف علي من البصرة إلى الكوفة فاختار جرير بن عبد الله البجلي ليكون رسولاً إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب إليه البيعة فشخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ما جاء له فماطله واستنظره.

وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم والشام مجمع أجناد المسلمين؛ لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من قوتها فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد.

عاشرهم معاوية طويلاً وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم فجاء جرير عليًا وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير علي إلا المسير والقتال.

خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام.

أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة.

هناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكرت الطائفتان في سهل صفين وتواقفت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض.

اختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم بشير

ابن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فساروا حتىٰ دخلوا علىٰ معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلىٰ الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها، فقال له معاوية: هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال: إن صاحبي ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ قال: فيقول ماذا؟ قال: يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلىٰ ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك قال معاوية: ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبدًا فقام شبث فقال يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت: إنه والله لا يخفىٰ علينا ما تغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئًا تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قُتِل إمامكم مظلومًا فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متمني أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته والله ما لك في واحدة منهما خير لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً في ذلك ولئن أصبت وما تمنىٰ لا تصيبه حتىٰ تستحل من ربك صلىٰ النار فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله، ولم يكن من معاوية جواب علىٰ هذه المقالة الشديدة إلا ردّ شديد وأمره إياهم بالانصراف، فأتوا عليًّا وأخبروه بالخبر.

كان القوم جميعًا يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفًا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلىٰ هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلىٰ انقضائه طمعًا في الصلح واختلفت بينهما الرسل في ذلك فبعث علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن

خصفة وشبث بن ربعي وهو أحد الرسل في المرة الأولىٰ وربما كان حمقه سببًا في عدم النجاح لما دخلوا علىٰ معاوية بدأ عدي فقال: إنا أتيناك ندعوك إلىٰ أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين إن ابن عم سيد المرسلين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثرًا وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم الجمل، فقال معاوية: كأنك إنما جئت مهددًا ولم تأت مصلحًا هيهات يا عدي كلا والله إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان وإنك لمن المجلبين علىٰ ابن عفان وإنك لمن قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل اللهُ عز وجل هيهات يا عدي قد حلت بالساعد الأشد فقال شبث وزياد: أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع ما ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه وقال يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن علىٰ ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا أنا لنا عليك به حجة وأنك راجع به إلىٰ الألفة والجماعة إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفىٰ عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يا معاوية، ولا تخالف عليًا فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوىٰ ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فقال معاوية: أما بعد فإنكم دعوتم إلىٰ الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوىٰ ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلىٰ الطاعة والجماعة.

فقال له شبث: أيسرك يا معاوية أنك إن مكنت من عمار تقتله فقال: وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله

بنائل مولى عثمان فقال شبث: لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية: إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق، وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت إليه؛ لأنه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئًا في مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحًا، أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها وأرسل معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد والأخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال: أما بعد: فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديًا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فقال له: ما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال: والله لتريني بحيث تكره فقال علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت على أحقره وسواء اذهب فصوب وصعد ما بدا لك وقال شرحبيل بن السمط: إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبت به؟ فقال علي: نعم، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول ﷺ وهدايته للناس ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا إليه فقتلوه ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم فقالوا لي: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق بن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله

ولرسوله وللمسلمين عدوًّا هو وأبوه حتىٰ دخلا في الإسلام كارهين فلا غرو إلا خلافكم معه وانقيادكم معه وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحدًا ألا إني أدعوكم إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين.

فقال له شرحبيل: أشهد أن عثمان قتل مظلومًا فقال لهما: لا أقول إنه قتل مظلومًا ولا أنه قتل ظالمًا قالا: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلومًا فنحن منه برآء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول.

لما انسلخ المحرم أمر علي من ينادي ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه وأحججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلىٰ حق وإني قد نبذت إليكم علىٰ سواء إن الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام إلىٰ أمرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش.

وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهًا لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتىٰ إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر: حتىٰ متىٰ لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ واتفق معهم علىٰ ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جميل التغلبي:

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والملك مجموع غدًا لمن غلب
فقلت قولاً صادقًا غير كذب ... إن غدًا تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف علي بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وفي ذلك يوم مشؤم لا يزال المسلمون يعدونه شؤمًا من لدن ذلك الحادث إلىٰ الآن.

تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالاً شديدًا نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من

اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى علي فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر به في ذلك الوقت الأشتر النخعي فقال له علي ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فلما هب إليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع إلا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول: أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي — وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي — وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت — مكانك تحمدي أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار، وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلي يمده بالرجال لما رأى من ظفره.

وبينا هم في الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رءوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول: هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم علي، يا عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء

ومكيدة فقالوا ما يسعنا أن ندعىٰ إلىٰ كتاب الله عز وجل فنأبىٰ أن نقبله، وقال مسعز بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء: أجب إلىٰ كتاب الله إذا دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلىٰ القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك. ثم طلبوا منه أن يبعث إلىٰ الأشتر ليترك القتال، فأرسل إليه رسولاً فقال الأشتر للرسول ليست هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فما انتهىٰ إليه حتىٰ ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا: ابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك فقال للرسول: ويحك، قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب إليه قال له معاوية: نرجع نحن وأنتم إلىٰ ما أمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث: هذا الحق ثم رجع إلىٰ عليّ فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا، فقال أهل الشام: قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الأشعث ومن تابعه: وإنا قد رضينا أبا موسىٰ الأشعري فقال علي: قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسىٰ؛ لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر عليّ للسير علىٰ ما رأوا.

المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم - نتائجه - الخوارج

عقد التحكيم:

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما: أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملاً به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.

وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة، وإني قد أوجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يُرادَّاها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحببا أن يؤخرا ذلك أخراه على قراض منهما وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا

وأحب فلا يحضرهما فيه إلا من أراد، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً، اللهم إنا نستنصرك على من ترون ما في هذه الصحيفة» . ويلي ذلك أسماء الشهود من الطرفين - ١٥ صفر سنة ٣٧ .

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان المسلمين وأمجادهم تسعون ألفًا وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله ﷺ إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور .

ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة علي تنصره؛ لأنه ابن عم رسول الله ﷺ وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره؛ لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلمًا ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى إليه قتلته .

يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطًا هائلاً عنه ولماذا؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا كرهًا حينما لم يجدوا مناصًا من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغمًا لأنه لم يجد له أنصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه الناس فيه بالخلافة وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به إنسان ولا ينظر أن

الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ومثله لا ينال إلا بالأناة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه أشياء لم ير علي أن يتنزل إليها، أما معاوية فإنه بدون ريب كان يرى نفسه عظيمًا من عظماء قريش لأنه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب وأكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن عليًا أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفعة النسبية ثم كان يرى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن عليًا لا ينظر إليه بتلك العين التي كان ينظر له بها مَن قَبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدري ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة.

وجد أمامه شبهًا تفسح له المجال في تلك المناوأة.

(١) أنه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووالٍ من أكبر الولاة تحت إمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مائتي ألف.

(٢) أن كثيرًا من الصحابة رفضوا بيعة علي.

(٣) أن أول من ندبه للخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه.

(٤) أنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالئ لهم على فعلتهم - كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع في المذلة والمهانة.

شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رءوسهم من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى إن رسله التي كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة

المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولاً أن تسلم قتلة عثمان إليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورىٰ بينهم وكلا الأمرين لا يرضىٰ به علي.

أما قتلة عثمان فلأنه إذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلأنه لا يترك حقًا قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه، أضف إلىٰ ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جند علي.

نتائج التحكيم:

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلىٰ دمشق أما جند علي فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرؤه علىٰ الناس ويعرضه عليهم يقرءونه حتىٰ مر به علىٰ طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة: أتحكمون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشىٰ رؤساء بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة.

روىٰ الطبري[1] عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلىٰ صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتىٰ فشا فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله، أدهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل علىٰ الكوفة لم يدخلوا معه حتىٰ أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفًا ونادىٰ مناديهم إن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا كان رسول علي إلىٰ معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ١٠٨).

كيف لم يبايع عليًّا وهو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فبعث إليهم عليٌّ عبدَ الله بن عباس وقال له لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال: ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل: ﴿**إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**﴾ [النساء: ٣٥]. فكيف بأمة محمد ﷺ؟ فقالوا له: أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ـ أما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزاني مائة جلدة وفي السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في هذا قال ابن عباس فإن الله عز وجل يقول: ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ [المائدة: ٩٥] فقالوا له: أوتجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟ وقالوا إن هذه الآية بيننا أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا؟ فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حزبه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابًا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ثم جاء علي فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له: انته عن كلامهم ألم أنهك، ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله: ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم عليَّ رأيي ولما أبيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكمًا يحكم بما في القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما برآء قالوا له فخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين

لا ينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا: فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ادخلوا مصركم رحمكم الله.

والخوارج يدعون أنهم قالوا: إن التحكيم كان منا كفرًا وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون فبايعهم عليّ وقال: ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن عليًا كان إمامًا بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافر فإذًا يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها؛ لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافه.

ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصًا فاللين معهم ومهادنتهم إدهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء. فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضًا باطلة.

أما كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أن له شبهًا في نفس إمامة الإمام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيم للرجال في دين الله وإنما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم فإن القاضي الذي ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتمًا أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن

التحكيم من علي شك في إمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك في صحته كان هذا باطلاً أيضًا لأن صاحب الحق كثيرًا ما يتأكد أن الحق له، فإذا رأىٰ من خصمه إنكارًا أو تمسكًا بشُبه فإنه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو محكمين يكون حكمهما قاطعًا لنزاع خصمه، وعلىٰ الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها علىٰ مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة، وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان والمتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتىٰ صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها إلا غاوٍ في نظرهم وإلا فكيف يؤول فعلهم؟ كانوا بالأمس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون أنه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة، وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد.

اجتماع الحكمين:

لما حان أجل اجتماع الحكمين؛ بعث علي أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسىٰ الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل بأذرح وكان معاوية إذا كتب إلىٰ عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء وإذا جاء رسول علي جاء أهل العراق إلىٰ ابن عباس فسألوه ما كتب إليك أمير المؤمنين فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه إلا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس: أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به، ويرجع لا يعلم بما رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون.

وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم.

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاءا لأجله وهو إصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال: ألست تعلم أن عثمان قتل مظلومًا؟ قال أبو موسى أشهد - قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه - قال بلى - قال عمرو فإن الله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت فإن تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فإن لك بذلك حجة تقول: إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وقد صحبه فهو أحد الصحابة.

ثم عرض له بالسلطان بقوله: إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو، اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته علي بن أبي طالب وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان قوله هذا الأمر فإني لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشي في حكم الله عز وجل ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال: إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.

وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى في كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيي ورأي

عمرو وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزا.

ويروي المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع عليّ ومعاوية وإن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب في نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وأن الخديعة تمت على أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئًا لأن الذي ثبته إنما هو حكمه والذي يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضي به أحد الحكمين ولم يقل أحد أن أبا موسى رضي في خطابه ببيعة معاوية.

ومن الوقت الذي جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدي إلى نتيجة لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أي طريق يسلكه وقرينه يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمه إلا أن يصل إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان.

قال المغيرة بن شعبة لبعض من معه من قريش: سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال يا أبا عبد الله؛ أخبرني عما أسألك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فإنا قد شككنا في الأمر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة فقال عمرو: أراكم يا معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمرًا فقال له أراكم أثبت الناس رأيًا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة إلى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد.

لم يكن علي ليرضى بهذا الحكم الذي تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعًا لأن أقل ما في الحكم أن ليس لعلي وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدًا فزادت آماله في أن يكون خليفة المسلمين.

رأي علي أنه لابدّ له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فإنه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا يظنون أن عليًّا وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له: إن الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم إلا لله وعليّ يقول: كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه: فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقًا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان وكتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي إليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجلل وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمـرتهم أمـري بمنعـرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى مكان الهدى أو أنني غير مهتد
وهل أنا إلا من غـزية إن غـوت غـويت وإن ترشـد غـزية أرشـد

ألا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدىً من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين.

وكتب إلى الخوارج يدعوهم إلى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه (أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جند البصرة وإلى أمير المدائن يأمره أن يرسل إليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندي هناك بلغه أن الناس يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام فقام فيهم خطيبًا وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت بلغ عليًّا وهو في مقامه بالنخيلة أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولاً ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين، علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام فلم يجد بدًا من موافقتهم ونادى بالرحيل فلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم فبعثوا إليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم

ودماءكم.

ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التي نطق بها وهم يسمعون فرفع راية مع أبي أيوب الأنصاري ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج إلى علي جمع وبقي مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلي الظفر قال للناس: توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا: فلما نزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا هناك أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالاً من وجوه الناس قليلاً وترك المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط: وهو في كل يوم يلقي عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئاً وصار في جند لا يمر ولا يحلى ضعف سلطان أمامهم في أنفسهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم.

هذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم.

أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائماً في علو

إلى ما كان يستعين به من الحيل .

كان مما يهم معاوية أن يستولي على مصر فإنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح .

كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الأمر لعلي ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته في بدء سنة ٣٦ وكان رجلاً سياسيًا خبيرًا بالأمور فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الأنصاري فبعث إليهم قيس إني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم ؛ كان أثقل شيء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل إليه علي بأهل العراق ويقبل إليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب إليه كتابًا لا يستبين مراده منه إلا أنه قال له أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتابًا آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتابًا جعله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة في إخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كبيس نصيحة سرًا ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده بخربتى يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلي جواسيس بالشام فبعثوا إليه الخبر فاتّهم قيسًا وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى علي إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجري عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو أني غزوتهم كانوا لي قرنًا وهم أسود

العرب فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم - فأبىٰ علي إلا قتالهم.

أبىٰ قيس أن يقاتلهم وكتب إليه إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري فعزله وولىٰ علىٰ مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهرًا حتىٰ كتب إلىٰ أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته أو الخروج من مصر فبعثوا إليه إنا لا نفعل دعنا حتىٰ ننظر إلىٰ ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبىٰ عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم خبر معاوية ومن معه من أهل الشام لعلي وأن عليًّا ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا علىٰ محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل لهم سريتين الواحدة تلو الأخرىٰ ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك عليًّا قال ما لمصر إلا أحد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو مالك ابن الحارث الأشتر وكان قد استعمله علىٰ الجزية فكتب إليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب في العالم.

والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان.

لم يصل الأشتر إلىٰ مصر بل مات بالقلزم ويقال إنه سم في شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب عليّ إلىٰ محمد بن أبي بكر (أما بعد فقد بلغني وجدتك من تسريحي الأشتر إلىٰ عملك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازديادًا مني لك في الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك في المؤنة وأعجب إليك ولاية منه، إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحًا، وعلىٰ عدونا شديدًا وقد استكمل أيامه ولاقىٰ حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب، اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك علىٰ ما ولاك أعاننا الله وإياك علىٰ ما لا ينال إلا برحمته).

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوي بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبا إليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبي بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز إلى مصر عمرو بن العاص في ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب إلى ابن أبي بكر (أما بعد: فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإني لك من الناصحين) فكتب محمد إلى علي يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً.

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج إليه محمد في ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل، وفر الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك أما علي فلم ينجح في إخراج الجنود لإغاثة مصر إلا بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلاً حتى بلغ عليًّا ما كان فأرسل إليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر.

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف علي ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك ابن كعب مسلحة لعلي فكتب إلى علي يستمده فأمر الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة: «يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم أو خيب لا أحرار عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا

منيت بكم عُمْي لا تبصرون وبُكْم لا تنطقون وصُمّ لا تسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون» .

ووجه معاوية بن أبي سفيان ابنَ عوف في ستة آلاف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحدًا ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلي فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية فخرج علي في طلبهم فلم يلحقهم .

ووجه عبد الله بن مسعدة إلى تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة فوجه له علي جيشًا يقدمه المسيب بن نجية الفزاري فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالاً شديدًا وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش .

ووجه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادي البصرة فأغار عليها ووجه بسر ابن أرطاة في ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب إلى اليمن وكان واليها عبيدالله بن عباس لعلي فلما علم بمسير بُسر إليه فر إلى الكوفة حتى أتى عليًا واختلف على صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله وكان بسر عسوفًا أسرف في قتل من رآه من شيعة علي .

هكذا كانت الحال في تلك الأزمنة الثقيلة التي كانت إلى الفوضى أقرب .

ومن أغرب ما يروى أن ابن عباس وهو الساعد الأشد لعلي فارقه وترك البصرة التي كان قد ولاه عليها وجاء مكة لأن عليًا اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين .

المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل علي - بيت علي - صفته وأخلاقه - الحسن بن علي - مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين - الخلافة - القضاء - الجند - الخراج والصدقات والعشور - النقود - الحج - الصلاة - العلم والتعليم

مقتل علي:

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئًا إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل على صاحبه الذي توجه إليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذي فيه صاحبه؛ فأما ابن ملجم المرادي وكان عدده في كندة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئًا كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من نيم الرباب قتل منهم علي يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل علي أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت: لا أتزوج حتى تشفي لي قال وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي

طالب قال: هو لك مهر أما علي فلم أرك ذكرته لي وأنت تريدينني قالت بل التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها: والله ما جئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو ينادي الحكم لله لا لك ولا أصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتنكم الرجل فسد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على عليّ فقالوا له: إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده وفي يوم الأحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت حاضرة خلافته.

أما البرك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في ذلك اليوم ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودووي من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد، وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لأنه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمراً وأراد الله خارجة.

بيت علي:

تزوج عليّ بن أبي طالب:

(١) فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى.

(٢) أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً

وعبد الله وعثمان .

(٣) ليلىٰ بنت مسعود التميمية فولدت عبد الله وأبا بكر .

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيىٰ ومحمداً الأصغر .

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت له عمر ورقية .

(٦) أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ فولدت له محمداً الأوسط .

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية .

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرىٰ .

(٩) محياة بنت امرئ القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة .

وكان له بنات من أمهات شتىٰ منهن أم هانئ وميمونة وزينب الصغرىٰ ورملة الصغرىٰ وأم كلثوم الصغرىٰ وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة وأمهاتهن أمهات أولاد شتىٰ وكان النسل من ولده الخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنيفة والعباس وعمر .

صفة علي وأخلاقه:

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تميم بن كعب والثاني من بني عدي وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتىٰ إذا آلت لبني عبد مناف ووليها اثنان منهم نغصت علىٰ أولهما حياته في آخره ولم يصف الأمر لثانيهما في جميع حياته بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول ﷺ فهم عشيرته الأدنون وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الإسلام ذلك إلىٰ ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرىٰ التي لم تجتمع في غيره؟ لابد لذلك من

أسباب: أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فإنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خُلُق علي وما كان من الظروف التي أحاطت به.

كان علي ممتازًا بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي:

الشجاعة - الفقه - الفصاحة

فأما الشجاعة :فقد كان محله منها لا يجهل؛ وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من شجاعته بياته موضع رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أن قومًا يتراصدونه حتى إذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان علمًا لا يخفى مكانه يبارز الأقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه فعمل به الأفاعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته.

وأما الفقه: فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله ﷺ منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب.

وأما الفصاحة: فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم «بنهج البلاغة» وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله:

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلىٰ موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف علىٰ النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحي إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلىٰ جواد الفضل والكمال. وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرعاها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء.

وأحيانًا كنت أشهد أن عقلاً نورانيًا لا يشبه خلقًا جسدانيًا فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلىٰ الملكوت الأعلىٰ ونما به إلىٰ مشهد النور الأجلىٰ وسكن به إلىٰ جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلىٰ دقائق السياسة ويهديهم طريق الكياسة ويرتفع بهم إلىٰ منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم علىٰ حسن المصير.

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئًا كثيراً.

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول ﷺ ومصاهرته له جعلته يرىٰ لنفسه فضلاً علىٰ سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها ويرىٰ بذلك له الحق في ولاية الأمر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحىٰ ينحدر عني السيل ولا يرقىٰ إلىٰ الطير.

وقال: فوالله مازلت مدفوعًا عن حقي مستأثراً عليٌ منذ قبض الله نبيه ﷺ حتىٰ يوم الناس هذا.

وهناك طبيعة ثابتة في الناس أنهم لا يميلون إلىٰ شخص يرىٰ لنفسه التفوق

ومزيد الفضل وإنما يقرب إلىٰ قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيرهم أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ إلىٰ الاستشارة فيما هو صانع، وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والأشياخ وروي أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما فقال لهما: لقد نقمتما يسيرًا وأرجأتما كثيفًا ألا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأي قسم استأثرت عليكما به أم أي حق أرفعه إلىٰ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية أربة ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها فلما أفضت إليَّ نظرت إلىٰ كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي ﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلىٰ رأيكما ولا رأىٰ غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن ذلك لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوىٰ مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه فلم أحتج إليكما، قد فرغ الله من قسمه وأمضىٰ حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبىٰ أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلىٰ الحق وألهمنا وإياكم الصبر وأي نفس تصبر علىٰ مثل هذا.

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان إلىٰ عثمان كان من رأي عليَّ قتله ولكن عثمان قضىٰ بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابًا كان أم خطأ فلما آل الأمر إلىٰ علي كان يريد قتل عبيد الله بعد أن مضىٰ علىٰ القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيدالله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين.

كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي علي فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

بويع وولاة الأمصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتىٰ يتم أمره فلم يسمع لأحد قولاً بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأي فيهم حتىٰ خيل إليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرىٰ فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس علىٰ مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتىٰ قالوا ارض التحكيم وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان .

ولما ولي ابن عباس علىٰ البصرة نظر بعضهم إلىٰ بعض وقالوا : قثم بن العباس علىٰ الحجاز وعبيد الله بن العباس علىٰ اليمن وعبد الله بن عباس علىٰ البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتىٰ لم يكن له علىٰ أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فأرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعليٌّ يحاسبهم علىٰ النقير والقطمير في وقت هو محتاج إليهم حتىٰ كان شيء من ذلك سبباً في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلىٰ مكة .

ليس شأن علي في ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد علىٰ عماله والأمة كلها معه وأما علي فكان معظم الأمة عليه فضلاً عن أن كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بها كالحال في قيس بن سعد وعبد الله بن عباس .

وعلىٰ الجملة فإن أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إلىٰ عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأي الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعهد لها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة .

الحسن بن علي

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجد جندًا لا يركن إليه وخصمًا قوي الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم ير خيرًا لنفسه ولا لأمته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ وبذلك تم ما قاله رسول الله ﷺ «**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين**»(١) . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة .

مدنية الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين:

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئًا من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذي اتبعوه في أحوالهم الاجتماعية سواء في إدارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم .

الخلافة: أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الإسلامية وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله ﷺ فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم ما زال مستعملاً لقبًا لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعًا في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله ﷺ، فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا ما لا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه .

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٧) و (٣٤٣٠) من حديث أبي بكرة مرفوعًا .

وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا في الفتوىٰ كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمىٰ في عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرىٰ من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين فليست الخلافة فيما نرىٰ سلطانًا دينيًا كما يزعمون وإنما هي سلطان أساسه الدين.

لم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان وعلي من بني عبد مناف. وكان أساس الانتخاب الشورىٰ فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعي تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي.

وكانت الناس تبايع الخليفة علىٰ العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وزادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبي بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة في بيعة علي؛ لأنه أباها لما عرض عليه الأمر عبدالرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور أو أنهم لم يكونوا علىٰ درجة واحدة في ذلك، وكان أكثرهم اهتمامًا بالشورىٰ عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم علىٰ أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورىٰ خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبدالمطلب وعبدالرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ومن ماثلهم وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه وشورىٰ عامة من كل من له رأىٰ من المسلمين يعرض عليهم الأمر في المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خلصه.

وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متىٰ تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول: من

رأىٰ منكم فيّ اعوجاجًا فليقومه .

ورجال الشورىٰ كانوا مختارين من قبله إلا أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأي صغير القدر ، لأن حياتهم كانت مبنية علىٰ المساواة .

ولم يكن ينقص هذا النظام البديع إلا شيء واحد وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم ؛ لأن عدم هذا التعيين كان سببًا من أسباب الفرقة بين علي ومعاوية لأن عليًّا كان يرىٰ أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الأمصار الأخرىٰ فمتىٰ بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لأحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار فكانت تلك الفُرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين لم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير في طريقه وفي بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتىٰ إنه أرسل لسعد بن أبي وقاص من أحرق باب دار الإمارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه .

القضاء:

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات علىٰ حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة ، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلىٰ الاستفتاء ، ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هذا العمل إلىٰ من في مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاء إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلىٰ الأمصار ووضع لهم أنموذجًا يسيرون عليه واستمر الحال علىٰ ذلك إلىٰ آخر عهد الخلفاء الراشدين .

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل إلىٰ الدنيا واغترار بزخرفها يعدل

بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم فكان تعيينهم من الخليفة رأسًا وأحيانًا يكتب الخليفة إلىٰ الأمير أن يولي فلانًا قضاء بلده وعلىٰ الحالين التعيين صادر من الخليفة، وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبه علي بن أبي طالب إلىٰ أحد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادىٰ في الزلة ولا يحصر من الفيء إلىٰ الحق إذا عرفه ولا يشرف نفسه علىٰ طمع، ولا يكتفي بأدنىٰ فهم إلىٰ أقصاه، أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم وأصبرهم علىٰ تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته إلىٰ الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك).

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم إلىٰ ذلك أن سنة رسول الله ﷺ لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءًا والثاني جزءًا وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرىٰ فيها نصًا ويكون النص وهو الحديث عند غيره وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله ﷺ؟ ولم يجمعوا هذه الفتاوىٰ ولا الأقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم، وكان ما ذكرناه من أمر السنة سببًا كبيرًا من أسباب اختلافهم في الفتاوىٰ والأقضية.

لم يكن القاضي في أحكامه موكولاً إلىٰ الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولاً إلىٰ الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه علىٰ الحوادث والواقعات حقيقة أن ذلك القانون لم

يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيبًا في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

الاجتهاد للقاضي والحال ما ذكرنا أمر لابد منه، ولذلك أعده المتقدمون من الشروط المتحتمة.

لم يكن تعيين القضاة مانعًا الخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم، وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة فكأن القضاة كانوا نوابًا للخلفاء.

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأنا من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضي عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين.

ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرًا على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصًا أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضيًا ليس أميرًا قضى بعقوبة منها أو نفذها وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة؛ ولم يبلغنا أيضًا أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات.

قيادة الجيوش:

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله ﷺ يقود الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائدًا للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصرًا على تدبير أمر الجنود والنظر في معداتهم ولم تكن هذه الجنود

محصورة في ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف؛ وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ويرون في الإحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم.

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظا عظيمًا فبعد أن كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر وهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفر ويكر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظامًا رأى قواد الجنود من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنًا وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطريق وترتاد المواضع، وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى أو جناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم في الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم.

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول: (وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى

أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئًا فإن لهم حرمة وذمة . ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ؛ وإذا وطئت أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة، واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك) إلخ .

الخراج وجبايته:

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالاً مستقلين عن العمال والقواد وقليلاً ما كانوا يكلون أمر الجباية إلى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في مصارفه .

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية أو إيرادات غير ثابتة ، أما الأولى فهي : الخراج والعشر والصدقات والجزية .

والخراج : هو ما كان يوضع على الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة

وتركوها في أيدي أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم وكانوا يجعلونه أحيانًا شيئًا مقدرًا كما جعل عمر في السواد وأحيانًا يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب فهذه أرض عشر ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين، والعشر: هو عشر ما يخرج من الأرض.

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ما هذا برأي؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: فما الرأي ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ما هو إلا ما تقول ولست أرىٰ ذلك والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسىٰ أن يكون كلا علىٰ المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكن للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا علىٰ عمر وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا علىٰ قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد علىٰ أن يقول: هذا رأيي قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأىٰ عثمان وعلىٰ وطلحة وابن عمر رأي عمر، فأرسل إلىٰ عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تفرقون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي.

معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق قالوا: قل: نسمع يا أمير المؤمنين، قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرىٰ وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهل الجيش وأخرجت الخمس فوجهته علىٰ وجه وأنا في توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئًا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم، أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفه والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطىٰ هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ فقالوا جميعًا الرأي رأيك فنعما قلت وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما ينفقون به رجع أهل الكفر إلىٰ مدنهم.

فقال قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع علىٰ العلوج ما يحتملون فاجتمعوا له علىٰ عثمان بن حنيف وقالوا: تبعثه إلىٰ أهم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مائة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال.

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح فقال عمر: إذًا أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم. وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين.

قال أبو يوسف القاضي: والذي رأىٰ عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقًا من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين

وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ؛ لأن هذا لو لم يكن موقوفًا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقوا الجيوش على السير في الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة .

ولم يكن مقدار الخراج معروفًا تمامًا في عهد الخلفاء الراشدين .

والجزية ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل .

روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم «بالخراج» ص٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال : يهودي؟! قال : فما ألجأك إلى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهمًا في السنة ولا تنقص عن اثني عشر .

روي أن رسول الله ﷺ قال : «**من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه**» [(١)].
وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفون فوق طاقتهم .

---

(١) **صحيح** أخرجه أبو داود (٣٠٥٢) من حديث عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم .

الصدقات:

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابًا معينًا لا تجب الزكاة فيما دونه وقدراً معينًا لا يؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله ﷺ قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية.

العشور (الجمارك):

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليهم عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهمًا درهمًا وليس فيما دون المائتين شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه.

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب.

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفًا فأخذ منه ألفًا ثم مر عليه راجعًا في سنته فقال: أعطني ألفًا أخرى فقال له التغلبي: كلما مررت بك تأخذ مني ألفًا قال نعم: فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت فأستأذن عليه فقال: من أنت؟ قال: رجل من نصارى العرب وقصّ عليه قصته فقال عمر: (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفًا أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه من مر عليك

فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئًا إلىٰ مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً. فقال الرجل: قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفًا وإني أشهد أني علىٰ دين الرجل الذي بعث إليك الكتاب.

قد اتبع المسلمون عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج البلاد الإسلامية إلىٰ بلاد المسلمين. قال أنس بن سيرين: أرداوا أن يستعملوني علىٰ عشور الأبلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الإنسان قال: فقال لي: لا تفعل عمر صنعه فجعل علىٰ أهل الإسلام ربع العشر وعلىٰ أهل الذمة نصف العشر وعلىٰ المشركين ممن ليس له ذمة الشرك.

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك علىٰ أهل الذمة كما فعلوا مع نصارىٰ تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم.

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة إلىٰ بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون في بيت المال وفرًا وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة.

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها علىٰ الغانمين والخمس الباقي يرد إلىٰ بيت المال ليصرف في مصارفه.

النقود:

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرىٰ وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم؛ لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها إذ ذاك البداوة ولما جاء الإسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار علىٰ تلك الحال مدّة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح علىٰ عهد عمر واستولىٰ المسلمون علىٰ بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأىٰ عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأىٰ الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة

الوزن فمنها درهم وزن المثقال عشرون قيراطًا ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهي ٤٢ قيراطًا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطًا من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كل منها ـ ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثقال كنسبة ١٠ ـ ٧ نقل المرحوم على مبارك باشا في «خططه» عن المقريزي قال: وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها الله أكبر.

الحج:

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم وكان الحج معتبرًا في نظر الخلفاء الراشدين موسمًا عامًا يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان أكثرهم توليًا لأمر الحج بنفسه عمر ابن الخطاب حج سنيه كلها لم يتخلف أبدًا إلا أنه حصل خلاف في السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعليّ أناب عنه كل سني خلافته لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية.

كان هذا الاهتمام بأمر الحج جعل له مظهرًا عظيمًا وفائدة كبرى في تعارف المسلمين بعضهم ببعض وأن الخلفاء يجيئهم من الأخبار ما لا يمكن أن يكون بواسطة الولاة.

الصلاة:

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو الذي يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه وكان في كل مصر مسجد جامع واحد تؤدي به الجمعة ولا ينصب منبر في غيره فلم تكن تقام إلا جمعة واحدة في المصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالي ولم

يبلغنا أنه تعددت المنابر في البلد الواحد في عهد الخلفاء الراشدين .

العلم والتعليم:

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة في الأمة العربية خصوصًا الحجاز ونجد، فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب .

ففي زمن رسول الله ﷺ استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه .

ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة، أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكُتَّاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله ﷺ .

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع في صحف في عهد أبي بكر وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها إلى الأمصار ليكون كل مصحف إمامًا لأهل المصر الذي أرسل إليه . أما سنة رسول الله ﷺ فلم تجمع في كتاب .

وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستعلون بفهمها، وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لا تزال فيها على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق .

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية ـ معاوية وترجمته ـ انتخابه

حال الأمة حين انتخابه

الدولة الأموية:

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيدًا من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلاً تاجرًا كثير المال أعقب كثيرًا من الأولاد، والمال وكثرة العصبة كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس: وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الأعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص.

وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس إلى الصلح في ذلك اليوم، رهن لسدادها ولده أبا سفيان، وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلاً، وأبو سفيان كان صديقًا للعباس بن عبد المطلب.

فلم يكن هذان البطنان متعاديين في الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق في المسائل التاريخية وإنما كان يظهر في بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحيان المتقاربة، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف في الجاهلية الأولى؛ بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطًا وافرًا.

لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بني عبد شمس جمع

كما أجابه من بني هاشم، وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنه كثير من أولئك إلا أن بني هاشم وبني المطلب حدبًا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته، وكان يزاحم بني عبد مناف في الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي.

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله ﷺ كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بني هاشم إلا أبو لهب جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله ﷺ إلا عدد قليل من بني عبد شمس وكان القائد الأكبر لقريش في بدر من بني عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم في أحد والأحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة وكان أبو سفيان رجلاً عظيمًا في نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالبًا محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك إلى رسول الله ﷺ فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفًا له وتحببًا إليه ما لم يعطه أحدًا، وهو أن أمر مناديًا ينادي بمكة: من أغمد سيفه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فسوى بين بيته وبين بيت الله، وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن، وفي ذاك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوي النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح.

وكان رسول الله ﷺ أسرّ الناس بإسلامهم كان يقابلهم قائمًا فاتحًا ذراعيه معانقًا لهم كما فعل بصفوان بن أمية والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله ﷺ أن عفوه عنهم سيكون عيبًا لاحقًا بهم يعيرون به في مستقبل أيامهم.

وبعد انتهاء فتح مكة ولي عليها شابًا من بني عبد شمس، استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيمًا وأغنوا غناء حسنًا ثم سير بهم إلى ثغور الشام وكانوا كلهم في شوق

إلىٰ وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم للإسلام حتىٰ يكتب لهم في نصرته ما يمحو ما كتب عليهم في مغاضبته.

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبي سفيان، فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الأربعة التي توجهت لفتوح الشام وكان الوالي علىٰ دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملاً علىٰ إحدىٰ الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر علىٰ عمله أخاه معاوية مضافًا إلىٰ ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحس منه بحسن السياسة وقوة التدبير والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله: وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولي علىٰ الكور عمالاً من قبله.

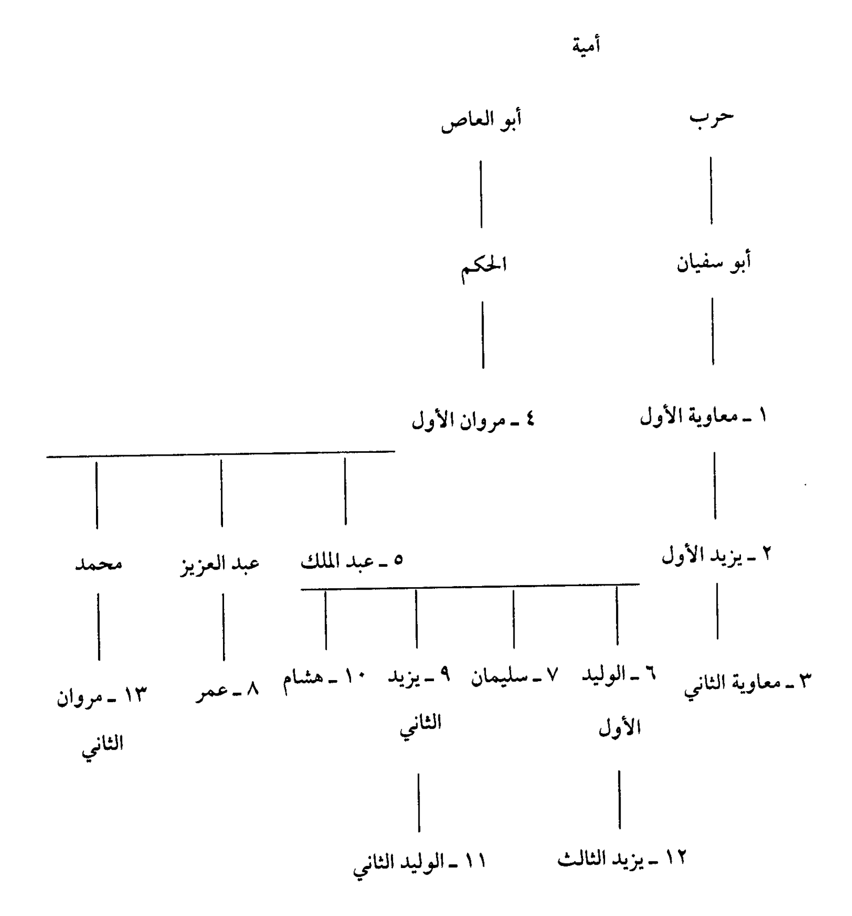
ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بني عبد شمس فساسوا الجنود وأرهقوها بالطاعة.

وعلىٰ الجملة فإن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلىٰ سيادة في الإسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام «**الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1] فاتصلت له السيادتان.

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان: فرع حرب بن أمية، وفرع أبي العاص بن أمية، وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء، ومن الثاني عشرة علىٰ الشكل الآتي:

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٥)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة.



فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدئ من اليوم الذي بويع فيه معاوية بيعة عامة في ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهي بمقتل مروان الثاني بن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذي الحجة وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر .

١ ـ معاوية بن أبي سفيان

ترجمته:

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنة ٢٣ وفي ذلك اليوم دخل في الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدي رسول الله ﷺ، وفي خلافة أبي بكر ولاه قيادة جيش مددًا لأخيه يزيد ابن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازيًا تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الأردن . ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق وما معها .

وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره وما زال واليًا حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع علي بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة في أمر عثمان وإيواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه علي بن أبي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لإمامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية إمام أهل الشام وعلي إمام أهل العراق وما زال الخلاف محتدمًا بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية وحينئذ اجتمع على بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادي والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الأول سنة ٤١ .

طريقة انتخاب معاوية:

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخابًا عامًا يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة.

فلما قتل علي بن أبي طالب وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه فبايعه في ربيع الأول سنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق، إلا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ما عدا الخوارج.

حال الأمة عند استلام معاوية الأمر:

تولى معاوية أمر الأمة، وهي أقسام ثلاثة:

القسم الأول:

شيعة بني أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار الإسلامية.

القسم الثاني:

شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر.

القسم الثالث:

الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علي لأن كلاً قد ألحد - على زعمهم - في الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والإقدام ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شئونها وإفاضة ثوب الأمن عليها، أما

معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يدًا في السياسة صافع رءوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام.

كان الذي يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غَلوا في الدين غُلوًا عظيمًا وفهموا كثيرًا منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبهم استعراض الأنفس وأخذ الأموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم.

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعي معتزلاً في ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل إليهم معاوية جمعًا من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لأهل الكوفة والله لا أمان لكم عندي حتى تكفونيهم فخرج إليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لابدّ لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهرًا وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال:

ما إن أبالي إذا أرواحنا قبضت	**ماذا فعلتم بأوصال وأبشار**
تجري المجرة والنسران عن قدر	**والشمس والقمر الساري بمقدار**
وقد علمت وخير القول أنفعه	**أن السعيد الذي ينجو من النار**

فلما قتل ابن الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الأسدي فسار حتى قدم النخيلة في ١٥٠ وانضم إليه فلّ ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبي حوثرة اكفني أمر ابنك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره فصمم فقال له يا بني أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه فقال يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني فرجع إلى معاوية فأخبره فقال

يا أبا حوثرة عتا هذا جـداً ولما نظر حوثرة إلىٰ أهل الكوفة قال يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج إليه أبوه فدعاه إلىٰ البراز فقال يا أبت لك في غيري مندوحة ولي في غيرك مذهب عنك ثم حمل علىٰ القوم وهو يقول :

أكـرر علىٰ هذي الجـمـوع حـوثـرة فـعن قليل مـا تـنال المغـفـــــرة

فحمل عليه رجل من طيئ فقتله فرأىٰ أثر السجود وقد لوح جبهته فندم علىٰ قتله ، ثم توالت الخوارج حتىٰ أخافوا بلاد العراق فرأىٰ معاوية أنه لابد من تولية العراق رجالاً ذوي قدرة وحكمة يأخذون علىٰ أيدي السفهاء ويشتدون في طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة .

فأما زياد فقد كان من شيعة علي وكان واليًا له علىٰ فارس وقتل علي وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطًا في استقدامه فأتىٰ المغيرة زياداً وقال له إن معاوية استخفه الوجل حتىٰ بعثني إليك ولم يكن أحد يمد يده إلىٰ هذا الأمر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغني عنك معاوية فقال زياد أشر علي وأرم الغرض الأقصىٰ فإن المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أرىٰ أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليه ويقضي الله ، وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عودة المغيرة فخرج زياد من فارس حتىٰ أتىٰ معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل إلىٰ علي وبما بقي عنده فصدقه معاوية وقبض منه ما بقي عنده .

وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقه بأبي سفيان لاعتراف كان من أبي سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب إلىٰ زياد في حياة علي يعرض له بولادة أبي سفيان إياه فلما علم بذلك علي كتب إلىٰ زياد يقول له (إني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثًا ولا تحل له نسبًا وأن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه

ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل عليّ رأى معاوية أن يستميل زيادًا واستصفى مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد ابن أبي سفيان وإن كان كثير من الناس لا يعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد إلى عائشة أم المؤمنين يقول لها من زياد بن أبي سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت إليه من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجرًا فجاء إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له يا بني قل لأبيك إنني سمعت أنك تريد الحج ولابد من قدومك إلى المدينة ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ فإن أذنت لك فأعظم به خزيًا مع رسول الله وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا فترك زياد الحج.

وفي السنة الخامسة والأربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما في هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته في حكم البلاد أحببنا إيرادها قال:

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول.

أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركتم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله؛ ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصرة والعدد غير قليل! ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتعضون على

المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً.

ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً.

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله: لين في غير ضعف وشدة في غير عنف وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم وإياي ودعوى الجاهلية فإني لا أجد أحداً عليها إلا قطعت لسانه.

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقلما أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

وقد كان بيني وبين أقوام إحن جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته إني لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس إذا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي

أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أباني طارقًا بليل ولا حابسًا رزقًا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمرًا لكم بعثًا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًا لكم.

أسأل الله أن يعين كلاً على كل فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود فقال الأحنف لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وإنا لن نثني حتى نبتلى فقال صدقت: فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٧-٣٩] فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد. فقال زياد إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوضًا.

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الكوفة وعاد إليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنسانًا يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج، فلا يرى إنسانًا إلا قتله فأخذ ذات ليلة أعرابيًا فأتى به زيادًا فقال له هل سمعت النداء فقال: والله قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال أظنك والله صادقًا ولكن في قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضربت عنقه. وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكد الملك

لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفًا شديدًا حتى أمن بعضهم بعضًا وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط أربعة آلاف.

وقيل له إن السبيل مخوفة فقال لا أعاني شيئًا وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبني فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه.

قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة.

ووجه يومًا بحينة بن كبيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأي الخوارج فجاء بحينة فأخذه فقال إني أريد أن أحدث وضوءًا للصلاة فدعني أدخل إلى منزلي قال ومن لي بخروجك؟ قال: الله عز وجل، فتركه فدخل فأحدث وضوءًا ثم خرج فأتى به بحينة زيادًا فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عني فأنكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولاً فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضرًا ولا نفعًا لنفسه ولا حياة ولا نشورًا فرزق الله منه ما ترون.

وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن إتياني إلا الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي.

وبلغ زيادًا عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأي الخوارج فدعاه فولاه جند يسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر

وجعل عملته في كل سنة مائة ألف، فكان أبو الخير يقول: ما رأيت شيئًا خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل واليًا حتى أنكر منه زياد شيئًا فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات.

وفي سنة ٥٠ أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فصار والي المصرين وهو أول من جمعا له فسار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قومًا من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه؛ ولا يقولن لا أدري من جليسي، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة؛ يحلفون ما منا حصبك، فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتى صار إلى ثلاثين فقطع أيديهم.

واتخذ زياد المقصورة حين حصب. وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها.

كان بالكوفة جماعة من شيعة عليّ على رأسهم حجر بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعماله، فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال: أما بعد فإن غب البغي والغي وخيم إن هؤلاء جمعوا فأشروا وأمنوني فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالاً لمن بعده، ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان.

وأرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر أن يجيء؛ فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك؛ قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا

وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق إلىٰ حجر فائتني به، فإن أبىٰ فشدوا عليهم بالسيوف حتىٰ تأتوني به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جيء به فلما رآه زياد قال له مرحبًا أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس علىٰ أهلها تجني براقش، فقال حجر: ما خلعت طاعة؛ ولا فارقت جماعة وإني علىٰ بيعتي فأمر به إلىٰ السجن، ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم، وعدتهم اثنا عشر رجلاً فأودعهم السجن وأحضر شهودًا شهدوا علىٰ حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلىٰ حرب أمير المؤمنين وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه علىٰ مثل رأيه وكان الشهود علىٰ ذلك كثيرين من أهل الكوفة، فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه إلىٰ معاوية فسير بهم حتىٰ انتهوا إلىٰ مرج عذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة؛ وهم الذين تبرءوا من عليّ بن أبي طالب.

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبدالرحمن بن الحارث إلىٰ معاوية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبدالرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية، فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم يغير شيئًا إلا صارت بنا الأمور إلىٰ ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر: وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حُجرًا وكانت تتشيع:

ترفع أيها القمر المنير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولاً	كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديا	وشيخا في دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا إلى هلك يصير

وتوفي زياد في سنة ٥٣ بالطاعون .

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكم عرفي فإن أخذ الوليّ بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمه بالسقيم - أمر ليس جاريًا على القانون الشرعي الذي يقصر المسئولية على المجرم وإنما ذلك شيء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقتية .

ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبرًا دفنته فيه حيًّا ومن ذلك : عقوبته للمدلج بالقتل ، كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقة لأهل العراق وقد أفادت في إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقل خروج الخوارج في زمنه ولكنه ضحى في سبيل الوصول إلى ذلك شيئًا كثيرًا والتاريخ إنما يعطي الإنسان صفة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضمًا لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاة العراق إسرافًا في الدماء ، ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال إنه لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقًا بليل ولا يحبس عطاءً ولا رزقًا عن إبانه ولا يجمر لهم بعثًا ، وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالي وصدقها لا تجد سببًا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زيادًا لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات إلا قليلاً لأن علمهم بصدقه في الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم .

وعلى الجملة ، فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن ؛ وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفا وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة وإذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا إلى الأمراء أو الخلفاء من غير بينة واضحة .

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة - عبيد الله بن زياد - الفتوح في عهد معاوية بيعة يزيد - وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة:

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين.

أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال إن فلانًا يرى رأي الشيعة وإن فلانًا يرى رأي الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضًا، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر، وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر؛ منهم المستورد ابن علفة التميمي؛ من تيم الرباب؛ وحيان بن ظبيان السلمي ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين، فقالوا: ما أردنا من ذلك شيئًا، ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب - قال المغيرة بلى قد بلغني ذلك عنكم قد صدق ذلك عندي جماعتكم قالوا له: أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه، فأمر بهم إلى

السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة ، وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد وأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا علىٰ رجل منهم فقام في أهل الكوفة خطيبًا فقال :

(أما بعد : فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذىٰ وإني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بدًّا من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار) .

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال : أيها الأمير هل سمي لك أحد من هؤلاء القوم فإن كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفينا كهم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها فقال ما سمي لي أحد منهم ولكن قد قيل لي إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل : أمصلحك فإني أسير في قومك وأكفيك ما هم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه ، فنزل المغيرة وأرسل إلىٰ الرؤساء وقال لهم : ليكفني كل امرئ من الرؤساء قومه وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون إلىٰ ما تنكرون وعما تحبون إلىٰ ما تكرهون فلا يلم لائم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلىٰ عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم علىٰ من يرون أنه يهيج فتنة أو يفارق جماعة .

ولما كان الخوارج قد نزلوا في إحدىٰ دور عبد القيس قام صمصمة بن صوحان العبدي وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار العبدي فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطابًا حسنًا قال في آخره (ولا قوم أعدىٰ لله ولكم لأهل بيت نبيكم وجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة

الذين فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فإياكم أن تؤووهم في داركم أو تكتموا عليهم فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدىٰ لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكي لي ذلك حقًا تقربت إلىٰ الله بدمائهم فإن دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدي ولما بلغ من في محبس المغيرة إجماع أهل المصر علىٰ نفي من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ ابن جوين في ذلك:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها ... إقامتكم للذبح رأيًا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتني فيكم على ظهر سايح ... شديد القصيري دارعًا غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوكم ... فيسقيني كأس المنية أولا
يعز عليّ أن تخافوا وتطردوا ... ولما أجرد في المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد ... إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحا بنصل السيف في حمس الوغى ... يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعز عليّ أن تضاموا وتنقصوا ... وأصبح ذا بث أسيرًا مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم ... أثرت إذًا بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة ... شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلىٰ سور فتتاموا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلىٰ الصراة فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الجبن وسوء الرأي فمن ترون أبعث إليهم فقام إليه عدي ابن حاتم فقال كلنا لهم عدوّ ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار إليهم فقام معقل بن قيس فقال إنك لا تبعث إليهم أحدًا ممن ترىٰ حولك من

أشراف المصر إلا وجدته سامعًا مطيعًا ولهم مفارقًا ولهلاكهم محبًا ولا أرىٰ أصلحك الله أن تبعث إليهم أحدًا من الناس أعدىٰ لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني إليهم فإني أكفيكهم بإذن الله فقال اخرج علىٰ اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيرهم من نقاوة شيعة علي وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري في ٣٠٠ رجل فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتىٰ إذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلىٰ من معه فما ثبت لهم إنسان ثم إن أبا الرواغ صاح وقال: يا فرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة فعادوا إلىٰ الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضًا وانكشفوا فقال لهم أبو الرواغ: انصرفوا بنا فلنكن قريبًا منهم لا نزايلهم حتىٰ يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع إلىٰ الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتىٰ يشتد القتال وتكثر القتلىٰ فقال له رجل إن الله لا يستحي من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر الله فينا مثلك إنا ما لم ندع المعركة فلم نهزم إنا متىٰ عطفنا عليهم وكنا قريبًا منهم فنكن علىٰ حال حسنة حتىٰ يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبًا منهم حتىٰ قدم معقل فشكر أبا الرواغ علىٰ ثباته فقال له أبو الرواغ: أصلحك الله إن لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس ردءًا لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتىٰ شدوا عليه وعلىٰ أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الأرض الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفي أثنائه بلغ الخوارج أن جيشًا من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعًا آثارهم وأبو الرواغ علىٰ مقدمته في ٦٠٠ رجل فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدّوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبي الرواغ وبقي معه نحو مائة رجل فعطف عليهم وهو يقول:

إن الفــتى كل الفــتى من لم يـهل ... إذا الجـبـــان حـــاد عن وقع الأسل
قــد علمت أني إذا البـــأس نــزل ... أروع يــوم الهــيج مــقــدام بطــــل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم إلى مكانهم الذي كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجيء معقل فتركوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ في آثارهم.

قال المستورد لأصحابه إن الذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلاً قبل أن يلتقي بأصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد أن خدعه ولم يكن إلا قليل حتى التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى يا عباد الله الأرض الأرض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة: وبينا هم على تلك الحال إذ طلعت عليهم مقدمة أصحاب الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ما عدا خمسة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن أن يماثلهم أحد في شداتهم المنكرة قال الشعبي ما ولينا وال بعد المغيرة مثله وإن كان لاحقًا بصالح من كان قبله من العمال.

وأقام المغيرة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهرًا وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حبًا للعافية غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه وكان يقول لا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني

وبينهم الموت وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم أحمدهم للبريء وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر .

وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لأنه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف .

ومن ولاة العراق الأشداء عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة٥٥ وقد اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبوه زياد ، فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفي الحرب جماعة أخرى ، وممن قتل صبراً عروة بن أدية ؛ أخو أبي بلال مرداس بن أدية وكان سبب ذلك أن ابن زياد خرج في رهان له ، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية فأقبل على بن زياد فقال خمس كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠] وذكر خصلتين أخريين .

فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليه إلا ومعه جماعة من أصحابه ، فقام وركب وترك رهانه : فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبه ابن زياد في الكوفة فأخذ بها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف ترى قال أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله ، وأرسل إلى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعين رجلاً بالأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم :

أألفا مؤمن فيما زعمتم	ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم	على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتى توفي معاوية .

وفي مصر كان الوالي عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها و لم يزل واليًا عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه، ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتي ذكرهم متى بدأنا في تاريخ مصر.

أما الحجاز فكان ولاته دائمًا من بني أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاه الطائف فإن رأى منه خيرًا وما يعجبه ولاه مكة معها فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قيامًا حسنًا جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل هو في أبي جاد فإذا ولاه مكة قيل هو في القرآن فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق، وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم يحج بنفسه إلا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية.

الفتوح في عهد معاوية:

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتوح قليلة والذي كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبدالله بن سوار العبدي الذي كان أميرًا على ثغر السند القيقان[1] مرتين وفي المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه وغزا المهلب بن أبي صفرة الأزدي ثغر السند فأتى بتة ولاهور[2] وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسًا من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعًا فقال المهلب ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشهير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين.

وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان: أحدهما قسطنطين الثاني بن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغاناتس

---

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان. (المؤلف).
(٢) مدينة بكابل. (المؤلف).

الذي ولي من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً.

أما البحر فكانت الأساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفًا وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس افتتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم.

وأما في البر فرتب الشواتي والصوائف والشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشًا عظيمًا لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابي فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتد الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول:

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق	**شتى فصادفت منها اللين والبشعا**
كلاً بلوت فلا النعماء تطربني	**ولا تخشعت من لأوائها جزعا**
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه	**ولا أضيق به ذرعًا إذا وقعا**

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه والله هلك فتى العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك فآجرك الله فقال:

فإن يكن الموت أودى به	**وأصبح مخ الكلابي زيرا**

فكل فتى شارب كأسه فإما صغيراً وإما كبيراً

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفنهم.

وفي أثناء الحصار توفي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد وهو الذي نزل عليه رسول الله ﷺ بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريبًا من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة إلىٰ الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم.

ومن الفتوح العظيمة ما كان في إفريقية ففي سنة ٥٠ ولىٰ معاوية عقبة بن نافع وكان مقيمًا ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فدخل إفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأىٰ أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنىٰ المسجد الجامع وبني الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتُغِير ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا علىٰ المقام فثبت الإسلام فيها.

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولىٰ علىٰ مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل علىٰ إفريقية مولىٰ له يقال له أبو المهاجر فقدم إفريقية وأساء، عزل عقبة واستخف به وهذا من الخلل القديم الذي يئن منه المسلمون إلىٰ الآن فإن الخلف كان من الولاة عوضًا عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد في تصغيره

وتحقيره حتىٰ ينطفىء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم للآن فإنه ما ولي إنسان عملاً بعد رجل آخر إلا اجتهد أن يسيء سمعته ويبين للناس أنه لم يكن يحسن أن يسير فيما ولي سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في إدارته حتىٰ يكون للأول الاسم وحده والأمة التي عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن أن تنجح أو تسود.

عاد عقبة إلىٰ الشام وعاتب معاوية علىٰ ما فعله أبو المهاجر فاعتذر إليه ووعده بإعادته إلىٰ عمله وتمادىٰ الأمر حتىٰ توفي معاوية وسنبين لكم في خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلىٰ عمله.

البيعة ليزيد بولاية العهد:

فكر معاوية أن يأخذ الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فإنه دخل علىٰ يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله ﷺ وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقي أبناءهم وأفضلهم وأحسنهم رأيًا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة.

قال: أو ترىٰ ذلك يتم قال: نعم. فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعهد له فإن حدث بك حادث كان كهفًا للناس وخلفًا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة قال: ومن لي بذلك؟ قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال: فارجع إلىٰ عملك وتحدث مع من تثق به في ذلك وترىٰ ونرىٰ.

فسار المغيرة إلىٰ الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية ـ أمر يزيد فأجابوا إلىٰ بيعته فأوفد منهم وفداً عليهم ابنه موسىٰ فقدموا علىٰ معاوية

فزينوا له بيعة يزيد فقال معاوية لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد.

فأرسل إلى زياد يستشيره فأحضر زيادٌ عبيدَ بن كعب النميري وقال إن لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعًا وإن الناس قد أبدع بهم خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه قد خَبَرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف إن أمير المؤمنين كتب إليّ يستشيرني في البيعة ليزيد وأنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلات يزيد وقل له: رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم لك ولا تعجل فإن دركًا في تأخير خير من فوت في عجلة، فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟ قال: وما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه ولا تبغض إليه ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له وإنك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره اشخص على بركة الله فإن أصبت فمما لا ينكر وإن يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضي الله بغيب ما يعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة وأن لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له: إني كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدي وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك فقام مروان في الناس فأخبرهم فقالوا أصاب ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو فكتب مروان

إلى معاوية بذلك فأعاد إليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد؛ فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال: ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية: إن كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولي أمر أمة محمد. ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري لما اجتمعت الوفود عنده إني متكلم فإذا سكت فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثني عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين إنه لابدّ للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته أعلى ما علمت وهو من أفضلنا علمًا وحلمًا وأبعدنا رأيًا فوله عهدك واجعله لنا علمًا بعدك ومفزعًا نلجأ إليه ونسكن في ظله.

ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للأحنف بن قيس: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضًا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة وإنما علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا.

كان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر

الناس وبايعوه، فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلىٰ الحجاز في ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه؟ وما أظن قومًا بمنتهين حتىٰ تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت أن أغنت النذر ثم أنشد متمثلاً:

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو أطعني وانطلق

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

دونك ما استسقيته فاحس وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلىٰ مكة فخرج معاوية إلىٰ مكة وقضىٰ بها نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا علىٰ أن يكون الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فقال ابن الزبير: نخيرك بين ثلاث خصال قال: اعرضهن قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحدًا فارتضىٰ الناس أبا بكر قال معاوية ليس فيكم مثل أبي بكر فإنه عهد إلىٰ رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورىٰ في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بني أبيه.

قال معاوية هل عندكم غير هذا؟ فقالوا: لا قال: فإني أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني علىٰ رءوس الناس فأحمل ذلك فأصفح فإني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد عليّ أحد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتىٰ يسبقها السيف إلىٰ رأسه فلا يُبقين رجل إلا علىٰ نفسه، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم علىٰ رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد علىٰ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما.

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها.

ونقول: إن فكر معاوية في اختيار الخليفة بعده حسن جميل وإنه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار ـ فأحسن ما يفعل هو أن يختار الخليفة ولي عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة فطلب وفود الأنصار فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيد ابنه.

والذي ينقده التاريخ من أمره هو:

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الأمة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين؛ لا جرم أن كان من نتائج تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد.

(٢) مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة وبذلك سن في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا: إن هذه الطريقة التي سنها معاوية؛ تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعل في أسرة الخلافة الترف والانغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس.

أما رأينا في ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً حتماً لا بد منه لصلاح أمر المسلمين

وألفتهم ولمّ شعثهم فإنه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب ـ فإن الاختلاف لا بد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش ـ فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية ـ لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين .

إن أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل عليّ ويسوقون الخلافة في بنيه يتركها الأب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقًّا من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمرًا لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الإسلامية .

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين:

إن الناظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تمامًا يأخذ كل إنسان ما له ويعطي ما عليه فإن تأخر في واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدي الميل لم تكثر بينهم الاختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرجه عن حقيقته التي تدعو الناس إلى التآلف والتآزر والتحابّ .

أما في هذا العهد: فإن الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن فكانت السياسة التي حكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل إهراق الدماء . ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابي الذي أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد؟ صدقه لكنه قال : إن في قتلك صلاحًا للرعية .

لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلاً يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفًا وقتيًا.

ومما ننقده على هذا العهد: اهتمام معاوية بالتشهير بعلي على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى بأمره وكان يعلم يقينًا أن هذه الأقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندري ما الذي حمله على أن جعل ذلك فرضًا حتمًا في كل خطبة كأنه ركن من أركانها لا تتم إلا به.

من المحدثات الجميلة التي حدثت في عهد معاوية: البريد ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزلة دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة، فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعًا حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال في أسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً وتسمى هذه المسافة بريدًا.

وروى ياقوت في «معجم البلدان» أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل: بريد، أي: قطع فعرب فقيل: خيل البريد، وقال ياقوت: إنه روى هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر.

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما اتخذه بعد أن كان ما كان من إرادة الخارجي قتله.

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد ففتح عمرو الكتاب وصيّر المائة مائتين فلما رفع زياد

حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبلُ لا تحزم.

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر أنه كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصاري ثم أبو إدريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاض خاص.

بيت معاوية:

(١) تزوج ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه.

(٢) فاختة بنت قرظة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيراً.

(٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها.

(٤) كتوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك.

وفاة معاوية:

مرض معاوية بدمشق في جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائبًا فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان فيها: (يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإنَّ عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك. فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم.

وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة من قريش: الحسين بن

عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن عليّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتىٰ يخرجوه فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه فإن له رحمًا ماسة وحقًّا عظيمًا وقرابة من محمد ﷺ؛ وأما ابن أبي بكر فإن رأىٰ أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثله ليس له همة إلا في النساء واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها فظفرت به فقطعه إربًا إربا، واحقن دماء قومك ما استطعت).

ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠هـ (٧ إبريل سنة ٦٨٠م) فخرج الضحاك بن قيس حتىٰ صعد المنبر وأكفان معاوية علىٰ يديه فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: إن معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع الله به الفتنة وملكه علىٰ العباد وفتح به البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج إلىٰ يوم القيامة فمن كان يريد أن يشهده فعنده الأولىٰ وصلىٰ عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلىٰ يزيد فقال في ذلك يزيد:

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعًا

قلنا: لك الويل ماذا في كتابكم؟ ... قال: الخليفة أمسى مثبتًا وجعًا

ثم انبعثنا إلى خوص مزممة ... نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعًا

فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا

من لم تزل نفسه توفي على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا

لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا

ثم ارعوى القلب شيئًا بعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعًا

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعًا فماتا قاطنين معًا

أغر أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتىٰ قبره فصلىٰ عليه.

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الأول ـ كيفية انتخابه ـ مقتل الحسين ـ وقعة الحيرة حصار مكة ـ الفتوح في عهد يزيد ـ بيته ووفاته

٢ ـ يزيد الأول

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمه ميسون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى في حجر الإمارة ولما شب في خلافة أبيه كان يرشحه للإمارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرمًا بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذ ذاك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامي بعد.

كيفية انتخابه:

عهد إليه أبوه بالخلافة من بعده بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر؛ فلما توفي معاوية لم يكن ليزيد إلا مبايعتهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له: (أما، بعد فخذ حسينًا وعبد الله بن عمر وابن الزبير أخذًا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعي معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر.

فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية ـ استرجع وترحم على معاوية وقال: أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سرًّا ولا يجتزي بها مني سرًا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم ـ كان الأمر واحدًا فقال له الوليد وكان يحب العافية: انصرف فانصرف.

وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال إني عائذ بالبيت ولم يكن يصلي

بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن علي وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبىٰ الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه.

أما ابن عمر فإنه قال: إذا بايع الناس بايعت، فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس.

حادثة الحسين:

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي وهو أثقل خلق الله علىٰ ابن الزبير لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بالبلد.

لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة إلىٰ منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا إلىٰ الحسين يستقدمونه ليبايعوه فكتبوا إليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب إليهم: (أما بعد، فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إليّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجىٰ منكم علىٰ مثل ما قدمت به رسلكم - أقدم إليكم وشيكًا إن شاء الله فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام).

ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوىٰ الله وكتمان أمره واللطف فإن رأىٰ الناس مجتمعين عجل إليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصاري فأقبلت إليه الشيعة تختلف إليه.

ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال: أما بعد: فلا تسارعوا إلىٰ الفتنة والفرقة فإن فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليمًا ناسكًا يحب العافية ثم قال: إني لا أقاتل إلا من يقاتلني ولا أثب علىٰ من

لا يثب علي ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولو لم يكن لي منكم ناصر ولا معين أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل فقام إليه رجل من شيعة بني أمية وقال له: إنه لا يصلح ما ترىٰ إلا الغشم إن هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين فقال أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعزين في معصية الله، ونزل.

فكتب ذلك الرجل إلىٰ يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول: إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويًا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولىٰ علىٰ الكوفة عبيد الله بن زياد أمير البصرة فجعله والي المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد إلىٰ الكوفة وخطب في أهلها فقال:

(أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاني مصركم وثغركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلىٰ سامعكم ومطيعكم وبالشدة علىٰ مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشفيق وسيفي وسوطي علىٰ من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ علىٰ نفسه).

ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال: اكتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم إلي برئ ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب علىٰ باب داره ألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلىٰ موضع بعمان الزارة.

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهانئ بن عروة المرادي فأجاره متكرهين وصارت الشيعة تختلف إليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانئ فاستقدم هانئًا فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيد الله :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقال : هانئ وما ذاك؟ فقال يا هانئ ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفىٰ لك وقد أراد هانئ أن ينكر فلم يجد إلىٰ الإنكار سبيلا فطلب منه ابن زياد أن يسلم إليه مسلمًا فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر .

ولما علم بذلك مسلم نادىٰ في أصحابه بشعارهم : يا منصور ، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا وحوله في الدور أربعة آلاف فاجتمع إليه ناس كثير فعبأهم وأقبل إلىٰ القصر فأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من الأشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الأشراف وأبقىٰ عنده بعضهم استئناسًا بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر علىٰ الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية .

ولما رأىٰ الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتىٰ لم يبق مع ابن عقيل في المسجد إلا ثلاثون رجلاً فحار في أمره أين يذهب واختفىٰ فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل إليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث : إني أراك تعجز عن أماني فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذي

كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جيء بمسلم إلىٰ ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانئ بن عروة المرادي .

أما أمر الحسين فإنه لما عزم علىٰ المسير إلىٰ الكوفة جاءه عمرو بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فقال له : بلغني أنك تريد العراق وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً .

وجاءه ابن عباس فقال له : قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع؟ فقال : قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين فقال له ابن عباس : أعيذك بالله من ذلك خبرْني رحمك الله : أتسير إلىٰ قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبىٰ بلادهم ـ فإنما دعوك إلىٰ الحرب ولا آمنُ عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك ، فقال الحسين : فإني أستخير الله وأنظر ما يكون .

ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال : يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ، ثم أقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلىٰ اليمن فإن بها حصونًا وشعابًا وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلىٰ الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية .

فلم يسمع منه الحسين . فقال له ابن عباس : فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه فلم يفد كلامه شيئًا .

ثم سار بأهله وأولاده فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله عن خبر الناس فقال له: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء.

ثم جاءه كتاب من عبدالله بن جعفر يقسم عليه بالله إلا ما انصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجوع فأبىٰ وتم علىٰ وجهه فقابله عبدالله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له: أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك أنشدك الله في حرمة العرب فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلُنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً، والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأتي الكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية فأبىٰ إلا أن يمضي.

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه: ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك؛ فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا: والله لا نبرح حتىٰ ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم فسار حتىٰ نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال: أنشدك الله إلا ما انصرفت فوالله ما تقدم إلا علىٰ الأسنة وحد السيوف إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطنوا لك الأشياء فقدمت عليهم - لكان ذلك رأيًا، فأما علىٰ هذه الحال التي تذكر فلا أرىٰ أن تفعل.

فأبىٰ أن يرجع ولما ترك شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين: أيها الناس إنها معذرة إلىٰ الله وإليكم إني لم آتكم حتىٰ أتتني كتبكم ورسلكم: أن أَقْدِمَ علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بك علىٰ الهدىٰ - فقد جئتكم فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم أَقْدِمْ مصركم وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلىٰ المكان الذي أقبلنا منه فلم يجيبوه بشيء في ذلك ثم قال له الحر: إنا أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتىٰ نقدمك الكوفة علىٰ عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنىٰ إليك من

ذلك .

ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحرّ من ذلك فقال الحسين : ثكلتك أمك ما تريد؟ فقال : أما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائنًا من كان ولكني والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه ثم صار الحر يراقبه حتى لا يتمكن من الانصراف إلى المدينة .

فسار الحسين يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل إلى الحسين رسولاً يسأله ما الذي جاء به؟ فقال الحسين : كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما إذ كرهوني فإني أنصرف عنهم فكتب عمر إلى ابن زياد بذلك فقال :

ألان إذ عرضت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فإذا قبل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء؛ وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع إلى المكان الذي خرج منه، وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده في يد يزيد فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال وفي عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين : جيش العراق الذي لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلاً ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلاً وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلاً .

ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم علي بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أني صاحبه

لعفوت عنه، ثم قال لمن عنده: أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر، فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له، وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي، وأما قوله جده خير من جدي فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندًّا، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ثم أمر بالنساء فأدخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن، ثم قرب إليه علي بن الحسين وجهزهن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلي يا بني كاتبني بكل حاجة تكون لك.

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في العواقب فإن الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جميعًا عرض الحائط وظن بأهل العراق خيرًا وهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيرًا منه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الأعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم، أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة علي بن أبي طالب؛ وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيمًا في خروجه هذا الذي جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها.

غاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمرًا لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من

يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع إلىٰ ربهم يحاسبهم علىٰ ما فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خالف علىٰ يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف.

وقعة الحرة:

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هي في نظرنا أدهىٰ وأشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول ﷺ ومهبط الوحي الإلهي وهي التي حرمها عليه السلام كما حرم إبراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة أحدهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرىٰ، فكيف بانتهاك حرمتهما معًا في سنة واحدة؟

أما حادثة المدينة:

فإنه في عهد إمارة عثمان بن محمد بن أبي سفيان عليها أوفد إلىٰ يزيد بدمشق وفدًا من أشراف أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا علىٰ يزيد أكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطىٰ عبد الله بن حنظلة وكان شريفًا فاضلاً عابدًا سيدًا مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطىٰ كل ولد عشرة آلاف وأعطىٰ المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلىٰ المدينة أقاموا في أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصاري إلىٰ المدينة لينصح قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لا طاقة لكم بأهل الشام فلم تُجْدِ نصيحته نفعًا فعاد عنهم وحينذاك قام

هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا إلىٰ يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلاً :

لقد بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشًا أمّر عليه مسلم بن عقبة المري وكان عدة من تجهز معه اثنا عشر ألفًا وقال له يزيد : ادع القوم ثلاثًا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت عليهم فأبحها ثلاثًا فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيرًا فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه .

سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم أن لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم علىٰ عورة ولا يظاهروا عليهم عدوًّا وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلمًا بوادي القرىٰ فدعا بعمرو بن عثمان وقال له : ما وراءك فقال : لا أستطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل علىٰ عورة ولا نظاهر عدوًّا فانتهره وقال والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبدالملك بن مروان فقال : هات ما عندك فقال : نعم أرىٰ أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلىٰ ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من ثمره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتىٰ تأتيهم من قبل الحرة مشرقًا ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم .

ثم دخل عليه مروان فقال : إيه فقال مروان : أليس قد دخل عليك عبد الملك قال : بلىٰ وأي رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلاً شبيهًا به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني .

ثم سار مسلم حسب وصية عبدالملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال: إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إراقة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثًا فمن ارعوىٰ وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلىٰ هذا المحل الذي بمكة وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديداً جدًّا ولكن انتهىٰ بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثًا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد علىٰ أنهم خول ذلك له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتىٰ بعلي بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣ .

وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة علىٰ الدخول في أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية .

إنهم فتقوا فتقًا وارتكبوا جرمًا فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم علىٰ يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوه عنهم ما استمروا يومين كاملين وربما يقال: إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين .

بعد الانتصار لم يكن هناك معنىٰ لإباحة ذلك الحرم ثلاثًا احترامًا لرسول الله ﷺ هذا وإنا نعوذ بالله من الرءوس التي إذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل .

حصار مكة:

وثالثة الحوادث التي معظم تبعتها على عبد الله بن الزبير - حصار مكة فإن مسلمًا لما انتهى من أمر المدينة سار قاصدًا مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلمًا بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نهير كما أمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي لمنع البيت، فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حربًا انكشف فيها أصحابه فسار راجعًا إلى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال.

هذه ثلاث فتن كبرى داخلية حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهًا حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل إن الذي يتحمله جزء صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وإنما الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لها النصر.

الفتوح في عهد يزيد:

استعمل يزيد عقبةَ بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك، فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جندًا مع الذراري والأموال ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديدًا وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة، فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من

بها من الروم فقاتلتهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم، ثم رحل إلى تاهرت.

فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومي اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقيته البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة، ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات، فقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفًا منه.

ولما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام - أمر أصحابه أن يتقدموا فوجًا فوجًا ثقة منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهوذا لينظر إليها في نفر يسير، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأساء إلى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر: أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان في القيروان قيس بن زهير البلوي خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها أما كسيلة فإنه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين واستولى على إفريقية

وسنبين ما كان من أمره بعد .

وفاة يزيد:

لأربع عشر خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا .

بيت يزيد:

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمى العرب وكان له من الأولاد: عبد الله الأصغر؛ وعمر؛ وأبو بكر؛ وعتبة؛ وحرب؛ وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى .

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثاني ـ عبدالله بن الزبير ـ حال الشام ـ مروان الأول
عبدالملك ـ تغلبه على ابن الزبير وقتله ـ الحجاج بالعراق

معاوية الثاني ـ عبدالله بن الزبير

بعد موت يزيد كانت بيعتان أحدهما بالشام لمعاوية بن يزيد، والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير.

فأما معاوية فكانت سنه إحدىٰ وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادىٰ الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال:

(أما بعد فإني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورىٰ فلم أجدهم فأنتم أولىٰ بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتىٰ مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته.

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأىٰ عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه القدرة علىٰ لم شعثها وإصلاح أمرها.

أما ابن الزبير: فإن يزيد مات وحصين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم: فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحصين بعث إلىٰ ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له: أنت أحق بهذا الأمر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا إلىٰ الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين

أهل الحرم، فقال له: أنا لا أهدر الدماء والله لا أرضىٰ أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحصين يكلمه سرًّا وهو يجهر ويقول: والله لا أفعل، فقال له الحصين: قد كنت أظن لك رأيًا وأنا أكلمك سرًّا وتكلمني جهرًا وأدعوك إلىٰ الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل إلىٰ المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد.

هذا حال الشام لا إمام فيه والحجاز فيه ابن الزبير.

أما العراق، فإن عبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادىٰ الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال: يا أهل البصرة، إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدي فيكم ولقد وليتكم وما يحصي ديوان مقاتلكم إلا سبعين ألفًا ولقد أحصىٰ اليوم مائة ألف وما كان يحصي ديوان عمالكم إلا تسعين ألفًا ولقد أحصىٰ اليوم مائة وأربعين ألفًا وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم وإن يزيد قد توفي واختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عددًا وأعرضهم فناءً وأغنىٰ الناس وأوسعهم بلادًا فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أوّل راض من رضيتموه فإن اجتمع أهل الشام علىٰ رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم علىٰ أحد يليكم حتىٰ تقضي حاجتكم فما بكم إلىٰ أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم.

فقالوا له: قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحدًا أقوىٰ عليها منك فهلم فلنبايعك فأبىٰ عليهم ذلك ثلاثًا ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون: أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له في الجماعة والفرقة، ثم أرسل إلىٰ أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه.

ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعىٰ بعضهم إلىٰ بيعة ابن الزبير فأجابه إلىٰ ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة علىٰ نفسه فاستجار بالحارث بن قيس الأزدي ثم بمسعود ابن عمرو سيد الأزد فأجاره

حتىٰ هرب إلىٰ الشام .

واختار أهل البصرة واليًا عليهم عبد الله بن الحارث بن نوفل الملقب ببة فبايعوه وأقبلوا به إلىٰ دار الإمارة وذلك أول جمادىٰ الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أميرًا وكتب أهل المصرين إلىٰ ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده وكذلك دخل في بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق إلا الشام .

حال الشام:

كان رأس بني أمية بالشام مروان بن الحكم .

وكان أمير دمشق الضحاك بن قيس وكان هواه في ابن الزبير يدعو له ، وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي وهواهم كلهم في ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهواه في بني أمية وقد بايعه علىٰ الدعوة لهم أهل الأردن علىٰ شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالدًا ابني يزيد ؛ لأنهم قالوا : إنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان إلىٰ الضحاك بن قيس كتابًا يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلاغتهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه علىٰ الناس وكتب كتابًا آخر سلمه لرسوله وقال له : إن قرأ الضحاك كتابي علىٰ الناس وإلا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه علىٰ الضحاك لم يقرأه علىٰ الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين في دمشق فريقين فقيس تدعو إلىٰ ابن الزبير وكلب تدعو إلىٰ بني أمية .

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيرًا علىٰ تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ .

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية إلىٰ مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن علىٰ رأيه واجتمع علىٰ مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت

بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في موطن قط، وكانت الوقعة في المحرم سنة ٦٢ ، ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه: ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت إليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان تطلبه فقال الشابان لزفر انج بنفسك فإنا نحن نقتل فمضى وتركهما فقتلا وقال زفر في ذلك:

أريني سلاحي لا أبالك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلاً ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هي ماهيا
لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... لحسان صدعاً بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ... ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم تر مني نَبْوة قبل هذه ... فراري وتركي صاحبي ورائيا
عشية أعدوا بالقرآن فلا أرى ... من الناس إلا من عليّ ولاليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبن غارتي ... تنوخا وحيي طيئ من شفائيا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها.

لم تطل مدة مروان في سلطانه فإنه توفي في رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز.

ترجمة مروان:

هو : مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكناني ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلمًا وكان في عهد عثمان بن عفان كاتبًا له ومدبرًا وولى لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بني أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره في الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولي أمر الأمة من بعده ابنه .

٥ ـ عبد الملك

هو : عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ولما شب كان عاقلاً حازمًا أديبًا لبيبًا وكان معدودًا من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي : ما ذاكرت أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثًا إلا زادني فيه ؛ ولا شعرًا إلا زادني فيه .

ولي الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت الحال في البلاد الإسلامية على غاية الاضطراب فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير ، وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته ، وشيعة تدعو إلى آل البيت ، وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل فتلقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه .

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشًا يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى

العراق فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوَّابين: وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي.

فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سرًّا إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبدالملك قتل سليمان قام خطيبًا في أهل الشام فقال: إن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملفح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين: عبد الله بن سعد الأزدي وعبد الله بن وال البكري، ولم يبق بعدهم من عنده امتناع.

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان وُثوبه بها رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعمًا أنه هو الذي أرسله للأخذ بثأر الحسين ولقبه بالإمام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدي في عالم الوجود [1] وكان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم بن الأشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الأمر فقالوا له: إن المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور

---

(١) في هذه المقالة كالغمز في صحة حديث المهدي وقد صح عند أحمد (٦٤٥) من حديث علي مرفوعًا: «المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة».

وعند أبي داود (٤٢٨٤) وغيره من حديث أم سلمة مرفوعًا: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة».

وانظر «صحيح الجامع» (٦٧٣٤) و (٦٧٣٥).

بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب : (هذا كتاب من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر) فقال إبراهيم : قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إليّ فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه، قال المختار : ذاك زمان وهذا زمان، قال ابن الأشتر : فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي بيناه.

ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون : يا لثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال على أمصار الكوفة وكان من أهم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذي أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلاً ذريعًا ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث، ثم دخلت في بيعته البصرة.

وكان عمل المختار سببًا لتغيير ابن الزبير على محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه، ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بدا له فعاد إلى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها.

ثم إن المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الأشتر وقتل عبيدالله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلاً وغرقًا في نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الأشتر العمال إلى البلاد الجزرية.

بعد أن تم الأمر للمختار ولى ابن الزبير أخاه مصعبًا على البصرة فجاءها

وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه ﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ١-٤] وأشار نحو الشام ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥] وأشار نحو الحجاز ـ ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] وأشار نحو الكوفة ـ وقال: يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار.

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يصير لتخليص الكوفة منه فجنّد مصعب جنداً عظيمًا قاده بنفسه ومعه أشراف المصرين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قاتل مصعبًا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلاً فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي	قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم	إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا	وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه ينشدنا حيث يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه	حصان عليها عقد در يزينها

نهتـه فلمـا لم تـر النهي عـافـه بكت وبكى مما عناها قطينهـا

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعبًا فتجهز له وجعل على مقدمته إبراهيم بن الأشتر فتقابل الجيشان بمكسن وكان كثير من أهل العراق الذين كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد:

وإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء، وولى على المصرين عمالاً من قِبَله قال بعض الشعراء في مقتل مصعب:

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب فمات كريما لم تذم خلائقه
ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه فعاش ملومًا في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله يشاوره مرا ومرا يعانقه
فولى كريما لم تنله مذمة ولم يك وغدًا تطيبه نمارقه

بذلك لم يبق خارجًا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندًا إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه في جمادى الأولى سنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان إلى الحجاج وكان ممن فارقه ابناه حمزة وحبيب.

ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئًا - دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال: يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية

وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن قتلت كنت على حق فلما ادهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا: القتل أحسن.

فقال: يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني.

قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به دائبًا إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة فانظري يا أماه فإني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر إلى الله فإن ابنك لم يتعهد إيثار منكر ولا عمل بفاحشة ولم يَجُر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي.

اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني فقالت أمه لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدّمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك فقال: جزاك الله خيرًا فلا تَدَعي الدعاء لي قالت: لا أدعه لك أبدًا فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثًا وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك.

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك في جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة.

وبقي الحجاج واليًا على مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبد الملك عنهما وولاه العراقين فسار إلى الكوفة في اثني عشر راكبًا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو ملتثم بعمامة خزّ حمراء فأجمع إليه الناس

وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه وقال:

أنا ابن جـلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة إني لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيم[1]   قد لفها الليل بسواق حطم[2]

ليس براعي إبل ولا غنم   ولا بجزار على ظهر وضم[3]

ثم قال:

قد لفها الليل بعصلبي[4]   أروع[5] خراج من الذوي[6]

مهاجر ليس بأعرابي

وقال:

قد شمرت عن ساقها فشدوا   وجدّت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد[7]   مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشنان [8] ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء [9] وفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر

---

(١) يعني فرسًا أو ناقة. (المؤلف).

(٢) الحطم الذي لا يبقي من السير شيئًا. (المؤلف).

(٣) الوضم كل ما قطع عليه اللحم. (المؤلف).

(٤) الشديد. (المؤلف).

(٥) ذكي (المؤلف).

(٦) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دويًا بالليل ويريد بها الغماء الشديدة. (المؤلف).

(٧) شديد. (المؤلف).

(٨) واحدها شن: وهو الجلد اليابس فإذا ضرب به نفرت الإبل فضرب ذلك مثلاً لنفسه. (المؤلف).

(٩) الذكاء حدة القلب. (المؤلف).

كنانته بين يديه فعجم[1] عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم[2] في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال، والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] وإني والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئًا فقال الحجاج: اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال: أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئًا ؟هذا أدب ابن نهية[3] أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم فلم يبق أحد في المسجد إلا قال: على أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبراً فقال: أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني فتقبله بدلاً عني فقال الحجاج: نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدري من هذا أيها الأمير، قال: لا. قال هذا عمير بن ضابئ البرجمي الذي يقول أبوه:

همـمت ولم أفعل وكـدت وليـتني تركـت على عـثمـان تبكي حـلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه

---

(١) مضغها لينظر أيها أصلب. (المؤلف).

(٢) الإيضاع ضرب من السير. (المؤلف).

(٣) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج. (المؤلف).

فلما رد قال: أيها الشيخ هلا بعثت إلىٰ أمير المؤمنين عثمان بدلاً يوم الدار إن في قتلك أيها الشيخ صلاحًا للمسلمين يا حرسي اضرب عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

تجهز فإما أن تزور ابن ضابئ	**عميرًا وإما أن تزور المهلبا**
هما خطتا خسف نجاؤك منهما	**ركوبك حوليا من الثلج أشهبا**
فأضحى ولو كانت خراسان دونه	**رآها مكان السوق أو هي أقربا**

من هذه الخطبة وما تلاها تتبين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها أهل العراق وهي خطة العسف والجور التي قدمنا أنها لا تصلح أمة إصلاحًا حقيقيًا أبدًا وإنما تضع علىٰ المرجل غطاء لا يلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق وسكونهم إلىٰ هذه الذلة يجيئهم الحجاج في بضعة عشر راكبًا وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولاً ويوبخهم علىٰ ترك السلام علىٰ أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أن هذا الخضوع وقتي.

وبعد ذلك ذهب إلىٰ البصرة فخطب بها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأتىٰ برجل يشكري فقال: أيها الأمير إن بي فتقًا وقد رآه بشر بن مروان فعذرني وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتىٰ تداركوا علىٰ العارض بقنطرة رامهرمز وخرج الحجاج حتىٰ نزل رستفاباان في أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخًا فقام في الناس فقال: إن الزيادة التي زادكم بها ابن الزبير في أعطياتكم لست أجيزها فقام إليه عبدالله بن الجارود العبدي وقال إنها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبدالملك أثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتىٰ قتله وقتل جماعة من أصحابه

وبعث برءوسهم إلىٰ المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف إلىٰ البصرة .

في سنة ٧٩ ولىٰ الحجاج عبيدالله بن أبي بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد كان مصالحًا وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجًا وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج إلىٰ ابن أبي بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا في بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم فرأىٰ الحجاج أن يجهز إليهم جندًا كثيفًا فجهز عشرين ألفًا من البصرة ومثلهم من الكوفة وجد في ذلك وشمر وأعطىٰ الناس أعطياتهم كملاً وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يرىٰ رجلاً تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته ، ولما استتب أمر ذينك الجندين ولىٰ عليهم عبدالرحمن ابن الأشعث فسار حتىٰ قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد أخياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة اخرجوا إلىٰ معسكركم فعسكروا به مع الناس .

فعكسر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتىٰ دخل أول بلاد رتبيل وصار كلما حوىٰ بلدًا بعث إليه عاملاً وبعث معه أعوانًا ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الأرصاد علىٰ العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتىٰ إذا حاز من أرضه أرضًا عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول في أرض رتبيل وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتىٰ نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون علىٰ طرقها ثم نتعاطىٰ في العام المقبل ما وراءها ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتىٰ نقاتلهم آخر ذلك علىٰ كنوزهم وذراريهم وفي أقصىٰ بلادهم ونمتنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتىٰ يهلكهم الله .

وكتب إلىٰ الحجاج بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج :

أما بعد فإن كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلىٰ الموادعة قد صانع عدوًا قليلاً ذليلاً قد أصابوا من المسلمين

جنداً كان بلاؤهم حسناً وعناؤهم في الإسلام عظيماً لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخيّ النفس عمن أصيب من المسلمين إني لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأي مكيدة ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم.

وقال في كتاب آخر: إن لم تفعل فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وما وليته، فلما جاء هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضي أم يخالف؟ فزينوا له المخالفة واستقر رأيهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبدالرحمن فبعث إلى رتبيل فصالحه وعاد من سجستان إلى العراق مصمماً على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول:

شطت نوى من داره بالإيوان — إيوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان — أن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان — أمكن ربي من ثقيف همدان
يوماً إلى الليل يسلي ما كان — إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان — بالسيد الغطريف عبدالرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان — ومن معه قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الأرنان — فقل لحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان — فإنهم سقوه كأس الديفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض: إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبدالملك فخلعوه وبايعوا عبدالرحمن على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين، ولما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبدالملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم

بالبصرة فلما اجتمعت الجنود إليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعًا حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها في آخر ذي الحجة سنة ٨١ ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثى على ركبتيه وانتضى نحوًا من شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل!

وكان ذلك العمل مما قوى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر فمضى ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دير قرى وخرج ابن الأشعث حتى نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار عبدالملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبدالله ليعرضا ذلك على أهل العراق فإن قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبد الملك.

وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك للحجاج: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فإنا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣ ففيه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادى المنادي: من رجع فهو آمن.

وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج: إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه

بالكفر فقال: أخادعي أنت عن نفسي؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد.

كان الحجاج قد أمر فنودي بعد هزيمة دير الجماجم: من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو أمانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي فقيه العراق فذكره الحجاج يومًا فقيل له: إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث إليه بالشعبي فأرسله فلما قدم سلم عليه بالإمرة ثم قال: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقًّا والله سودنا عليك وحرّضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرك إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا فقال له الحجاج: أنت والله أحب إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: مافعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف فلما مشى قليلاً ناداه ثم قال له: كيف وجدت الناس يا شعبي بعدنا: فقال: أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفًا، قال انصرف يا شعبي.

وجيء إليه بأعشى همدان فقال: إيه يا عدو الله أنشدني قولك بين الأشج وبين قيس باذخ قال: بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها وأولها:

أبى الله إلا أن يتمم نوره	**ويطفئ نور الفاسقين فيخمدا**
ويظهر أهل الحق في كل موطن	**ويعدل وقع السيف من كان أصيدا**
وينزل ذلاً بالعراق وأهله	**لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا**
وما أحدثوا من روعة وعظيمة	**من القول لم تصعد إلى الله مصعداً**
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة	**إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غداً**

وهي قصيدة طويلة، فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل.

وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم .

أما ابن الأشعث ؛ فقد تقلبت به الأحوال ، وانتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل مستغيثًا به ، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ؛ فأراد رتبيل أن يرسله ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلاً من أقاربه ، وأرسل بالرءوس إلى الحجاج .

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضًا كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون الله في أمتهم عهدًا كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله ﷺ في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا نخلي ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ، ويكرهوها على الطاعة إكراهًا من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحبه .

من الضروري أن نقص عليكم شيئًا من أخبار الخوارج في هذه المدة ؛ لتكون صورة الأمة كلها ممثلة أمام أنظاركم في ذلك العهد .

المحاضرة السادسة والثلاثون

الخوارج

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد - رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ونافع بن الأزرق الحنفي أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم؟ فلما جاءوه وعرفوه بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا عليه وهو مبتذل فقالوا: إنا جئناك لنختبر رأيك ما تقول في الشيخين، قال خيراً

قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئًا وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا عليًّا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقررن في بيوتهن وكان في ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الستّ التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته؛ خذلك الله وانتصر منك بأيدينا.

فقال ابن الزبير: إن الله أمر، وله العزة والقدرة في مخاطبة أكبر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما في فرعون ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٤٤]، وقال رسول الله ﷺ «**لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات**» فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل

عدوّ الله وعدو الرسول ﷺ والمقيم على الشرك والجاد في المحاربة والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنبًا وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كانا منهم دخلا في غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسب أبي وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن في أبويه: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾ [لقمان: ١٥]، وقال جل ثناؤه: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣] وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمري إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه.

فلما كان العشي راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة إلى اليمامة.

فكان ممن سار إلى البصرة نافع بن الأزرق في أصحابه: وقد أمروه عليهم ثم مضى بهم إلى الأهواز فأقاموا بها لا يهيجون أحدًا ويناظرهم الناس وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفيء ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظهر من نافع بن الأزرق القول بإكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال: الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاءٍ فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضًا أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعي وعبد الله بن أباض المري.

أما أباض ومن نحا نحوه من النجدية: فإنهم كانوا يقولون: إن عدونا كعدو رسول الله ﷺ ولكنا لا نحرم مناكحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيد والإقرار

بالكتاب والرسول ﷺ فأرىٰ معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفار النعم.

وأما الصفرية: فقالوا ألين من هذا القول في أمر القعد حتىٰ صار عامتهم قعدا وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبدالله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة.

وأما أبو بيهس: فإنه قال: أعداؤنا كأعداء رسول الله ﷺ تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجري عليهم وزعم أن مناكحتهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين.

وبذلك افترقوا علىٰ أربع فرق: أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق وأباضية أصحاب ابن أباض وبيهسية أصحاب أبي بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً.

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أجيب المقالة جبا الخراج ونشأ عماله في السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلىٰ الأحنف بن قيس وقالوا: ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترىٰ فقال الأحنف: إن فعلهم في مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم مسلم بن عبيس بن كريز وكان دينًا شجاعًا فقاد الجيش وسار به حتىٰ وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتىٰ تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتلىٰ وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة ابن عبيس ونافع بن الأزرق فولي أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغداني وولىٰ أمر الخوارج عبيدالله بن بشير بن الماحوز السليطي فكان الرئيسان من بني يربوع فاقتتلوا قتالاً شديداً نيفًا وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميري فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعدوا بآلات الدروع والجواشن حتىٰ انهزموا وقد كره بعضهم بعضًا وملوا القتال فإنهم لمتواقفون متحاجزون حتىٰ جاءت الخوارج سرية فحملت علىٰ الناس فانهزم الناس وأخذ

راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم في حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز ومما قاله بعض الخوارج وهو قطري بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر:

لعمرك إني في الحياة لزاهد ... وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذي بثّ ولا لسقيم
لعمرك إني يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طغت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى ... تعوم وظلنا في الجلاد نعوم
فلم أر يومًا كان أكثر مقعصًا ... يمج دمًا من فائظ وكليم
وضاربة خدًّا كريمًا على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنًا ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا لأمر الخوارج إلا المهلب ابن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضي بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليه وأن يعطى من بيت المال ما يقوي به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوي الشرف من أحب أجابوه إلى ما شرط فانتخب الناس وسار إليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الأهواز يقال له صلي وسلبري فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فإن ذلك قواهم حتى قتل أمير الخوارج عبيد بن الماحوز وانهزموا

هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان، وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإنا قد لقينا الأزارقة المارقة بحد وجد، فكانت للناس جولة ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا درئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام فكتب إليه الحارث:

قد قرأت كتابك يا أخا الأزد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين، وهادم أركان المشركين، وأخا السياسة والرياسة، فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام.

فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال: أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الأزد، ما أهل مكة إلا أعرب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبدالله ولما ولي مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيدالله بن معمر والخوارج بأرجان وعليهم الزبير بن علي السليطي فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا.

ثم أتوا سابور فسار إليهم ونزل قريبًا منهم فقال له مالك بن حسان: إن المهلب كان يذكي العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على بعد المسافة منهم فقال له عمر: اسكت؛ خلع الله قلبك، أتراك تموت قبل أجلك، فأقام هناك وفي ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء، فقال لمالك: كيف رأيت؟ قال: قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال: أما إنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفي هذا العدو ولكنكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيرنا فتقاتلون معي تعذيراً ثم زحف إلى الخوارج فقاتلهم قتالاً

شديداً حتى انهزموا وقتل في الموقعة ابنه عبيدالله فكتب إلى مصعب: «أما بعد فإني قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتني عنهم عودة فيممتهم وبالله أستعين وعليه أتوكل» ثم سار إليهم وكانوا قد عادوا إلى فارس فأرسل عليهم حتى أخرجهم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم إلى الأهواز وقد ارتحل عمر إلى إصطخر.

ومازالوا يروحون ويغدون ويعيثون في الأرض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب إلى حربهم، وكانوا قد ولوا أمرهم قطري بن الفجاءة المازني فخرج إليهم المهلب ولما أحس به قطري يمم نحو كرمان فأقام المهلب بالأهواز، ولما استعد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم إلى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبدالملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج: ماذا تقولون في مصعب؟ قالوا: إمام هدى قالوا: فما تقولون في عبد الملك قالوا: ضال مضل.

ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب؟ فسكتوا؛ قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا: إمام هدى فقال الخوارج: يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله.

وولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبدالله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له: إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيدالله بفارس فإذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى إلا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبدالعزيز بن عبدالله فسار إليهم حتى قابلهم بدار بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبدالملك به فكتب إليه عبدالملك أما بعد: فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني أنه

عامل لك على الأهواز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابيًا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن أبنائها انظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز وقد بعثت إلى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه إن شاء الله.

فشق عليه أن قبل رأيه في بعثة أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرض رأيه خالصًا حتى قال أحضره المهلب واستشره فيه وكتب عبدالملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبدالرحمن بن محمد ابن الأشعث؛ وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء الأهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ما لهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على حامية وأتبعهم خالدٌ داودَ بن قحذم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الأهواز.

وفي ذلك الوقت خرج لبحرين أبو فديك الخارجي فغلب علي البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبدالله نزول قطري الأهواز وأمر أبي فديك فبعث أخاه أمية بن عبدالله على جند كثيف إلى أبي فديك فانهزم.

ولما رأى عبدالملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب إليه: أما بعد فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله ورأيه في الحرب فإني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثًا كثيفًا وابعث عليهم رجلاً معروفًا شريفًا حسيبًا صليبًا يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم أنهض إليهم أهل المصرين فليتبعوهم أي وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك.

فدعا بشرٌ المهلبَ فأقرأه كتاب عبدالملك وأمره أن ينتخب من يشاء وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبدالملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان إليه ذنب ثم دعا عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له : إنك قد عرفت منزلتك وأثرتك عندي وقد رأيت أن أولّك هذا الجيش للذي عرفت من جرأتك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظني بك انظر إلى هذا الكذا والكذا يقع في المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأيًا ، وتنقصه وقصر به ، فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبي ويستجهل ، وهكذا في كل زمان وفي كل أمة من يدوس المصالح العامة إرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة ولا تهمه الأمة سعدت أو شقيت .

رجل يكره رجلاً فما بال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه .

خرج الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس إلا عشرًا حتى بلغهم نعي بشر بن مروان وتوفي بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبدالملك فلم يجد ذلك فيهم نفعًا حتى جاءهم الأسد الهصور الحجاج ابن يوسف فأخذهم أخذًا عنيفًا ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما تتابع مسير الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوهم عن رامهرمز فساروا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان ؛ كان المهلب يخندق دائمًا على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحوًا من سنة .

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالاً شديدًا وكانت كرمان في أيدي

الخوارج وفارس في يدي المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم به لا يأتيهم من فاس مادة فخرجوا حتىٰ أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتىٰ نزل بجيرفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالاً شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث إليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتابًا يقول فيه: أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرىٰ لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك؛ وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم فانهض إليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد وإياك والعلل والأباطيل والأمور التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام.

فأخرج المهلب بنيه كل ابن في كتيبة وأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال الناس من صلاة الغداة إلىٰ انتصاف النهار ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلىٰ المهلب فقال: لا والله ما رأيت كبنيك فرسانًا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانًا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتىٰ إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه في كتائبهم فقاتلوهم كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلىٰ الحجاج فأخبره الخبر علىٰ جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم علىٰ شيء.

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حسبان ذلك أن رجلاً من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلاً كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصًا فقال لهم: ما أرىٰ أن أفعل رجل تأول فأخطأ في التأويل ما أرىٰ أن تقتلوه وهو من ذوي الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطريًا وولوا عبد ربه الكبير وبقي علىٰ بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضًا وكان من رأي الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأي المهلب فتركه الحجاج ورأيه.

استمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم إن قطرياً خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم إلا قليل وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين.

ولكعب الأشقري قصيدة طويلة يذكر يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها:

يا حفص إني عداني عنكم السفر وقد سهرت فأودي نومي السهر

وهي من غرر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدي الحجاج فقال له: أشاعر أنت أم خطيب؟ قال: كلاهما، فقال له: أخبرني عن بني المهلب قال: المغيرة فارسهم وسيدهم وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيهم قبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفرّ من مدرك، وعبدالملك سم ناقع، وحبيب موت زعاف، ومحمد ليث غاب، وكفاك بالمفضل نجدة قال: فكيف خلفت جماعة الناس؟ قال: بخير أدركوا ما أمّلوا وأمنوا ما خافوا، قال: فكيف بنو المهلب فيكم؟ قال: كانوا حماة السرح نهاراً فإذا أليلوا ففرسان البيات قال: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها قال: فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟ قال: كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج: إن العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري؟ قال: كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذي تحب قال: فهلا اتبعتموه؟ قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له؟ قال: كان لنا منه شفقة الوالد وله منا برّ الولد، قال فكيف اغتباط الناس قال: فشا فيهم الأمن وشملهم النفل قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، فقال: هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده، أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم

على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٤٥] فكتب إليه الحجاج، أما بعد: فقد فعل الله عز وجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين، فإذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله، وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلاً تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وولِّ الخيل شهمًا من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علي وعجل القدوم إن شاء الله.

فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال: يا بنيّ إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك؛ فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئًا فوجهه إليّ وتفضل على قومك ووَفَدَ المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبره وقال: يا أهل العراق إنكم عبيد المهلب ثم قال: أنت والله كما قال لقيط الأيادي:

وقلدوا أمـــــركم لله دركم	**رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا**
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه	**هم يكاد حشاه يقصم الضلعا**
لا مترفًا إن رخاء العيش ساعده	**ولا إذا عض مكروه به خشعا**
مازال يحلب هذا الدهر أشطره	**يكون متبعا طوراً ومتبعا**
حتى استمرت على شزر مريرته	**مستحكم الرأي لا قحما ولا ضرعا**[1]

فقام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير، والله لكأني أسمع الساعة قطريًا وهو يقول المهلب كما قال لقيط الأيادي ثم أنشد الشعر، فسر الحجاج حتى امتلأ

---

(١) القحم آخر سن الشيخ والصغير الضعيف. (المؤلف).

سروراً فقال المهلب: إنا والله ما كنا أشد على عدونا ولكن دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج: اذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب: ما ذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم في البلاء وتفاضلهم في الغناء وقدم بنيه وقال: إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لقدمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم.

قال الحجاج: صدقت وما أنت أعلم بهم مني وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبي صفرة وأشباهه، فقال الحجاج أين الرقاد؟ فدخل رجل طويل أجنا فقال المهلب: هذا فارس العرب فقال الرقاد: أيها الأمير إني كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمني الصبر ويجعلني أسوة نفسه وولده ويجازيني على البلاء - صرت أنا وأصحابي فرساناً فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم، وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعته شبيهاً بذلك، قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب:

إني امرؤ كفني ربي وأكرمني ... عن الأمور التي في رعيها وخم
وإنما أنا إنسان أعيش كما ... عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ما عقني عن قفول الجند إذ قفلوا ... عني بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولا ما تجهمني ... إذن الأمير ولا الكتاب إذ رقموا
إن المهلب إن أشتق لرؤيته ... أو أمتدحه فإن الناس قد علموا
إن الأريب الذي ترجى نوافله ... والمستعان الذي تجلى به الظلم
القائل الفاعل الميمون طائره ... أبو سعيد إذا ما عدت النعم
أزمان أزمان إذ عض الحديد بهم ... وإذ تمنى رجال أنهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطري فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتىٰ تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتدهدىٰ حتىٰ خر إلىٰ أسفله فقتل ثم ساروا حتىٰ لحقوا بقيتهم فحاصروهم في قصر قومس حتىٰ جهدوا ثم خرجوا فقاتلوهم حتىٰ قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧ ، وبذلك انتهىٰ أمر الأزارقة بعد أن ذاق الناس منهم مرّ الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة .

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمي ورفيقه شبيب بن يزيد . كان صالح رجلاً ناسكًا مخبتًا مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم : ما أدري ما تنتظرون وحتىٰ متىٰ أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة علىٰ الناس إلا علوًّا وعتوًّا وتباعدًا عن الحق وجرأة علىٰ الرب فاستعدوا وابعثوا إلىٰ إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلىٰ الحق مثل الذي تريدون فيأتونكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون؟

فتراسلوا وأرسل شبيب إلىٰ صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ٧٧ وقال صالح لمن معه : اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلىٰ قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وينصبون لكم فإنكم إنما خرجتم غضبًا لله حتىٰ انتهكت محارمه وعصي في الأرض فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا علىٰ قوم أعمالاً ثم تعملوا بها فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون .

ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث إليهم جندًا عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جندًا عدته ثلاثة آلاف ، فأشحوا الخوارج حتىٰ تركوا مكانهم ، وساروا فقطعوا ومضوا حتىٰ قطعوا

الدسكرة فأرسل إليهم الحجاج جندًا عدته ثلاثة آلاف ، فقاتلهم الخوارج حتىٰ قتل أميرهم صالح بن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتىٰ نزلوا المدائن وما زالوا ينتقلون من جهة إلىٰ أخرىٰ والجند يرسل إليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عدًا .

وأخيرًا جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فسادًا وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلىٰ إخراجهم فاجتمع إليه القواد ولما رأىٰ ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه لكنها لم تنل منه منالاً وهو في كل مرة يهزمها حتىٰ استغاث الحجاج بعبدالملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب إليه أن يرسل إليه جندًا من أهل الشام فوجه إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج إليهم نحوًا من خمسين ألفًا من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفًا ومن الغريب أن الألف هزمت الخمسين .

وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلىٰ الكوفة فبنىٰ بها مسجدًا فخرج إليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوىٰ بهم وقال لهم : يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين ، ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم ، غضوا الأبصار واجثوا علىٰ الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فجثوا علىٰ الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل إليهم شبيب في تعبية فثبتوا له حتىٰ إذا غشىٰ أطراف الأسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فظعنوهم قدمًا وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل في هذا اليوم مصاد أخو شبيب .

وانتهىٰ الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتىٰ قابلوه بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدًا وانتهىٰ أمر الخوارج بغرق شبيب في النهر وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب في سنة واحدة .

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة - الفتوح في الشرق - الفتوح في الشمال - الحج السكة - ولاية العهد - وفاة عبدالملك وبيته وصفته الوليد الأول - الإصلاح الداخلي

بناء الكعبة:

من الحوادث الكبرى التي حدثت إبان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبناؤها ففي سنة ٦٥ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالأرض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده في تابوت في سرقة من حرير وجعل ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثيوب أو طيب عند الحجبة في خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب في إدخاله الحجر ضمن البيت ما روته أمه أسماء عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها: «**لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين**»[1] .

فلما قتل ابن الزبير وولي الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج.

الأحوال الخارجية:

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم، لأن الأمة إذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يديها من الفتح

(١) أخرجه البخاري (١٢٦) من حديث عائشة.

ولم تظهر أمام الأمم الأخرىٰ بمظهر الضعف إلا في بعض الأحيان.

الفتوح في الشرق:

بعد أن انتهىٰ المهلب من أمر الخوارج ولاه الحجاج خراسان ففي سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل علىٰ كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه إلىٰ غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد فنزل في عسكره، وكان الملك يومئذ اسمه السبل في عسكره علىٰ ناحية فبيت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوه علىٰ الغدر حين اعتزل عسكرهم فأمره الملك وقتله في قلعته فأتىٰ يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك علىٰ فدية حملها إليه ورجع إلىٰ المهلب ووجه المهلب ابنه حبيبًا إلىٰ ربنحن فوافىٰ صاحب بخارىٰ في أربعين ألفًا فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب.

ومكث المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت إلىٰ السفد وما وراء ذلك قال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتىٰ يرجعوا إلىٰ مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس علىٰ فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته علىٰ مرو فجزع جزعًا شديدًا وولىٰ مكانه ابنه يزيد.

ولما أخذ الفدية عاد إلىٰ مرو فتوفي بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا: لا قال: أفترونكم كاسريها متفرقة، قالوا: نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوىٰ الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم، إن بني الأم يختلفون فكيف ببني العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل علىٰ لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفىٰ بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له وآثروا الجود علىٰ البخل وأحبوا

العرب واصطنعوا العرب فإن الرجل من العرب تعده العِدَةَ فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء أنزل القضاء فإن أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قبل أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قبل ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيبًا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمة لقدمناه ومات المهلب وأوصى إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب إياه فأقره وتوفي في ذي الحجة سنة ٨٣ فقال نهار بن توسعة التميمي:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

أقمنا بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

إذا قيل أي الناس أولى بنعمة ... على الناس قلناه ولم نتهيب

أباح لنا سهل البلاد وحزنها ... بخيل كأرسال القطا المتسرب

يعرضها للطعن حتى كأنما ... يجللها بالأرجوان المخضب

طيف به قحطان قد عصبت به ... وأحلافها من حي بكر وتغلب

وحيا معد عوّذ بلوائه ... يفدّونه بالنفس والأم والأب

وفي ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيرك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قد خرج عنها فلما جاء صالحه على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحيى بن يعمر العدواني ونص كتابه (إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برءوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار) فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد فقيل له يحيى بن يعمر فكتب إلى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له: أين ولدت، قال:

بالأهواز، قال: فهذه الفصاحة قال: حفظت كلام أبي وكان فصيحًا قال: من هناك، قال: فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد، قال: نعم كثيرًا، قال: ففلان، قال: نعم، قال: أخبرني عني أألحن قال: نعم تلحن لحنًا خفيفًا تزيد حرفًا وتنقص حرفًا وتجعل أن في موضع إن وإن في موضع أن قال أجلتك ثلاثًا فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان، وفي سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل، وفي عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر، ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطي الناس كلما جاءه شيء وإن غنم شيئًا قسمه بينهم.

ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلي وسيكون له ذكر جميل في خلافة الوليد.

الفتوح في الشمال:

لم يكن من الممكن في عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ٨٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذي يتجهز فيه عبدالملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدي عبدالملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفًا على المسلمين، ولما انقشعت هذه السحابة واستقر الأمر لعبدالملك عادت الغزوات إلى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبدالملك قيسارية وفي سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان أمير جندها عبيدالله بن عبدالله وفي سنة ٨٤ غزا عبدالله بن عبدالملك ففتح المصيصة.

الحج:

كان الذي يقيم الحج عبدالله بن الزبير في عهد خلافته وفي سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية: ابن الحنفية في أصحابه في لواء، وابن الزبير في لواء، ونجدة الحروري في لواء، ولواء بني أمية.

قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعًا فجئت محمد بن علي في الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فإنا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلي ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم مني وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف علي فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك النجدة، قال: فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال: أنا رجل قد اجتمع عليّ الناس وبايعوني وهؤلاء أهل خلاف فقلت أرى لك خيرًا الكف، قال: أفعل ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال أما أن أبتدئ أحدًا بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت: فإني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك.

ثم جئت شيعة بني أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدًا إلا إن قاتلنا، ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس.

وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج. وبعد قتله كان يقيمه عمال بني أمية.

السكة الإسلامية:

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى كانت سنة ٨٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبدالملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطًا والدينار عشرين قيراطًا فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبدالملك الحجاج أن يضربها بالعراق وقد نقش عليها أولاً باسم الله ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف

والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الأمصار الإسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة. وسنوضح أمر السكة بعد.

ولاية العهد:

كان مروان قد ولى عهده عبدالملك ثم من بعده عبدالعزيز بن مروان ففي سنة ٨٥ أراد عبدالملك أن يعزل عبدالعزيز ويولي مكانه الوليد بن عبدالملك فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعته ما انتطح فيه عنزان فبينا هو على ذلك إذ جاء الخبر بوفاة عبدالعزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبدالملك إلى هشام يلومه على ما فعل ويقول: سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وإنا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف.

وفاة عبد الملك:

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ أكتوبر سنة ٧٠٥) توفي عبدالملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ إلى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادي الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة، لأنه ولد سنة ٢٦ .

بيت عبد الملك:

(١) تزوج عبدالملك ولادة بنت العباس بن جزء العبسي، فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر.

(٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم .

(٣) أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي، فولدت له هشامًا .

(٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمي، فولدت له أبا بكر واسمه بكار .

(٥) أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان، فولدت له الحكم .

(٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة .

(٧) شقراء بنت سلمة بن حليس الطائي .

(٨) ابنة لعلي بن أبي طالب .

(٩) أم أبيها بنت عبدالله بن جعفر :

وله من الأولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات الأولاد .

صفة عبد الملك:

كان عبدالملك قوي العزيمة ثابت النفس لا تزعزعه الشدائد ولي أمر الأمة وهي في غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدوء والطمأنينة ولكن الضحايا التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جدًا لأن الأمة حية نشيطة لا تدين إلا للقوة القاهرة التي هي فوق طاقتها والأهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقًا لا يمر منه إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا .

ومما عد من مساوئ عبد الملك أنه قال مرة وهو على المنبر من قال لي بعد مقامي هذا اتق الله ضربت عنقه وقد اعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانوا يقفون في هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذراً ومما عد من

مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمنه وقالوا: إن هذه أول غدر حصل في الإسلام ومن سنّ سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة.

والتاريخ يدلنا على أن كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبدالملك فصيحًا عالمًا بالأخبار فقيهًا وقد قدمنا شيئًا من ذلك في أول خلافته.

٦ ـ الوليد الأول

هو الوليد بن عبدالملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي، ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبدالعزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبدالملك بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إنه لا مقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من قضايا الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولي هذه الأمة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزًا ولا مفرطًا.

أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد.

أيها الناس من أبدئ لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه. ثم قام إليه الناس فبايعوه.

الحال في عهد الوليد:

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الأموية ففيها قام بإصلاح داخلي عظيم، واشتهر في الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة

الإسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الأمم المجاورة لها، وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبدالملك الأمور ومهدها فاستلمها الوليد والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الأهواء فإن الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم، وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم؛ فلم يحركوا ساكنًا؛ ولم يوقظوا فتنة.

الإصلاح الداخلي:

كان الوليد ميالاً إلى العمارة فاهتم في زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره ففي سنة ٨٨ كتب إلى عامله بالمدينة عمر بن عبدالعزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقي منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوّام يقومون عليها. وإصلاح الطرق من أهم ما يذكر لولاة الأمر في إصلاح البلاد.

ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق.

ففي السنة المتقدمة أمر عمر بن عبدالعزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون مئتي ذراع في مثلها ومن أبى فليقوم داره قيمة عدل وتهدم؛ ويدفع إليهم ثمنها.

فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان، وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملاً فابتدئ بعمارته وأدخلت فيه جميع الحجر التي لأزواج رسول الله ﷺ ولم يبق إلا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة وكان من رأي بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة

ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمسًا .

أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فإن الوليد احتفل له احتفالاً عظيمًا حتى خرج مناسبًا لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهدًا بتلك العظمة ، وكان الناس في حياته قد شغفوا بالعمارة تبعًا له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا ، وبنى الوليد المصانع في الشام لتسهيل الاستقاء .

ومن الإصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادمًا وكل ضرير قائدًا .

وعلى الجملة : فكان الوليد محسنًا إلى رعيته ، ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبدالعزيز أمير على المدينة ، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بنائه ؛ فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد ، وبقي سعيد بن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه إلا ربطتان ما تساويان خمسة دراهم فقيل له : لو قمت فأبى أن يقوم قبل الوقت الذي كان يقوم فيه ، قيل : فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه قال عمر بن عبدالعزيز فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء أن يرى سعيداً حتى يقوم ، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة ، فقال من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول له : يا أمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد : قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار في المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد ، فقال : كيف أنت أيها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم ، فقال : بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال : أجل يا أمير المؤمنين .

وقليل من ذوي السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوي الأسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوي السلطان قليلاً .

أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتىٰ صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلاً وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكانتهم .

وأما ذوو السلطان فإنهم أحيانًا يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدي لهم نصيحة أو يعرفهم واجبًا فيحاربونهم لقصد إذلالهم، وحط درجتهم ولكن الذي يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فإنه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق علىٰ ذلك .

ومن حسنات الوليد استعانته في عمله بعمر بن عبدالعزيز الذي أعاد سيرة سلف هذه الأمة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٧٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلىٰ الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة وأبا بكر بن عبدالرحمن وأبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم إذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانًا علىٰ الحق ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحدًا يتعدىٰ أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج الله علىٰ من بلغه ذلك إلا بلغني فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا، وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوىٰ من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجئوا إلىٰ المدينة ومكة وأن ذلك وهن واستشاره فيمن يوليه علىٰ المدينة فأشار بعثمان بن حيان المرّي فولاه المدينة .

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح في عهد الوليد ـ ولاية العهد ـ وفاة الحجاج

وفاة الوليد ـ سليمان

الفتوح في عهد الوليد:

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر في الفتح الإسلاميّ وهم:

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي.

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي.

(٣) موسى بن نصير.

(٤) مسلمة بن عبدالملك بن مروان.

فأما القاسم بن محمد فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل[1] فنزل عليه وكان به «بد» عظيم والبدّ: منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكان كل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة.

ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف.

---

(١) مدينة على ساحل نهر الهند. (المؤلف).

ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمرّ بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر دون مهران[1] فأتاه سمين سريبدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته ثم إن محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بداهر في جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون، فقال في ذلك قاتل داهر:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد
إني فرجت الجمع غير معرد ... حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا ... متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند.

ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمناباذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخلف بها عاملاً، ثم سار فتلقاه أهل ساوندري وسألوه الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودولتهم ثم تقدم إلى يسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندري.

ثم انتهى إلى الرور[2] وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحًا على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم؛ وقال ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس، ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً، ثم سار حتى قطع نهر بباس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة

(١) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة.

(٢) ناحية بالسند تقرب من الملتان في الكبر وعليها سوران وهي على شاطئ نهر مهران على البحر وهي متجر وفرضة بهذه البلاد وبينها وبين الملتان أربع مراحل بالقرب من الرور مدينة بغرور. (المؤلف).

وكان بد الملتان تهدي إليه الأموال وتنذر له النذور ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله.

وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلىٰ الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطىٰ الناس ووجه إلىٰ البيلمان جيشًا فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتىٰ الكرج فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر.

بعد هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الإسلام علىٰ جميع بلاد السند مات الوليد بن عبدالملك فوقف أمر محمد وسنتكلم بعد علىٰ خاتمة حياته.

وأما قتيبة بن مسلم فكان أميرًا علىٰ خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم: إن الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم علىٰ أقصىٰ أثر وأمضىٰ ألم وإياكم والهوينا.

ثم عرض الجند في السلام والكراع وسار واستخلف علىٰ مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلىٰ بلاده فأتاه وأتىٰ ملك كفتان بهدايا

وأموال، ودعا إلى بلاده فمضى مع ملك الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساءه جواره وضيق عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشومان وهما من طخاستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن في مقدم الناس وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم.

وفي سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كان في يد نيزك أسرى من المسلمين، فكتب إليه قتيبة يأمره بإطلاقهم ويتهدده؛ فخافه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك.

فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل باذغيس على أن لا يدخلها.

وبعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفي ذات يوم لقي المسلمون عدوهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم وبينها فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو.

ولما كان الربيع سار عن مرو في عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكث وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثينة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف إليه الترك معهم الصغد وأهل فرغانة فاعترضوا

المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسنًا وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع إلى مرو فقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو .

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وإنها من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو سنة ٩٠ فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم ولكن قتيبة سبقهم إلى بخارى فحصرها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة : من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشى إلى بني تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بني تميم أتسلمونني اليوم قالوا لا يا أبا مطرف وكان هزيم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بني تميم، فقال : وكيع قدم يا هزيم ودفع إليه الراية، وقال : قدم خيلك فتقدم هزيم ودب وكيع في الرجال فانتهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع : أقحم يا هزيم فنظر إليه هزيم نظر الجمل الصئول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فإن انكشفت كان هلاكها والله إنك لأحمق، فقال وكيع مغضباً : أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فرسه فأقحمه وقال ما بعد أشد منه وعبر هزيم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر، وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر، ومن لا فليثبت مكانه فعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو

فجعل الخيل مجنبيه وقال لهزيم إني مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل، وقال للناس شدوا فحملوا فما تثنوا حتى خالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه، ولما تم الفتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها.

وفي سنة ٩٣ فتح مدائن خوارزم صلحًا وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهي مدينة الصغد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجدًا وصلى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار قال: لا هذا أحسن وأنا الذي أقول:

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه ... وأكثر فينا مقسمًا بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعًا إلى مرو واستخلف على سمرقند عبدالله بن مسلم وخلف عنده جندًا كثيفًا وآلة من آلات الحرب كثيرة. ثم انصرف إلى مرو فأقام بها.

وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش[1] وفرغانة[2] حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالاً شديداً فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر[3] وهي أدنى مدائن الصين سار إليها من مرو فمر بفرغانة

---

(١) إقليم متاخم لبلاد الترك وإقليمها أكبر إقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت. (المؤلف).

(٢) مدينة وكورة مما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ فرسخًا ومن ولايتها خجندة. (المؤلف).

(٣) مدينة يسافر إليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك (المؤلف).

وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبدالملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها وكان بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل إليه قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين، قال لهم: قولوا لقتيبة ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضي صاحبك قال: إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فإنا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطئ التراب ثم عاد إلى مرو.

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العظماء من كُتّاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم.

كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته.

وأما موسى بن نصير فإنه ذلك القائد العظيم الذي فتح بلاد الأندلس وأدخل الإسلام في قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الأندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا إن شاء الله فإنا نؤجل الكلام عن فتحه الآن.

وأما مسلمة بن عبدالملك فإن عزيمته ظهرت في حروب الروم فكان في كل

سنة يسير إليه الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبدالملك ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وإذاورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم.

ولاية العهد:

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه في حق أخيه عبدالعزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتولية عبدالعزيز بن الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة ابن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبدالعزيز فكتب إليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك.

ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه.

وفاة الحجاج:

في شوال سنة ٩٥ توفي بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنه ٥٤ سنة واستخلف على الصلاة ابنه عبدالله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة.

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فإن فعل أحد شيئًا من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كان لتلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالأنباء الكاذبة حتى تكبهم على

وجوههم وكان الحجاج من القسم الأول فعسف بأهل العراق وأذل عظماءهم حتىٰ لم يكن عندهم امتناع، أسرف في القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتىٰ انتهىٰ أمره إلىٰ السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد، قال له عبد الملك يومًا كل امرئ يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبئ عني شيئًا.

قال أنا لجوج حقود حسود، ومتىٰ كانت هذه الصفات في ذي سلطان أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج.

لم يكن الحجاج خاليًا من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شرًا عظيمًا، وكان فصيحًا لا يكاد يعادله أحد في الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين.

وعلىٰ الجملة فإن الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحىٰ في سبيل ذلك أرواحًا كثيرة وكان الخراج العراقي في زمن الفتن والعسف قد قل جدًا، وإنا كما علمتم لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها إصلاحًا حقيقيًا وإنما هي طريقة إذلال وإخضاع لا يدوم أثرها كثيرًا؛ لأن النفوس تنطوي علىٰ ما فيها من البعض والكراهة حتىٰ إذا حانت لها الفرصة وثبت.

وفاة الوليد بن عبد الملك:

في منتصف جمادىٰ الآخرة سنة ٦٦ توفي بدير مران الوليد بن عبدالملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ إلىٰ منتصف جمادىٰ الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه إذ توفي ستًا وأربعين سنة، وكان له من الأولاد تسعة عشر ابنًا.

* * *

٧ـ سليمان

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة، بويع بالخلافة بعد موت أخيه، وكان بالرملة من أرض فلسطين، وكانت لأول عهده أحداث خير وشر.

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد؛ فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلاً:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد، فلما وصل إلى العراق حبس بواسط فقال:

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام وتناسى ما فعله ذلك القائد من عظيم الأعمال، ولا ندري كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك.

أما القائد الثاني: قتيبة بن مسلم فإنه كان ممن وافق الوليد على غرضه في عزل سليمان وتولية ابنه عبدالعزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو يعد من صنائع الحجاج، فلما ولي سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولي خراسان يزيد بن المهلب، فكتب إليه كتابًا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بولائه وطاعته لعبد الملك والوليد، وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن

لم يعزله عن خراسان، وكتب كتابًا ثانيًا يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعظم صوته فيهم، ويذم المهلب وآل المهلب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه، وكتب كتابًا ثالثًا فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلي وقال له: ادفع إليه الكتاب الأول؛ فإن كان يزيد بن المهلب حاضرًا فقرأ الكتاب ورماه إليه فادفع إليه الثاني؛ فإن قرأه ورماه إليه فادفع إليه الثالث؛ فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه؛ فاحتبس الكتابين الآخرين، فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب، فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد، فدفع إليه الثاني، فقرأه ورماه إلى يزيد؛ فأعطاه الثالث فقرأه؛ فتمعر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول إلى دار الضيافة، ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة فإن قتيبة غير مطمئن إلى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعًا سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه.

قال رجل من عجم خراسان: يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب إليه أن احتلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأنى قال عبدالرحمن بن جمانة الباهلي يرثيه:

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر	**بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا**
ولم تخفق الرايات والقوم حوله	**وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا**
دعته المنايا فاستجاب لربه	**وراح إلى الجنات عفا مطهرا**
فما رزئ الإسلام بعد محمد	**بمثل أبي حفص فيبكيه عيهرا**

وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجنى عليه وكيع، وعلى كل حال فإن الذي حصل كان موافقًا لهوى سليمان بن عبد الملك.

وأما القائد الثالث: وهو موسى بن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فإنه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد، وكان سليمان منحرفًا عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالاً عظيمًا لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب في معونته وعلى الجملة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم.

أما العامة فإنهم استبشروا به؛ لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم في عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس.

الفتوح في عهده:

في عهد إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جندًا وسار إلى طبرستان فقاتله بها الأصبهبذ قتالاً شديدًا ثم صالحه أخيرًا وبينا هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد إليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحًا عظيمًا؛ لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد إلى سليمان بن عبدالملك (أما بعد فإن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحًا عظيمًا وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه في خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة في نعمه عليه وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة

آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله) .

في بلاد الروم:

في عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبدالملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر .

ولاية العهد:

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي ومرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه .

وفاة سليمان:

يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه إذ توفي ٤٥ سنة .

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر - يزيد الثاني

٨ - عمر

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه.

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذي لم يكن فتح وجمع بني أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعي عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبدالملك يسترجع لما أخطأه.

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ما هذا قالوا مركب الخلافة قال دابتي أوفق لي وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد.

كان عمر بن عبدالعزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها. كذلك كان عمر بن عبد العزيز.

في أول خلافته أرسل كتاباً عامّاً إلى جميع العمال بالأمصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه

واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس عليّ بهين ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابًا شديدًا ومسئلة غليظة إلا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقي عليه من أمر المسلمين .

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السرح إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه فإن بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قومًا إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكوا ظلمًا أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوة .

فقال أهل الصغد بل نرضى بما كان ولا نجد حربًا لأن ذوي رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا؛ وهذا عمل لم نعلم أن أحدًا وصل في العدل إليه .

ومما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم إلا أن يسفكوا دمًا ويفسدوا في الأرض فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليبًا حازمًا فوجهه إليهم ووجه معه

جنداً وأوصه بما أمرتك فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبدالله البجلي وكتب عمر إلىٰ رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير، وكان كتاب عمر «بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولىٰ بذلك مني فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا» فكتب بسطام إلىٰ عمر قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك.

ولما وصل هذان الرجلان إلىٰ عمر ناظراه فقال لهما عمر: ما أخرجكما هذا المخرج، وما الذي نقمتم.

فقال المتكلم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرىٰ العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم.

فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إليّ رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره عليّ أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم.

فقال: بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت علىٰ هدىٰ وهم علىٰ ضلالة فالعنهم وابرأ منهم.

فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبًا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانًا وقال إبراهيم ﴿**فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال الله عز وجل ﴿**أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الانعام: ٩٠] وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفىٰ بذلك ذمًا ونقصًا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متىٰ لعنت فرعون.

قال: ما أذكر متىٰ لعنته. قال: أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون؟ قال: أما هم

كفار بظلمهم؟ قال: لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلىٰ الإيمان فكان من أقرّ به وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد فقال الخارجي إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلىٰ توحيد الله والإقرار بما نزل من عنْده.

قال عمر: فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا علىٰ أنفسهم علىٰ علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء.

قال الخارجي فابرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم.

قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا علىٰ حق؟ قال: بلىٰ قال: أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبىٰ الذراري وأخذ الأموال قال: بلىٰ قال: أتعلم أن عمر رد السبايا بعده إلىٰ عشائرهم بفدية؟ قال نعم: قال فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قال: لا قال: أفتبرءون أنتم من واحد منهما؟ قال: لا قال: فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دمًا ولم يأخذوا مالاً وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل؟ قال: نعم - قال فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ قال: لا قال: أفتبرئون أنتم من إحدىٰ الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟ فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ وتردون عليهم ما قبل؛ ويأمن عندكم من خاف عنده؛ ويخاف عندكم من أمن عنده، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمنا وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم.

فقال الخارجي أرأيت رجلاً ولي قومًا وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلىٰ رجل غير مأمون أتراه أدىٰ الحق الذي يلزمه الله عز وجل أو تراه قد سلم؟ قال عمر؛ قال أفتسلم هذا الأمر إلىٰ يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق

قال إنما ولاه غيري والمسلمون أولىٰ بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترىٰ ذلك من صنع من ولاه حقًا.

وكان هذا السؤال الأخير محرجًا لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه.

وكانت هذه المناظرة سببًا لأن أحد الرسولين شهد أن عمر علىٰ حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء، أما الثاني فقال: ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات علىٰ المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم.

فانظروا كيف فعل مع عمر هؤلاء الناس لما علم أنهم إنما خرجوا طلبًا للآخرة ولكنهم أخطئوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره. وهذا من نهاية الرفق علىٰ أمته.

ومن أعماله العظيمة تركه لسب عليّ بن أبي طالب علىٰ المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب إلىٰ الأمصار بتركه وكان الذي وقر ذلك في قلبه أنه لما ولي المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء عما يقوله بنو أمية فقال عبيدالله متىٰ علمت أن الله غضب علىٰ أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك في علي فقال عمر معذرة إلىٰ الله وإليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] فأي شر رفع وأي خير وضع وقال في ذلك كثير عزة:

وليت فلم تشتم عليًّا ولم تخف ... بريًّا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذي قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغه ... من الأود البادي ثقاف المقوم

ومن إصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب إلىٰ سليمان بن أبي السري أن اعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فأقروه يومًا وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعًا فأبلغه بلده.

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف فقد كتب إلىٰ أمير العراق (أما بعد: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الإثم ولا تحمل خرابًا علىٰ عامر وخذ منه ما طاق وأصلحه حتىٰ يعمر ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج علىٰ من أسلم من أهل الذمة فاتبع في ذلك أمري فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) ومما فعله أنه نهىٰ عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل علىٰ حسب هوىٰ الأمير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل هذه الحدود وضم رأي الخليفة إلىٰ رأي القاضي الذي حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد وقع موقعه.

رده المظالم لأهلها ـ لما ولي الخلافة أحضر قريشًا ووجوه الناس فقال لهم: إن فدك كانت بيد رسول الله ﷺ فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إليّ ولم تكن من مالي أعود منها علي وإني أشهدكم أني قد رددتها علىٰ ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ.

وقال لمولاه مزاحم: إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه وإني قد هممت برده علىٰ أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال: أكلهم إلىٰ الله فخرج مزاحم حتىٰ دخل علىٰ عبد الملك بن عمر فقال له إن أمير المؤمنين قد عزم علىٰ كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال

عبد الملك: بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال: إن مزاحمًا أخبرني بكذا وكذا فما رأيك؟ قال: إني أردت أن أقوم به العشية وقال: عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث، أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ثم قام من ساعته في الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت: تكلم يا أمير المؤمنين فقال إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابًا إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملهما ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت: حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئًا أبدًا فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا.

لما ولي عمر قال للناس في خطبة: «من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده؛ وبدلنا من الخير على ما نهتدي إليه ولا يغتابن أحداً؛ ولا يعترض فيما لا يعنيه» فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله.

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف في ملبسه كجده عمر بن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبد الملك فلما مرض مرضه الذي توفي فيه دخل عليه عمر فقال: يا بني كيف تجدك؟ قال: أجدني في الحق قال: يا بني أن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك فقال: يا أباه لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب فمات في مرضه وله سبع

عشرة سنة قال مرة لأبيه : يا أمير المؤمنين ما تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقًّا لم تحيه أو باطلاً لم تمته فقال : يا بني إن أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إلي وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنًا وجميلاً ألا تطلع الشمس علي في يوم إلا أحييت فيه حقًا وأمت باطلاً حتىٰ يأتيني الموت وأنا علىٰ ذلك؟

وعلىٰ الجملة فإن عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لا يسمح بهم القدر كثيراً .

ويرىٰ المسلمون أن عمر هو الذي بعث علىٰ رأس المائة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء في حديث «**إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**»[1] .

وربما تسأل عمن اكتسب عمر هذه الأخلاق وهو في بيئة المترفين والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الإنسان فنقول : إن عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه إلىٰ المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهائها وصلحائها ، فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرأفة بها .

قال محمد بن علي الباقر : إن لكل قوم نجيبة ، وإن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتىٰ تعلمنا منه وقال ميمون : كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر : ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر أهله .

لم يحدث في عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض علىٰ يزيد بن المهلب وإحضاره إلىٰ عمر فسأله عن الأموال التي كتب بها إلىٰ سليمان بن عبد الملك فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلىٰ سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة .

فقال: لا أجد في أمرك إلا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب. فقال: يا أمير المؤمنين إن الله منح هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ما عليه فصالحني على ما تسأل فقال عمر: لا، إلا أن تحمل الجميع.

فقال: يا أمير المؤمنين إن كانت لك بينة فخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر: ما آخذه إلا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر بن عبد العزيز واستمر ابن المهلب في سجنه حتى إذا أحس بقرب موت عمر أعد للهرب عدته خوفًا من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قد حارب آل أبي عقيل وهم أصهار يزيد لأنه كان متزوجًا ببنت أخي الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب إلى عمر إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألحقه بي وهضه فقد هاضني.

ومن الحوادث الخارجية في عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب.

واستقدم مسلمة بن عبدالملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية وطرندة داخلة في البلاد الرومية من ملطية ثلاث مراحل وكان عبد الله بن عبد الله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي عمر فأمرهم بالعود إلى ملطية وأخلى طرندة خوفًا على المسلمين من العدو وأخرب طرندة.

وفاة عمر بن عبدالعزيز:

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته

سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصري أربعة عشر يومًا بدل أربعة أيام لأنه ذكر وفاة سليمان في ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكره إلا أنه ذكر في بعض الروايات أن سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه إذا كان ذلك صح أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية في موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر.

٩ - يزيد الثاني

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر بويع بها فلما تولىٰ عمد إلىٰ كل صالح فعله عمر فأعاده إلىٰ ما كان عليه وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان.

وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي بن أرطاة فاستولىٰ عليها وعلىٰ ما يليها من فارس والأهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشًا عظيمًا يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك.

خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلىٰ كتاب الله وسنته وحثهم علىٰ الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابًا من جهاد الترك والديلم.

فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك واليًا ومولّيًا عليك فما ينبغي لك ذلك فقام إليه أناس فأسكتوه خوفًا من أن يسمعه ابن المهلب.

وروى الطبـري [١] أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا إلى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب نصبًا ثم وضع عليها خرقًا ثم قال إني قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال إني أدعوكم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى محبس عمر الذي فيه حبسه .

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطًا فأقام بها أيامًا ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قندابيل لحقهم الجند الذي أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة ابن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فإنهما نجوا . وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تتباهى الأمم بهم ولما تم على يدي مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزاري فقال في ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا	**فارعى فزارة لا هناك المرتع**
عزل ابن بشر وابن عمرو قبله	**وأخو هراة لمثلها يتوقع**
ولقد علمت لئن فزارة أمرت	**أن سوف تطمع في الإمارة أشجع**
من خلق ربك ما هم ولمثلهم	**في مثل ما نالت فزارة تطمع**

يعني بابن بشر عبدالملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن عمرو بن

(١) «تاريخ الطبري» (٤ / ٨٠) .

الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبدالعزيز وكان عاملاً لمسلمة على خراسان .

وولى ابن هبيرة سعيد الحرشي على خراسان وكانت له مع الصغد ـ أهل سمرقند ـ وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها .

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبدالملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال : يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن ملاقاة العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي ، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد .

ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراحَ بن عبدالله الحكمي حينئذ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء فسار الجراح حتى وصل برذعة ، وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكرو ولما وصل إلى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيماً ثم سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه .

ثم سار إلى بلنجر ، وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار ، ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل إليه فحضر ورد إليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينًا لهم يخبرهم بما يفعل العدو ، ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفًا من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه .

وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثرًا وفتحًا في تلك البلاد القاصية .

ولاية العهد:

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده، فقيل له إنه صغير، فولى أخاه هشامًا ومن بعده ابنه الوليد.

وفاة يزيد:

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفي يزيد بن عبدالملك بالبلقاء من أرض دمشق، وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة؛ وقد أقام خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥ رجب سنة ١٠١ إلى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥

المحاضرة الأربعون

هشام ـ الأحوال الداخلية في عهده ـ صفته ووفاته ـ الوليد الثاني ـ يزيد الثالث ـ مروان الثاني

١٠ ـ هشام

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان أبوه عبدالملك إذ ذاك يحارب مصعب بن الزبير وأمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل المخزومية.

وكان حين مات أخوه يزيد مقيمًا بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول سنة ١٢٥ أي تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يومًا وكان هشام معدودًا من خير خلفاء بني أمية ولعمري إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك.

الأحوال الداخلية في عهده:

في العراق والشرق ـ كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبدالله القسري وهو قحطاني.

فاختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبدالله واستعمل الجنيد بن عبدالرحمن على السند.

فأما أسد بن عبدالله فقد كان همامًا مقدامًا غزا في أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم.

وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند إلى بلخ وأقطع كل من كان له

بالبروقان مسكنًا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكنًا وتولىٰ بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان، وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان علىٰ مضر فأفسد الناس. ضرب نصر ابن سيار ونفرًا معه بالسياط منهم عبدالرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبختري ابن أبي درهم وحلق رءوسهم وسيرهم إلىٰ أخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر.

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ... ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا

إذًا للقيتم عند شد وثاقه ... بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وخطب أسد يومًا فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني إلىٰ مهاجري ووطني.

فبلغ فعله ذلك هشامًا فكتب إلىٰ خالد اعزل أخاك فعزله ثم ولىٰ هشام خراسان أشرس بن عبدالله السلمي وأمره أن يكاتب خالدًا وكان أشرس فاضلاً خيرًا وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به ولأول عهده أرسل إلىٰ أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلىٰ الإسلام علىٰ أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك إلىٰ الإسلام فكتب صاحب الخراج إلىٰ أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلىٰ أمير سمرقند إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة إنما أسلموا تعوذًا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه.

كان رسول أشرس إلىٰ الصغد بدعوة الإسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأىٰ العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة أن عصىٰ أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس علىٰ أبي الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتىٰ جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فأعانوهم، لما علم بذلك أشرس خرج غازيًا في جنوده حتىٰ عبر النهر من

عند آمل فأقبل إليه الصغد والترك وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتىٰ هزموا عدوهم، ثم سار أشرس حتىٰ نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشًا لولا أن انتدب شجعانهم إلىٰ الترك فأزالوهم عن الماء واستقىٰ الناس ثم غلبوهم علىٰ مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم.

فذهب خاقان إلىٰ مدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارىٰ فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي علىٰ الخندق واستماتوا في المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم علىٰ الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأىٰ ذلك خاقان أرسل إلىٰ من بالمدينة يقول لهم: إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتىٰ نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له: ليس من ديننا أن نعطي ما بأيدينا حتىٰ نقتل فاصنعوا ما بدا لكم.

ثم اتفق معهم خاقان أخيرًا علىٰ أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلىٰ سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلىٰ الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين.

وفي سنة ١١١ عزل هشامٌ أشرسَ بن عبدالله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبدالرحمن المري فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضريًا.

وفي سنة ١١٢ خرج غازيًا يريد طخارستان فوجه جندًا عدده ثمانية عشر ألفًا إلىٰ طخارستان وجندًا عدده عشرة آلاف إلىٰ وجه آخر فكتب إليه أمير سمرقند أن خاقان ملك الترك قد جاش فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر.

فقال له ذوو الرأي ممن معه إن أمير خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين

ألفًا وأنت قد فرقت جندك، قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتىٰ صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان في جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسنًا مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأىٰ الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبدالله بن حبيب: اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر؛ قال هلاك سورة أهون علي قال فاكتب إليه فليأتك في أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه، فكتب الجنيد إلىٰ سورة يأمره بالقدوم، فرحل سورة عن سمرقند في اثني عشر ألفًا فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فانكشف الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فانقدت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل.

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم علىٰ المسير إلىٰ سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولىٰ قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضىٰ الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة إلىٰ مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه أن خاقان قصد بخارىٰ فسار بالجنود من سمرقند محترسًا علىٰ تعبية فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها ولم يزل سائرًا حتىٰ ورد بخارىٰ، والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره.

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولي بدله عاصم بن عبدالله الهلالي وكان هشام قد غضب علىٰ الجنيد لأنه تزوج الفاصلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم إن أدركته وبه رمق فأرهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله

من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابسًا السواد داعيًا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم وهرب الحارث.

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبدالملك يقول له: (أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون موادها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غياثه عنها فعزل هشام عاصمًا عن خراسان وولاها أسد بن عبدالله القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد، ولما بلغ عاصمًا إقبال أسد صالح الحارث بن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وأن يكتبا جميعًا إلى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن أبى اجتمعا عليه فختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو وأصحابه ولما قدم أسد حبس عاصمًا وحاسبه وطلب منه مائة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد.

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله، ثم إن خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض وأرسل أسد مبشرًا إلى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكرًا.

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر في

أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله إلى الصين . وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة .

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبدالملك خالداً القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملاً على اليمن فسار حتى أتى الكوفة في جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسن تلك السنة القبيحة المشئومة .

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازمًا للمسجد ضابطًا لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعًا حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحدًا حتى يصلي الضحى ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفًا في ضرب الأبشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه فإن تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة .

ولي خراسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف بن عمر .

وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره ، وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سرًا قيل ١٥ ألفًا وقيل أربعون وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ .

وبلغت الأخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ، ولما علم بذلك أهل الكوفة جاءوا زيداً وقالوا له : ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال : رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان ما ذكرتم من رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ، فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى

قتالهم؟ فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك؛ هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة.

وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته أكثر من مائتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق. وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن.

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ما وراء النهر كان له فيها النصر دائماً، ووضع الجزية عمن أسلم من العجم.

وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان.

في أرمينية وأذربيجان - كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبدالله الحكمي وكان له غزوات إلى ما وراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولى بدله مسلمة ابن عبدالملك فأرسل مسلمة نائبًا عنه وهو الحارث بن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقًا وقرى كثيرة وأثر فيها أثرًا حسنًا وفي سنة ١١٠ سار مسلمة إلى الترك من باب اللان فلقي ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريبًا من شهر وكانت الهزيمة على الترك.

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالمًا فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل، وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظيم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد

سعيداً الحرشي وأتبعه بالجنود، ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل إلى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئًا بعد شيء إلى أن وصل برذعة فنزلها.

كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا فسار إليهم ليلاً فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشي بجهة برزند واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى الجملة فإن الحرشي أذل الخزر إذلالاً شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه.

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاره إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانيًا فسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصونًا ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب في آخر رمق.

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروانُ بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئًا مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمائة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فأجابه إلى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه

أمامه ذليلاً فأقام مروان في تلك البلاد أيامًا ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح أقلاعًا ودان له الملك ولما رأىٰ أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح علىٰ أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتىٰ لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفًا شديداً ودانت له جميع البلاد التي علىٰ شاطئ بحر الخزر .

في الشمال:

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالي للبلاد الإسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الأصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولىٰ أرمينية) ومسلمة بن عبدالملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام، وقد افتتحوا في غزواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع .

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير علىٰ الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبدالرحمن بن معاوية بن خديج ومن أكبر القواد عبدالله بن عقبة .

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبدالوهاب بن بخت سنة ١١٣، وكان يغزو مع عبدالله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبدالوهاب وصاح أنا عبدالوهاب بن بخت، أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول: واعطشاه!، فقال: تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل، وفي سنة ١٢٢ قتل عبدالله البطال وكان كثير الغزو إلىٰ بلاد الروم والإغارة علىٰ بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفًا شديداً وسيره عبدالملك بن مروان مع ابنه مسلمة إلىٰ بلاد الروم وأمره علىٰ رءوس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله علىٰ مقدمته وطلائعه وقال: إنه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة علىٰ عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم .

وإنما أشرنا إلى ذكر عبدالوهاب والبطال لأنهما بطلا رواية كبيرة ألفت في عصر لا نعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهي أم عبدالوهاب وقد كنا في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحداً يقرأ منها شيئًا وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر أنهما ألفا في عصر واحد.

في الحجاز:

كان والي الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبدالملك بن مروان وفي سنة ١٠٦ حج هشام بن عبدالملك، ومما يروى عنه في حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبدالله بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول يا أمير المؤمنين، إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعنه فيها، فشق على هشام قوله وقال: لا قدمنا لشتم أحد ولا للعنه، قدمنا حجاجًا ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد راوي هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه.

ولما دخل مكة كلمه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له: أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظمًا له إلا رددت عليّ ظلامتي قال: أي ظلامة؟ قال: داري قال: فأين كنت عن أمير المؤمنين عبدالملك؟ قال: ظلمني، قال: فالوليد وسليمان قال: ظلماني قال: فعمر، قال: رحمه الله ردها عليّ قال: فيزيد بن عبدالملك.

قال ظلمني وقبضها مني من بعد قبضي لها وهي في يدك فقال هشام: لو كان فيك ضرب لضربتك قال: فيّ والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول: لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا!

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذي يقيم للناس حجهم إلا في سنة ١١٦ فإن الذي أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك ولي العهد وفي سنة

١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبدالملك.

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام.

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه - إن شاء الله وحده - في تاريخ مصر هذا مجمل حال الأمة العربية في عهد هشام الذي طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الأعداء إلا أن الذي يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعبًا جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلاً لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويًا فإذا ضعف أثره قليلاً ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد أنه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل.

ولاية العهد:

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبدالملك هو الوليد بن يزيد فبدا لهشام أن يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وإن كان قد أجابه بعض القواد إلى ما أراد وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالأزرق على ماء له بالأردن.

وفاة هشام:

لستٍّ خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفي هشام بن عبدالملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يومًا (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥).

صفته:

كان هشام مشهورًا بالحلم والعفة، شتم مرة رجلاً من الأشراف فقال له الرجل: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض.

فاستحيا منه هشام وقال: اقتص مني قال إذًا أنا سفيه مثلك قال: فخذ مني عوضًا من المال قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها لله، قال: هي لله ثم لك.

فنكث هشام رأسه واستحيا وقال: والله لا أعود لمثلها أبدًا.

قال عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس: جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديوانًا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام. وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض.

والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف.

ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفًا حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء إليه كثيرًا حتى ساء خلقه؛ ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته.

١١ ـ الوليد الثاني

هو: الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي كان وليًا للعهد بعد هشام وكان مغاضبًا له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرناه.

ولم يزل مقيمًا في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول ما فعله أن كتب إلى العباس بن عبدالملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد.

وقد أثر عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله:

هـلـك الأحـــــول المشـ ـئـوم وقــد أرسل المطر
ومـلـكـنـا مـن بـعـــد ذا ك فـقـد أورق الشـجـر
فــاشكـــر الله إنـه زائـد كـل مـن شـكـر

وقوله:

ليت هشامًا كان حيًّا فيرى مـحلبه الأوفر قد أترعا
ليت هشامًا عاش حتى يرى مكياله الأوفر قد طبعا
كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به أصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشامًا عليه وهم كثير من سادة الأمة وأفراد البيت الأموي.

كان ممن أجاب هشامًا إلى خلع الوليد محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل المخزوميان فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفي واليًا عليها ودفع إليه محمدًا وإبراهيم موثقين في عباءتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا إلى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد: أسألك بالقرابة.

قال: أي قرابة بيننا قال: فقد نهى رسول الله ﷺ عن ضرب بسوط إلا في حدّ قال: ففي حدّ أضربك وقود أنت أول من فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجي إياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوثقهما حديدًا وأمر أن يبعث بهما إلى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتى ماتا.

وأخذ سليمان بن هشام بن عبدالملك فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك.

وكان خالد بن عبدالله القسري سيداً من سادات اليمن فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبىٰ فغضب عليه الوليد، وكان ذلك سببًا في أن أرسله إلىٰ يوسف بن عمر الثقفي والي العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذابًا شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلىٰ الكوفة فعذبه عذابًا شديداً حتىٰ مات فأفسد ذلك علىٰ الوليد قلوب اليمانية، وفسدت عليه قضاعة وهم أكثر جند الشام.

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبدالملك وكان الناس إلىٰ قوله أميل؛ لأنه كان يظهر النسك.

بذلك كله نفرت من الوليد القلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله إلا شهوة الانتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع.

أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه علىٰ البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس ابن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايعه الناس سرًّا وبعث دعاته فدعوا إليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب إلىٰ سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهىٰ الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد إلىٰ العباس بن الوليد فاستدعىٰ العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلىٰ دمشق، وقد بايع له أكثر أهلها سرًّا وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج فاستولىٰ يزيد علىٰ دمشق وجهز جيشًا لمقاتلة الوليد عليه عبدالعزيز بن الحجاج بن عبدالملك فذهب إليه وهو بالأغدف من أرض عمان، فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه، وجلس وأخذ مصحفًا فنشره يقرأ فيه وقال: يوم كيوم عثمان فصعدوا علىٰ الحائط، ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلىٰ يزيد فنصبه علىٰ رمح وطِيف به في دمشق.

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادىٰ الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر، وبقتله افتتح باب الشؤم علىٰ بني أمية.

١٢ ـ يزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرىٰ وفي ذلك يقول :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدي وجدي خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك لليلتين بقيتا من جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمىٰ يزيد الناقص قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردها إلىٰ ما كانت عليه زمن هشام، وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب في البيت الأموي ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته .

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمَّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم علىٰ ما أرادوا من ذلك مروان بن عبدالله بن عبدالملك وكان عاملاً للوليد علىٰ حمص وهو من سادة بني مروان نبلاً وكرمًا وعقلاً وجمالاً؛ فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسلاً فيهم يعقوب بن هانئ وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلىٰ نفسه وإنما يدعو إلىٰ الشورىٰ، فلم يرض بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشًا عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتىٰ نزل حوارين .

كان أهل حمص يريدون الذهاب إلىٰ دمشق فأشار عليهم مروان بن عبدالله أن يبدءوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفياني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلىٰ دمشق فسار سليمان مجدًّا في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جندًا آخر يقدمه عبدالعزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان علىٰ أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عددًا عظيمًا ولما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبدالملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا أمرهم محمد بن عبدالملك واجتمعوا مع أهل فلسطين علىٰ قتال يزيد بن عبدالملك فسير إليهم يزيد

سليمانَ بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفًا ولم تتم لأهل فلسطين والأردن لأنهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد .

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فإن يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم، قام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن علي الأزدي المعني ويلقب بالكرماني لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية، فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الأزد حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لأن كلاً منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئًا لدعاة بني العباس، ولم يكن عند ولاة الأمر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال .

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فإنه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا من استخلافه .

وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن عبدالملك .

فلما توفي يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما .

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرض

ولاية إبراهيم فسار إلى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الحر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل إبراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى عليها وبايعه أهلها وهرب إبراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الأمر لإبراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء .

١٣ ـ مروان الثاني

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لإبراهيم بن الأشتر فأخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان واليًا على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك .

وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧ .

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع إلى أن قتل .

وأول ما كان من ذلك خروج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعيًا إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جدًا وكان والي العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز فجد في حربه ، وكانت العامة تميل إليه لمحبتهم لأبيه فساعد ذلك على أن غلب عبدالله بن معاوية ونفاه عن العراق .

ثم كان بالشام ما هو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم .

ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم ، ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك فإنه قد حسّن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع

مروان وقالوا له: أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة.

فأجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فأقبل إليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة أن انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيمًا فقتلهم، ويقال إنه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين ألفًا ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان، وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا، ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها، أما مروان فأتى حمص واستولى عليها.

فأنتم ترون أن القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقًا محزنًا تبعًا لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص.

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز فهرب عبدالله إلى واسط فتبعوه، ولما اشتدت الحرب سلم عبدالله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية؛ وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبدالملك ولما تم ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذ ذاك محاصراً لحمص فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبدالله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار إليها في سبعة آلاف فسار إليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف، ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفر توثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على

جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبري إلىٰ خيمته وثبتت الميمنة والميسرة، ولما رأىٰ أهل العسكر قلة من مع الخيبري ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز المعسكر بخمسة أميال منهزمًا فانصرف إلىٰ عسكره ورد خيوله إلىٰ مواقعها وبات ليلته في عسكره.

ولما علم الخوارج بقتل الخيبري ولوا بدله شيبان بن عبدالعزيز اليشكري فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأىٰ أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلىٰ الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر.

في أثناء ذلك سَيّر مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلىٰ العراق بالجنود فأجلىٰ الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سَيّر جندًا لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسيّر مروان في أثره جندًا وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فإن قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتىٰ لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضىٰ شيبان إلىٰ سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠ ومن الذين خرجوا علىٰ مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو الناس إلىٰ خلاف مروان بن محمد ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ وافىٰ عبدالله بن يحيىٰ في آخر سنة ١٢٨ فقال له: يا رجل أسمع كلامًا حسنًا أراك تدعو إلىٰ حق فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي فخرج حتىٰ ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة علىٰ الخلافة ودعا إلىٰ خلاف مروان وآل مروان.

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ إذ طلعت عليهم أعلام وعمائم سود علىٰ رءوس الرماح وهم سبعمائة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك وهو يومئذ علىٰ مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا: نحن بحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم علىٰ أنهم جميعًا آمنون بعضهم من بعض حتىٰ ينفر الناس النفر الأخير.

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبدالواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبدالواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليهم عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربًا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا ولا بطرًا ولا عبثًا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا و لكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢] أقبلنا من قبائل شتى النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافًا واحدًا قليلون مستضعفون في الأرض فقوّانا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعًا بنعمته إخوانًا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ثم أقبلوا ليهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذي رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين، يا أهل المدينة أولكم خير أول، وآخركم شر آخر، يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركًا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إمامًا جائرًا، يا أهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسًا فوق طاقتها أو سألها ما لم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب، يا أهل المدينة أخبروني ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القوي والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابرًا محاربًا لربه، يا

أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابًا أحداثًا، شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا لله عز وجل أنفسًا تموت بأنفس لا تموت قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقًا إلى الجنة فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨].

ثم إن أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فإذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبدالله بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهرًا وبعد ذلك سار إلى اليمن وبلغ عبدالله بن يحيى مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا قتل عبدالله وحمل رأسه إلى الشام.

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بني العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بني العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بني أمية (وسنفصل

حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدولة العباسية).

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لأبي العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر في إرسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الأخير فاختار عمه عبدالله بن علي قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبدالله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبدالله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلاً في كنيسة بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الخاتمة

في مدنية الإسلام في عهد الدولة الأموية وأسباب سقوطها

الخلافة الإسلامية:

ليست الخلافة في عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد في العهد الأموي الحُجَّاب والمقاصير في المساجد الجامعة وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله ﷺ: من رأى منكم فيّ اعوجاجًا فليقومه.

قال عبدالملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم في الأسواق والمجامع يأمر وينهى ويربي ويؤدب رأينا الوليد بن عبدالملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنه واحترام الأمير عمر بن عبدالعزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروي الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد بن عبدالملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبدالملك:

طاب يومي ولذ شرب السلافة ... وأتانا نعي من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشامًا ... وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزئ أحدهم بأقل ما يجتزئ به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافًا لا عليه ولا له، صرنا نرى بني مروان قد انغمسوا في الترف فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد ابن يزيد.

وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته إما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتىٰ كان عبدالملك يقول للناس: «تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر وتسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر» فكأنه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه علىٰ ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد ابن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له.

هم بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

وإذا كنا علىٰ رأي من يقول: إن الأمة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبدالملك ويزيد فيما قالاه.

وعلىٰ الجملة فإن مظاهر الملك قد ظهرت علىٰ هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد.

الانتخاب والبيعة:

جرىٰ خلفاء بني أمية علىٰ اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ما عدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد ابن الوليد بن عبدالملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختار أهل الشام فغالب بهم حتىٰ استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة، ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتىٰ فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية علىٰ يد ابنه عبدالملك، ويزيد الثالث خرج علىٰ ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتىٰ قتله وحل محله.

ومروان بن محمد دعا إلىٰ نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ وردٍّ حتىٰ دالت دولتهم علىٰ يده.

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية.

ومعاوية الثاني اختاره يزيد، وعبدالملك اختاره أبوه مروان، والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبدالملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان: الأول ابن عمه والثاني أخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد الأول أخوه. والثاني ابنه.

ولم يحصل في عهد بني أمية أن اختار أحدهم واحدًا لولاية عهده بل كانوا دائمًا يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا عنها فكانت سببًا مهمًا من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه.

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيدًا للعهد والميثاق، وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموي ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد شذوا أحيانًا عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المري البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم في أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة ابن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه.

إدارة البلاد:

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم.

وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى وهي:

(١) الحجاز: وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف إلى ذلك أحيانًا بلاد اليمن وأحيانًا تكون مستقلة بأمير.

(٢) العراق: وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والأمير يقيم في الكوفة بعض

السنة وفي البصرة بعضها، وكانت خراسان تستقل أحيانًا بأمير يخاطب الخليفة رأسًا وقد يضاف أحيانًا إلى إمارة العراق بلاد اليمامة.

(٣) الجزيرة وأرمينية: وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية.

(٤) أجناد الشام: وكانت خمسة وهي: فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص، حتى كان يزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبجًا جندًا برأسه، وإنما سمّي كل منها جندًا؛ لأنه يجمع كورًا، والتجند التجمع، وقيل سميت كل ناحية بجند، كانوا يقبضون أعطياتهم فيه، والأقرب أن هذا هو أصل التسمية.

(٥) مصر وإفريقية: وتنتظم بلاد مصر وشمال إفريقية، وكانت إفريقية في بعض الأحيان تستقل بوالٍ عن مصر.

(٦) بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى إفريقية.

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود إمارته.

وكانت الأعمال التي ترجع إلى الخلفاء هي:

(١) إقامة الصلاة.

(٢) قيادة الجيش.

(٣) جباية الخراج والصدقات، ووضع ذلك مواضعه.

(٤) القضاء بين الناس في منازعاتهم، وقد كان الأمير يقوم مقام الخليفة أحيانًا في جميع ذلك ويقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائدًا للجيش ويعين جابيًا للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس، وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء، ويعين الخليفة عاملاً للخراج يرجع إليه رأسًا.

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف

الحاضر بالاستقلال الإداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيدالله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد ابن عبدالله القسري إلا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالاً للثقة التي حازها عند عبدالملك وابنه الوليد.

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضىٰ في حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره إلىٰ الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته، وقد ضيق علىٰ الأمراء عمر بن عبدالعزيز بعض التضييق؛ لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم أن لا ينفذوا حداً من الحدود من قتل أو قطع إلا إذا عرض عليه وأمر بتنفيذه، أما في عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل علىٰ أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس.

والذي دعا إلىٰ تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات، فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايته لطال عليهم الزمن، وبقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلاً وهذا مسبب للاضطراب الكثير.

ومن أعظم ما يؤخذ علىٰ بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم إذلال الأمراء ومصادرتهم في أموالهم وأحياناً الإتيان علىٰ أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدئ هذا في عهد سليمان بن عبدالملك فإنه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل، ووطئوا لهم المنابر واستمر الأمر علىٰ ذلك من بعد عمر بن عبدالعزيز إلىٰ أن انتهىٰ أمرهم، وقد كان هذا سبباً من أسباب فناء البيت الأموي.

ومن أغرب ما حصل لهم أن يوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العراق بعد خالد بن عبدالله القسري اشترىٰ من الوليد بن يزيد خالداً وعماله بخمسين ألف

ألف فدفعه إليه فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغير وطاء وعذبه عذابًا شديدًا وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله في الليل ودفنه من وقته بالحيرة في عباءته التي كان فيها وذلك بعد أن ولي خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم.

قيادة الجنود:

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح، فيه اتسعت حدود المملكة الإسلامية من الجهة الشرقية في السند والصغد وبلاد الترك، ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية في إفريقية والأندلس.

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام حينًا مع الخوارج وحينًا مع طلاب الخلافة من بني عليّ ولم يخل عصر خليفة أموي من حروب داخلية إلا عصر الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز.

فهي إذًا دولة حربية. ولا جرم أن امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حومة الوغي واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير في الحرب وها نحن نورد على أسماعكم جملة من أولئك الأفراد العظام الذين مر ذكرهم.

ممن اشتهر بالشرق:

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان علمه تامًّا بمكيدة الحرب والاحتراس من غوائلها واشتهر في حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات.

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلي وكان شجاعًا مقدامًا لا يردُّه شيء عن قصده، واشتهر بحروبه بما وراء النهر فإنه دوخ تلك البلاد وأذلّ أهلها. وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبدالملك عقب خلافته، وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته، وفقد الدولة صالح خدمتهم.

(٣) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان شجاعًا لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فإنه ردَّ أهلها إلى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق - طريق خراسان - وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأُخذ عليه خلعه ليزيد بن عبدالملك عقب خلافته. وكان ذلك سببًا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة في جبين الدولة الأموية.

(٤) خالد بن عبدالله القسري اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه «ملك العرب» وهابوه هيبة لم يهابوها قائدًا قبله وأُخِذ عليه عصبيته لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببًا في فساد أهل خراسان واختلافهم.

(٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفي اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قُتِل في أول خلافة سليمان بن عبدالملك واشتهر في أرمينية وأذربيجان.

(٦) محمد بن مروان بن الحكم الأموي كان شجاعًا أيدًا وعزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبدالملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان.

(٧) مروان بن محمد بن مروان كان كأبيه بطلاً مقدامًا سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن.

(٨) الجراح بن عبدالله الحكمي، وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر واشتهر في بلاد الروم.

(٩) مسلمة بن عبدالملك كان أشجع أولاد عبدالملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة، ولم يكن بنو أمية في أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر.

(١٠) أبو محمد عبدالله البطال كان رئيسًا على عرب الجزيرة الذين يغزون

ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة .

(١١) العباس بن الوليد بن عبدالملك كان يسامي مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيراً ما يقود الشواتي والصوائف إلىٰ البلاد الرومية واشتهر في الغرب وإفريقية .

(١٢) عقبة بن نافع، وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في إحدىٰ تلك الوقائع .

(١٣، ١٤) موسىٰ بن نصير، وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس وأدخلا الإسلام في قارة أوربا .

وهناك غيرهم من القواد؛ لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء ولم تكن همة الدولة الإسلامية قاصرة علىٰ تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يحمي البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير علىٰ بلادهم وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلاً عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر في الدولة الأموية تقل مهارة وإقداماً عن أمراء البحر الروميين وعلىٰ الجملة فإن الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها .

وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربي؛ لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجمياً .

القضاء والأحكام:

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة علىٰ بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلىٰ تسجيل الأحكام قال محمد ابن يوسف الكندي في كتاب الذين ولوا مصر (ص١٠) : اختصم إلىٰ سليم بن عنز - قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان - في ميراث فقضىٰ بين الورثة ثم

تناكروا فعادوا إليه فقضىٰ بينهم وكتب كتابًا بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند، قال: فكان أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه.

ولم يكن القضاة يتقيدون برأي في أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل علىٰ مقتضاها فكان الأمر راجعًا إلىٰ القضاة أنفسهم أو إلىٰ ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم.

كان توبة بن نمر لا يملك شيئًا إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم، فلما ولي القضاء بمصر في عهد هشام بن عبدالملك كان يرىٰ أن يحجر علىٰ السفيه والمبذر فرفع إليه غلام من حمير لا تحوي يده شيئًا إلا وهبه وبذره فقال توبة: أرىٰ أن أحجر عليك يا بني قال: فمن يحجر عليك أيها القاضي؟ والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر علىٰ سفيه بعد.

فهذا الخبر يدل علىٰ مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي يقضون بها.

وأحيانًا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث في اختيار الآراء التي يقضون بها، وأحيانًا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيدالله الأزدي قاضي مصر من قبل عمر بن عبدالعزيز إليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران؛ فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده، وقال: فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة.

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضًا في الأمصار المختلفة؛ لأن المجتهدين لم يكونوا علىٰ رأي واحد؛ ولم تلتفت الدولة إلىٰ التفكير فيما يجمع

كلمة المجتهدين على شيء يقضى به قضاتهم أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين، لم يفعلوا هذا ولا ذاك؛ بل تركوا لكل قاضٍ تمام حريته في الحكم بما يراه.

وكان يضاف إلى القضاء مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبدالرحمن بن معاوية بن خديج قاضي مصر من قبل عبدالعزيز بن مروان؛ فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتابًا وكان عنده. وقال الكندي: فجرى الأمر على ذلك.

وكانوا يتولون الأحباس، وأول قاضٍ بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام بن عبدالملك، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظًا لها من التواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانًا عظيمًا وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر.

كان اختيار القضاة يرجع غالبًا إلى أمراء الأمصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحيانًا كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأي في اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مد الأيدي إلى السحت رأيت أن عبدالرحمن بن مجيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار ومن القصص مائتي دينار ورزقه في بيت المال مائتي دينار وكان عطاؤه مائتي دينار وكانت جائزته مائتي دينار فكان يأخذ ألف دينار في السنة.

ورأيت في الكندي أمرًا بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء إلى خَزان بيت المال أعطوا عبدالرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين دينارًا واكتبوا بذلك البراءة، وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدمًا.

الدواوين:

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة:

(١) ديوان الجند.

(٢) ديوان الخراج.

(٣) ديوان الرسائل:

فأما ديوان الجند: فإنه مذ وضع كان بالعربية؛ لأن عمر إنما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش: وكان هذا الديوان يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية).

وأما ديوان الخراج: فإنه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية؛ لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث ولم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيه.

فلما ولي الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبدالرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان، وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفني ولا

آمن أن يقدمني عليك فتسقط منزلتك.

فقال زاذان: لا تظن ذلك هو أحوج إلي مني إليه؛ لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته، قال: فحول منه أسطرًا حتى أرى، ففعل، فقال له زاذان: تمارض فتمارض فبعث إليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان في فتنة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحًا فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في إمضائه فنقله من الفارسية إلى العربية.

وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مائة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبدالحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب.

وأما ديوان الشام فإن الذي نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبدالملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن منصور الرومي ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون.

وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبدالله بن عبدالملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبدالملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزاري من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى، وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية).

وأما ديوان الرسائل: فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال في الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعًا.

وكان عندهم ما يسمى **بديوان الخاتم**: وهو الديوان الذي تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم، خاتم الخلافة وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبدالحميد بن يحيى، قال الطبري: وكان من البلاغة في مكان مكين ومما اختير له من الشعر:

ترحل ما ليس بالقافل — وأعقب ما ليس بالزائل
فلهفي على الخلف النازل — ولهفي على السلف الراحل
أبكي على ذا وأبكي لذا — بكاء مولهة ثاكل
تبكي من ابن لها قاطع — وتبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة — لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبى — وردّ التقى عن الباطل

السكة الإسلامية:

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله، وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل، وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر.

قال المقريزي : فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلبًا للإحسان إلى الرعية فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقًا ومضت لك به السنة الصالحة، فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطًا تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجري مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضًا دنانير عليها تمثال متقلد سيفًا.

فلما قام عبدالله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحًا غليظًا قصيراً فدورها عبدالله ونقش على أحد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس في العطاء.

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبدالله ومصعب ابني الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطًا إلا حبة بالشامي وجعل وزن

الدرهم خمسة عشر قيراطًا سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف، وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن اضربها قبلك فضربها، وقدمت مدينة رسول الله ﷺ وبها بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإن فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئًا، وجعل عبدالملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي وهي الميالة الوازنة كل مائة دينارين أي أن النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ - ١٠٢ .

ثم قال وكان الذي ضرب الدراهم رجلاً يهوديًا من تيماء يقال له (سمير) نسبت الدراهم إذ ذاك السميرية .

وبعث عبدالملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب، وقيل لها الدراهم بها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وأن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أولاً فأولاً، وقدر في كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهي الدرهم «قل هو الله أحد» وعلى الآخر «لا إله إلا الله» وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

ثم قال: وكان الذي دعا عبدالملك إلى ذلك أنه نظر للأمة، وقال: هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية والعتق تبقى مع الدهر وقد جاء في الزكاة أن في كل مائتين أو في كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق أن جعلتها كلها على مكان السود العظام مائتين عددًا أن يكون قد نقص الزكاة وأن عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عددًا وجبت الزكاة فيها، فإن فيه حيفًا وشططًا على أرباب الأموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها

كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ما سنه رسول الله ﷺ وحده من ذلك وكان الناس قبل عبدالملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار؛ فلما اجتمعوا مع عبدالملك على ما عزم عليه عهد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق فجمعها وكمل زيادة الأكبر على نقص الأصغر وجعلها درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى، واعتبر المثقال أيضًا فإذا هو لم يبرح في آباد الدهر موفى محدودًا كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره.

ثم قال: ومات عبدالملك والأمر على ما تقدم فلم يزل من بعده في خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبدالملك فضرب الهبيرة بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبدالملك وكان جموعًا للمال أمر خالد بن عبدالله القسري في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكة من كل بلد إلا واسطًا فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكك الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر للسكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران إلى أن قتل.

وقد نقل المرحوم علي مبارك باشا في الجزء الأخير من الخطط توضيحات نافعة في أمر الدرهم والدينار في الدول الإسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير في الأزمنة المختلفة، وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التي يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨,٣٢ جرامًا فسدسها الذي هو المثقال ٤,٧

جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئًا يسيراً إذ أن وزنه ٦٩ , ٤ وأن الدينار كان وزنه ٣٥٠ , ٤ .

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة ذات القرشين تقريبًا ؛ لأن وزنها ٥٠ , ٣ جرامات وكان الدرهم في عهد عبدالملك يتراوح وزنه بين ٩٤ , ٢ وبين ٧٠ , ٢ج وأن وزن الدينار كان يساوي في الوزن نصف الجنيه الإنكليزي ؛ لأن وزنه ٢٥ , ٤ وقد كان وزن الدينار في عهد عبدالملك يتراوح بين ٦٤ , ٤ج وبين ٢٥٢ , ٤ .

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقوداً إسلامية ؛ لأن هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالي وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس في الدرهم والدينار .

أسباب السقوط:

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة فإن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضي الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته : كان في الأمة العربية طريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم والأولون ذوو إقدام وبسالة ألداء لا يقف في أوجههم عما أرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله ﷺ وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك إلا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايعه والتي سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكانها فإن صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقًا قهرته

وقضت عليه .

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يغضي عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها علىٰ أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحًا ومن العداء تقربًا ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة إلا أنه ـ فيما نرىٰ ـ زل زلة كبرىٰ قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب علىٰ منابر الأمصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتىٰ جعل النيران تتأجج في صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضًا وربما رد الجريء منهم علىٰ الأمير وجهًا لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف في العقوبة يزيد الأمر شرًّا كما حصل من زيادة في أمر حجر الكندي .

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموي كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم إلىٰ ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببًا في القضاء عليهم وهي :

أولاً: ـ ولاية العهد:

كانت ولاية العهد سببًا كبيراً في انشقاق البيت الأموي وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلىٰ أحدهما الآخر .

وأول من فعل ذلك مروان فإنه ولىٰ عهده عبدالملك ثم عبدالعزيز فكاد عبدالملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده إلىٰ ابنه الوليد وعزل أخيه لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبدالعزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذي رأىٰ ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولىٰ الوليد وسليمان خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر إلىٰ حين لم

يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبدالملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم: أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشامًا أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد.

وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمرًا عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثرًا بعد عين.

ثانيًا: إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام معفيًا لأثرها ومشددًا في النعي عليها؛ لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم.

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فإن وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك، وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن مجدل الكلبي؛ وقال في ذلك مروان:

لما رأيت الأمر أمرًا نهبا ... يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسين رجالاً غلبا ... وطيئًا تأباه إلا ضربا
والقين تمشي في الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخرًا صعبا
لا يأخذون الملك إلا غصبا ... وإن دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيدالله بن زياد لحرب المختار بن عبيد الثقفي كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمي كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يالثارات قتلى المرج!!

وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيدالله وكثير من جند الشام؛ في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام كان ما هو أشد منه في خراسان، فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدي، والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له: ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة.

فلما وصل نيسابور لقيه عبيدالله بن خازم فقال: من وليت خراسان فأخبره فقال: أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن اكتب لي عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم إلى مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار إليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم إلى مرو.

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم؛ لأنهم من مضر، فلما وصفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع.

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة: اليمن وربيعة وقيس عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر.

كانت الأمراء تساعد على إنماء هذه الروح الخبيثة فإذا ولي يماني رفع رءوس أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الأمصار، فإذا تلاه مضري عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله.

ولم يكن ذلك العرق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم، فإذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموي الذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فإن أبا مسلم الخراساني اتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تمّ له الظفر بجميعهم ولا ننسى أن لشعراء العرب الذين نبغوا في هذه الدولة يدًا كبرى في إنماء هذه العصبية؛ فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك؛ لا شيء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف فتنتمي إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فإذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فإن الكلمة تحق على الأمة ويقرب منها الفناء فإن الجهل يجعل روح العصبية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءها لم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية في قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموي وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية مما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ثالثًا: تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوي الأثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الأول والثاني، فإن سليمان بن عبدالملك لما ولي بعد أن كان الوليد يريد إخراجه من ولاية العهد عمد إلى كل من كان هواه مع الوليد فأذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم، فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من

قيس بن عيلان ولا ذنب لهما إلا أنهما من صنائع الحجاج الذي كان هواه مع الوليد ولا يميل إلىٰ سليمان .

ولما جاء يزيد بن عبدالملك كان هواه مع آل الحجاج لأنه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وهلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبي صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار في خدمة بني أمية والأمة الإسلامية وكان بعد هذا شيء كثير ففسدت قلوب الناس حتىٰ كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم علىٰ الانتقام من بني أمية ومن يؤازرهم .

الأمة التي ينتقم خلفها من عمال السلف لأنهم كانوا علىٰ وفاق معه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأي ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الأمم سائرة إلىٰ أمام وهي في موقفها ولها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة إلا صادفتها أخرىٰ حتىٰ يهديها التاريخ بعبره فتعتبر إذ تساق إلىٰ الفناء فتكون عبرة من العبر .

تنبيه:

لما كان أكثر الذين دونوا في عهد بني أمية قد عاشوا في الدولة العباسية استحسنا أن نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية .

(تم الجزء الثاني من المحاضرات)



فهرست الموضوعات

فهرست الجزء الثاني
من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

الموضوع	الصفحة

* * *


العصر للطباعة
هاتف: ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠ ١٩٠٠٠٣٨